فرق الرهبـان الفرسان فى بلاد الشام

فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر

دكتورة نبيلة ابراهيم مقامى
كلية الآداب -- جامعة القاهرة

Bibliotheca Alexandrina
0159310

مطبعة جامعة القاهرة
والكتـاب الجامعى
١٩٩٤

M.F.W
15138
956.9

فرق الرهبـان الفرسان فى بلاد الشام

فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : 956.9
ن ب . ف
رقم التسجيل : 12275

دكتورة نبيلة ابراهيم مقامى
كلية الآداب -- جامعة القاهرة

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

مطبعة جامعة القاهرة
والكتـاب الجامعى
١٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك

لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

صدق الله العظيم

مقدمة

ظهر فى أواخر القرن الحادى عشر فى بلاد الشام فرق الرهبان الفرسان ، وكان أشهر تلك الفرق الاسبتارية ، والداوية ، والتيوتون . وكان ظهور هذه الفرق نتيجة لاستقرار الصليبيين بالشام ورغبتهم فى تثبيت أقدامهم بالأراضى الاسلامية . ورغم أن أهداف فرق الرهبان الفرسان كانت فى بداية الأمر أهدافا خيرية وانسانية ، تتمثل فى ايواء فقراء الحجاج المسيحيين وعلاج مرضاهم ، وحراستهم على الطرق المؤدية الى الأماكن المقدسة ، الا أن هذه الأهداف تلاشت بالتدريج وتطورت ، وذلك عندما قويت هذه الفرق وزاد ثراؤها واستقلالها ، فأصبحت كل منها تمثل دولة داخل الكيان الصليبى بالشام .

ولعبت هذه الفرق دورا سياسيا وحربيا هاما ضد المسلمين فى كل من الشام ومصر ، وخاصة عندما توحدت أهداف فرق الرهبان الفرسان مع أهداف الصليبيين فى ضرورة الاستيلاء على مصر طمعا فى ثرواتها ، وتأمينا لوجودهم بالشام . وتكونت فرق الرهبان الفرسان من الفرسان النبلاء الذين سيطرت عليهم روح الدين وروح القتال ضد المسلمين ، وقد كانت هذه ظاهرة جديدة بالنسبة لطبقة النبلاء الفرسان الموجودة فى الغرب الأوروبى فى ذلك الوقت .

وتواجه الباحث فى تاريخ فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر مشكلة نقص المصادر التاريخية ، وربما يرجع ذلك الى أسباب كثيرة منها ما أصاب الصليبيين من اضطرابات عقب خروجهم من الشام بعد سقوط عكا عام ١٢٩١ . لهذا على سبيل المثال ، لا توجد وثيقة واحدة معاصرة تتناول نشأة هيئة الاسبتارية ، ولعل أقدم دليل لدينا هو كتاب المؤرخ الصليبى المعاصر وليم الصورى (١) . ورغم

---

(١) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea.
ولد المؤرخ وليم الصورى فى مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١١٣٠م

أن وليم الصورى لا يذكر تاريخ تأسيس هيئة الاسبتارية الا أن أقواله تؤكد ما توصل اليه بعض المؤرخين المحدثين مثال جروسيه ورانسيمان وغيرهما من أن تأسيس الهيئة تم بعد عام ١٠٧٠ م • يضاف الى ذلك أن تشريعات الاسبتارية التى تمت فى عهد مقدمها الثانى ريموند دى بيو Raymond du Puy (١١٢١ — ١١٦٠ م) قد ضاعت وسط الاضطرابات التى سادت عكا عام ١٢٩١ (١) •

وقد قام أحد فرسان هيئة الاسبتارية واسمه الراهب Guillaum de Saint-Estéve بكتابة تاريخ نشأة الهيئة ، ويبدو أنه لم يعتمد الا على مصدر واحد هو كتاب وليم الصورى • ورغم أن المؤرخ الصليبى وليم الصورى رئيس أساقفة صور وهو أحد رجال الدين البارزين فى مملكة بيت المقدس ، قد أظهر نوعا من العداء تجاه هيئة الاسبتارية والداوية ، الا أن كتاباته هى مصدرنا الوحيد للفترة الأولى لنشأة هيئة الاسبتارية •

أما بالنسبة للمصادر الخاصة بتاريخ هيئة الداوية ، فان بعض الوثائق المسماة (Cartulaire) — وهى الخاصة بتاريخ تلك الهيئة — قد تعرضت للضياع لأسباب متنوعة ، ولذلك لا تذكر لمصادر المتداولة أى معلومات عن تاريخ ممتلكات الداوية فى بلاد الشام ، كما أن نهاية الهيئة على يد فيليب الرابع ملك فرنسا فى بداية القرن الرابع عشر ، قد ساعدت على ضياع الكثير من وثائق الداوية •

كذلك فان المراجع والمصادر الخاصة بفرق التيوتون قليلة للغاية ، ليس فقط فى الشرق العربى ولكن أيضا فى الغرب الأوروبى ، ومن المرجح أن أرشيف الهيئة لا يزال مختفيا فى أحد جمهوريات الاتحاد السوفيتى الواقعة على سواحل البحر الأسود ، وهو المقر الأخير لهيئة التيوتون بعد خروجها من الشام بعد سقوط عكا عام ١٢٩١ م •

=

ولكن أصل ابويه غير معروف وكانت معرفته باللغات الأخرى غير الفرنسية معرفة واسعة ، فقد تكلم العربية واليونانية والعبرية والفارسية واللاتينية . وقد عمل رئيسا لأساقفة صور منذ عام ١١٧٥م حتى ١١٨٥م وظل مستشارا لملكة بيت المقدس منذ عام ١١٧٤ حتى وفاته ، وقد عاصر هذا المؤرخ معظم عهد الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس •

(١) R.H.C. Tome V, Extordium Hospitalariorum.

أما بخصوص المصادر والمراجع العربية ، فانها تناولت ذكر فرق الرهبان الفرسان بشكل عام تمثل فى شكل اشارات عابرة عن اشتراك تلك الفرق فى المعارك ضد المسلمين ، مثال ذلك ما ذكره العماد الكاتب فى كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » ، وابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » ، وابن العديم فى كتابه « زبده الحلب فى تاريخ حلب » وغيرهم من المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث .

ورغم هذا القصور فى المصادر الأصلية والمراجع الأجنبية والعربية الخاصة بتاريخ فرق الرهبان الفرسان ، الا أننى حاولت جاهدة أن استخرج مما اتيح لى تاريخا مفصلا عن هيئات الاسبتارية والداوية والتيوتون . ولم يكن هناك مناص من دراسة تاريخ هيئة الاسبتارية وهيئة الداوية كوحدة ، وذلك لأن تاريخ الهيئتين كان مرتبطا فيما بينهما وبين القوى الأخرى المحيطة بهما .

أما تاريخ هيئة التيوتون ، فقد تم دراسته فى فصل مستقل ذلك لأن هذه الهيئة ظهرت فى تاريخ متأخر عن فرق الاسبتارية والداوية ، كما أن سياستها الحربية اختلفت عن سياسة كل من الاسبتارية والداوية ، كذلك فان فترة مكوث هيئة التيوتون بالشام كانت قصيرة ولذلك فان معظم تاريخ هذه الهيئة انتمى الى التاريخ الأوروبى ، فقد لعبت هذه الهيئة دورا بارزا فى تاريخ المانيا فى العصور الوسطى بعد أن انتهى عهدها بالشام قبل سقوط عكا عام ١٢٩١ بعدة سنوات .

وتحتوى الرسالة على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وعدد من الملاحق ، ويتعرض الفصل الأول لنشأة الهيئات الثلاث ، أما الفصل الثانى فقد اضطررت الى عرض النشاط الحربى للاسبتارية والداوية دون التيوتون ، بسبب ظهور تلك الهيئة الألمانية فى وقت متأخر على مسرح الحوادث ، كما أن سياستها الحربية اختلفت تماما عن سياسة الهيئتين الكبيرتين . ويتضمن الفصل الثالث عرضا لقلاع الداوية والاسبتارية ودور تلك القلاع ثم سقوطها فى النهاية . أما الفصل الرابع فيعالج النشاط السياسى للاسبتارية والداوية وعلاقتهما بالقوى الاسلامية والمسيحية المحيطة . وفى الفصل الخامس أدرجت ما تيسر لى من معلومات عن التنظيمات الداخلية للهيئتين ومدى كفاءة تلك التنظيمات ، ثم عرضت تاريخ هيئة

التيوتون منفصلا فى الفصل السابع ، وأخيرا كانت الخاتمة لتظهر مدى أهمية الهيئات الثلاث بالنسبة للصليبيين وكيف كانوا عامل قوة لهم فى البداية ، ثم عامل ضعف وسببا فى انهيار الصليبيين فى نهاية الأمر ، كما أظهرت الخاتمة تقدير حكام المسلمين منذ عهد عماد الدين زنكى وادراكهم لخطورة فرق الرهبان الفرسان التى كانت بمثابة حملة صليبية مستمرة أمدت الجيوش الصليبية بفرق منتظمة ومدربة .

ولا يسعنى الا أن أقدم شكرى الى أستاذنا الكبير الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة ، فقد قدم لى العون والنصح ، فله منى خالص الشكر والتقدير . كما أنى أدين بالجميل والعرفان الى أستاذى الدكتور حسنين محمد ربيع الذى كانت له اليد اليمنى فى مساعدتى فى اخراج هذا الكتاب على هذا الوجه ، وأدعو الله أن أكون قد وفقت فى هذه المرحلة ، والله ولى التوفيق .

نبيلة ابراهيم مقامى

سبتمبر ١٩٩٤

الفصل الأول

نشأة هيئة الاسبتارية وهيئة الداوية فى بلاد الشام

أرادت البابوية فى العصور الوسطى بمساعدة الحركة الكلونية (١) ، أن توحد أوروبا كلها تحت لوائها ، وأن تصرف نظر الأمراء الاقطاعيين المتحاربين الى الوقوف صفا واحدا فى وجه العدو ومن أجل هدف واحد هو محاربة المسلمين والاستيلاء على الأراضى المقدسة (٢) . وقد اختلفت أهداف الذين لبوا نداء البابوية وقدموا الى الاراضى المقدسة فاما انهم ذهبوا اليها بدافع حب المغامرة أو بسبب نذر اتخذه شخص على نفسه أو بدافع دينى ولزيادة رفات القديسين ، أو بدافع الاستيلاء على أراضى جديدة والتخلص من حياة الفقر التى عاشها هؤلاء الوافدون الى الشام قبل مجيئهم فى ظل نظام الاقطاع فى أوروبا ، أو غير ذلك من دوافع وأسباب (٣) .

وبظهور فرق الرهبان الفرسان فى الشام ، يظهر بوضوح ذلك الخليط الغريب من الأهداف والنوايا . فقد بدأت هذه الفرق الارستقراطية الصغيرة Corps d'élite برعاية المرضى وحراسة الحجاج ، ولكن الأمر تطور وانتهى بأن قامت تلك الهيئات باحراز ثروات ضخمة مكنتها من الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية واسعة (٤) .

وبذلك يتبين أن هؤلاء الفرسان الرهبان الذين كونوا هذه الهيئات لم تختلف أهدافهم كثيرا عن أهداف معظم الصليبيين الذين جاءوا الى الأراضى المقدسة بحجة محاربة المسلمين . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تدفع رعاياها المسيحيين لزيارة الأراضى المقدسة بالشام والأماكن المقدسة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٢) Herr. F. The Mediaeval world, p. 97.

(٣) Thompson J.W., Economic & Social Hist. of the Middle Ages. Vol. I, p. 386.

(٤) Prawer. J., Histoire du Royaume Latin de Jerusalem. Vol. I, p. 488.

بالغرب كنوع من التكفير عن الذنوب (١) • ولذلك فقد ذهب الآلاف من الحجاج الى الأراضى المقدسة ، واقتضت الضرورة تشييد مؤسسات لايواء المرضى من الحجاج منذ وقت مبكر سابق للحروب الصليبية ، فقامت المستشفيات والمؤسسات الخيرية على الطرق المؤدية الى بلاد الشام خاصة على ممرات جبال الألب والبرانس ، وهى تلك الطرق التى لاقى الحجاج فيها الكثير من المشقة والعناء • وكانت أقدم المؤسسات الخيرية فى الغرب تلك المستشفى Hospice التى أنشأها القديس برنارد فى القرن الحادى عشر ، كما أن فكرة اقامة المستشفيات لم تكن فكرة جديدة ، فقد تم تأسيس هذه المنشآت الخيرية فى وقت مبكر وكان أشهرها مستشفى البابا جريجورى الأول التى أسسها عام ٦٠٣ م ، كما أسس نفس البابا مستشفى على جبل سيناء • كذلك أنشأ الامبراطور شرلمان عددا من المستشفيات فى بيت المقدس فى أواخر القرن الثامن ، كان الهدف من تلك المؤسسات أن يجد الحجاج فى الشرق من يتكلم لغتهم ويعتنى بهم ويقوم بحراستهم الى الأماكن المقدسة ، وقد قام بالاشراف على تلك المؤسسات الخيرية التى أنشأها شرلمان رهبان بندكتين • كذلك عمل الأباطرة البيزنطيين منذ وقت مبكر أيضا على انشاء مثل تلك المؤسسات الخيرية لخدمة الحجاج (٢) •

وببداية القرن العاشر زاد عدد الحجاج المسيحيين الوافدين الى بيت المقدس حتى وصلت أعدادهم الى بضعة آلاف أتوا على شكل جماعات ، بعد أن كان الحج مقصورا على الشخصيات العلمانية والدينية البارزة والجماعات الصغيرة المكونة من النبلاء والفرسان • وبزيادة عدد الحجاج ، اقتضت الضرورة وجود مؤسسات خيرية عديدة ترعى هذه الأعداد الهائلة وتقوم بتقديم الرعاية والعلاج •

---

(١) فرضت الكنيسة على المسيحيين نوعين من الحج ، حج كبير وهو للتكفير عن الذنوب الكبيرة وهذا الحج موجه الى اربع جهات : روما وكمبستيلا Compostella بأسبانيا ، والقسطنطينية وبيت المقدس ، أما الحج الصغير فكان موجها الى جهات قريبة كزيارة الأماكن والمزارات القريبة Shrines ، وهذا النوع من الحج كان للتكفير عن الذنوب الصغيرة • Thompson, op. cit., p. 382.

(٢) Prawer J., op. cit., I, p. 489.

وفى هذه الفترة السابقة للحروب الصليبية ، ظهر بعض الحجاج الذين أرادوا الجمع بين الدين والتجارة ، وكان هؤلاء هم تجار مدينة أمالفى الايطاليون . وقد برز من هؤلاء عائلتا Mauri Pantaleoni (١) اللتان استفاتان بحماية الدولة البيزنطية لهما ، فأسس أفراد هاتين العائلتين علاقات تجارية مع كل من مصر والشام . وتحرك هؤلاء التجار الأمالفيين فى حرية تامة بين مصر والشام ، خاصة بعد أن حصلوا على اذن من الخليفة الفاطمى الظاهر بمنحهم منطقة كبيرة فى مدينة بيت المقدس على أن يشيدوا عليها المبانى التى يريدونها (٢) ، فأسسوا عام ١٠٨٠ ديرا أرسلوا اليه من مينة امالفى أسقفا وبعض القساوسة للاشراف عليه ، وكانت هذه المنطقة التى أقاموا عليها الدير تقع بين شارع السوق بالمدينة المقدسة وكنيسة القيامة Saint-Sepulchre بها ، كما أقيم بجوار هذا الدير مستشفى أخرى وكنيسة باسم Sancta Maria Parva لرعاية المرضى من النساء الحاجات (٣) . وكان الدير الامالفى يستقبل كلا من الرجال والنساء فى بادىء الأمر ، ولكن سرعان ما أقيم مبنى آخر على شكل مستشفى لرعاية المريضات من النساء باسم مستشفى القديسة مريم المجدلية باشراف راهبات لرعاية السيدات . وقد سميت المستشفى الامالفية باسم القديس يوحنا ، وكان مقدمها الأول هو جيرار الذى كان راهبا وهب نفسه لخدمة المرضى من الحجاج المسيحيين . وقد اقترح جيرار على زملائه تكوين هيئة رهبانية منظمة لخدمة المرضى ، بحيث يلقب كل منهم بلقب Hospitaller أى ممرض ، وأن يلبسوا جميعا زيا موحدا عبارة عن رداء أسود طويل يتصف بالبساطة . وقد اكتسب جيرار هذا لقب حامى فقراء المسيح Guardien des Pauvres du Christ (٤) ذلك لأنه قام بأعمال خيرية تجاه الفقراء ، كما ظلت الهيئة طوال عهده تقوم على رعاية المرضى وتقديم العون للفقراء . وقد استمر أهالى أمالفى الذين جاءوا الى بلاد الشام للحج والتجارة ، يرسلون الأموال والهبات لمستشفاهم لاعانة الرهبان والراهبات

(١) Bre hier L., L'Eglise et L'Orient, p. 49.
(٢) Archer T., The Crusades, p. 167.
(٣) Prawer, op. cit., I, p. 489.
(٤) Lacroix, P., Vie Militaire et Religieuse au Moyen Age. p. 182.

والفقراء (١) • وكان جيرار يباشر مهامه فى المستشفى عندما استولى الصليبيون على المدينة المقدسة سنة ١٠٩٩ (٢) • ويذكر المؤرخ الفرنسى جروسيه Grousset ، أن جيرار ساعد الصليبيين على دخول مدينة بيت المقدس ، ومما يؤيد هذا القول أن حاكم بيت المقدس المسلم افتخار الدولة (٣) ، القى القبض على الراهب جيرار وألقاه فى السجن ، ولكن باستيلاء الصليبيين على المدينة المقدسة أطلق سراح جيرار وأصبح مستشفاه محل ثقة الحجاج الصليبيين وملوك بيت المقدس الأوائل •

أما عن حياة جيرار الأولى ، فلا تذكر المراجع عنها شيئا ، فقد تضاربت الأقوال فيما يتعلق ببلدته الأصلية ومسقط رأسه ، فيقول جروسيه (٤) ، أنه من أهالى مدينة امالفى بايطاليا ، ومما يرجح هذا الرأى أن التجار الامالفيين عندما أنشئوا الدير فى بيت المقدس أتوا بأساقفة وقساوسة من مدينة امالفى ، أما المؤرخ براور Prawer فيقول أن جيرار من مدينة Midi بفرنسا ، ولكن كل من لاكروا Lacroix وكنج King يقولان أن جيرار من اقليم بروفانس بفرنسا ومن بلدة مارتيج Martigues بها على وجه التحديد ، بدليل أن رفات جيرار قد نقلت الى هذه البلده بعد سقوط عكا عام ١٢٩١ •

وقد سافر جيرار المولود عام ١٠٤٠ م الى الأراضى المقدسة للحج عام ١٠٨٠ م وهناك تغير مجرى حياته عندما التحق بهيئة المستشفى وقام أسقف كنيسة سانت ماريا لاتينا بتعيينه فى مرتبة Rector أو رئيسيا للمستشفى والدير ، وذلك قبيل الحملة الصليبية الأولى مباشرة •

وباستيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩ ، أظهر جودفرى دى بويون تقديره لهيئة الاسبتارية برئاسة جيرار ، فمنحها قرية باسم Hessilia Casale بالقرب من مدينة بيت المقدس حتى تنتفع الهيئة

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 244.

(٢) Conder., The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 204.

(٣) افتخار الدولة هو حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستعلى بالله الفاطمى •
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨ •
أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٤١ •

(٤) Grousset, R., Histore des Croisades, Vol. I., p. 542.

الناشئة بمتحصلاتها المالية وغيرها فى العناية بالمرضى والفقراء ، وقد ورد اسم هذه القرية فى وثائق هيئة الاسبتارية كأول هبة تلقتها الهيئة من جود فرى دى بويون (١) .

ويذكر وليم الصورى أن نشأة الهيئة كانت تتصف بالبساطة والتواضع مما لا يتلائم مع أحلام فرسان ذلك العصر (٢) ، ولكن سرعان ما تطورت المستشفى واتسعت حتى استقبلت فى منتصف القرن الثانى عشر أكثر من الفين شخص فى آن واحد ، كما فاقت الهيئة فى أهميتها باقى الأديرة القائمة فى بيت المقدس حتى أكبرهم وهو دير سانت ماريا لاتينا الذى كانت الهيئة ملحقة به فى أول الأمر . وقد توفى جيرار أول رئيس للاسبتارية فى ٣ سبتمبر عام ١١٢٠ وله من العمر ثمانون عاما (٣) ، وقد أطلقت عليه الكنيسة لقب قديس وذلك لما اشتهر به من التقوى والسعى فى أعمال الخير تجاه الحجاج المسيحيين (٤) .

وكانت هيئة الاسبتارية أو فرسان المستشفى قد انفصلت عن الدير الامالفى القديم،وسارت على نمط هيئة القديس لازار Order of St. Lazarus وهى هيئة موجودة بالشام منذ عام ١١١٢ (٥) ، وكان لهذه الهيئة مستشفى بعكا خاصة للعناية بمرضى الجذام ، وقد اهتم حكام غرب

---

(١) Prawer, op. cit., Vol. I, p. 490.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 245.

(٣) Conder, op. cit., p. 205.

(٤) اطلق على جيرار رئيس المستشفى الأول عدة أسماء ورد فى مرسوم بابوى صدر عام ١١١٣ كما صدرت هذه الألقاب فى وثائق الهيئة وهى :
١ — Founder أو مؤسس . ٢ — Provost عميد . ٣ — Rector رئيس .
كما أشير الى جيرار فى مراسيم الهيئة بعدة أسماء أخرى هى :
١ — Hospitalarius ٢ — Servus Ospitalis Sancte Jerusalem
٣ — Prior ٤ — Servus et Minster Hospitalis
٥ — Pater ipsius domus
لمزيد من التفصيل انظر :
King., The Knights Hospitallers in the Holy Land., p. 26.

(٥) Richard, Le Royaume Latin de Jerusalem, p. 104.

أوربا ومملكة بيت المقدس الصليبية بهذة الهيئة حتى صار لهـا مراكز فى معظم مدن الشام الصليبية (١) • وكان جودفرى دى بويون حاكم بيت لمقـدس الذى اتخـذ لقب « حامى قبر المسـيح Advocatus Sancti Sepulchre» (٢) ، يشجع قيام مثل هذه الهيئات الخيرية ويغدق عليها الهبات والعطايا ، وشجع بعض الرهبان على تكوين هيئة كنيسة القيامة Order of Saint Sepulchre ومهمتها حراسة وحمـاية قبر السـيد المسيح ، وسرعان ما قامت هيئات أخرى لاقت تشجيع جود فرى دى بويون وتعضيده لها •

وقد قامت هيئة الاسبتارية التى نشـأت من الدير الامالفى ، على أساس ثلاثة مبادىء أساسية ، أقسم أعضاء الهيئة على التمسك بها مدى الحياة وهى : الفقر والعفة والطـاعة Poverty, Chastity, Obedience وقد أقيم حفل بسيط فى كنيسة القيامة حضره بطريرك بيت المقدس قام فيه أعضاء الهيئة باعلان القسم الثلاثى • وكان الملبس الاول لاعضـاء الهيئة عبارة عن رداء أسود طويل نقش عليه صليب أبيض له ثمانى زوايا ، أما الراعى الأول للهيئة فقد كان القديس يوحنـا الذى اشتهر باسـم Jean l'Aumonier أو المحسن ، وذلك لكثرة احسانه وبره بالفقراء (٣) • وقد أطلقت الهيئة اسم القديس يوحنا على مقرها ، ولكن سرعان ما بدلت الهيئة راعيها واتخذت القديس يوحنا المعمدانى Saint Jean Baptiste راعيا للهيئة • وقد أصدر البابا بسكال الثـانى مرسـوما فى ١٥ فبراير عام ١١١٣ ، اعترف فيه رسميا بالهيئة الجديدة ، كما وضعها تحت الرعاية المباشرة للبابوية فى روما ، كما أقر المرسوم البابوى ما للهيئة من أملاك فى كل من الشرق والغرب بالاضافة الى أملاك أخرى وامتيازات جديدة منحت لهـا • وقد تحولت هيئة الاسبتارية تدريجيا من هيئة خيرية ترعى المرضى وتقوم على ايواء الفقراء ، الى هيئة خيرية عسكرية لها نشاط حربى واسع

---

(١) Besant, Jerusalem City of Herod & Saladin, p. 274.

(٢) أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٥١ •

(٣) كان القـديس يوحنا من سكان جزيرة قبرص ، عرف بالتقوى والاحسان ثم شغل منصب بطريرك الاسكندرية فى القرن السابع الميلادى ، وقد اتخذت هيئة الاسبتارية فى بداية نشأتها اسمه رمزا لأعمال الخير التى تباشرها الهيئة .

انظر : William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 244.

وذلك تقليدا لهيئة فرسان الداوية Knights Templars أو فرسان المعبد، تلك الهيئة التى تأسست فى فترة لاحقة وكانت منذ نشأتها هيئة عسكرية بحته قامت أساسا لمحاربة المسلمين وحراسة الحجاج •

ولا تذكر المصادر المتداولة التاريخ الذى تم فيه هذا التحول التدريجى فى نشاط هيئة الاسبتارية ، ولكن أول اشارة وردت فى الوثائق تدل على ذلك هو وجود لقب كندسطبل Constable وهو لقب عسكرى اتصل بشخص يدعى دوراندو Durando ، ويرجع ذكر هذا اللقب فى الوثائق الى عام ١١٣٦ (١) • وكان لابد للصليبيين من اتخاذ الترتيبات اللازمة لمواجهة المسلمين خاصة بعد تلك الأزمة التى واجهتهم بعد أسر جوسلين دى كورتناى أمير الرها سنة ١١٢٢ (٢) ، والأزمة التى تلت أسر الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس عام ١١٢٣ على يد بلك الارتقى (٣) ، عندما حاول المسلمون مهاجمة الأراضى المقدسة منتهزين بذلك فرصة غياب زعماء الصليبيين فى الأسر • ويبدو أن الصليبيين بالشام جندوا جميع من لديهم من الرجال لمواجهة هذه الأزمات ومواجهة مشكلة قلة الرجال التى طالما هددت الوجود الصليبى بالشام (٤) ، وكانت نتيجة ذلك كله أن تحولت هيئة الاسبتارية الى الحرب لمواجهة خطر المسلمين بالاضافة الى الأعمال التى ظلت الهيئة تمارسها •

وسوف نتناول هذا التحول الكبير فى نشاط هيئة الاسبتارية وما تم به من انجازات ونشاط حربى فى فصل منفصل ، لنعرف بذلك الدور الهام الذى ساهم به فرسان الاسبتارية والداوية فى الحركة الصليبية ، فقد كونت هيئة الاسبتارية ثم هيئة الداوية جزءا هاما فى الجيش الصليبى • وأجمعت المراجع التى تعرضت لتاريخ الهيئتين أن المنظمتين كانتا بمثابة حملة صليبية تتجدد بانتظام وبدون توقف (٥) • وقد مثلت الهيئتان جيشان ملحقان ومرتبطان بقسم دينى لحماية الاراضى المقدسة ولقتال

---

(١) King, op. cit., p. 32.

(٢) Runciman, op. cit., Vol. II, p. 161.

(٣) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١١١ •
ا.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥١٣ •

(٤) Feddan & Thomson, The Crusaders Castles, p. 16.

(٥) Michaud, Histoire des Croisades, Vol. II, p. 79.

المسلمين فى أى مكان (١) • وكان للفرسان الرهبان المحاربين روح معينة خاصة جمعت بين الدين والحرب اللذين ارتبط وجودهما بوجود هـذه الطبقة • كما أن أملاك الداوية والاسبتارية وجيوشهما جعلت من الهيئتين قوة حربية واقطاعية لها أهمية كبيرة فى تاريخ الامارات الصليبية بالشام• وكانت الهيئتـان تقومان بتجديد وزيادة عدد أفرادها فى الشام الصليبى لايجـاد محاربين بصفة مستمرة ومنتظمة ، وكان ذلك يتم عن طريق مراكز كل من الهيئتين خارج الشام ، فقد انتشرت مراكز هيئة الاسبتـارية فى الغرب الاوربى كله وعملت هذه المراكز بنشـاط فى تجنيد عدد كبير من الشباب لتغذية فرق الهيئة المحاربة بالشـام ، فأرسلت تلك المراكز أعدادا غفيرة من الفرسـان الرهبان الذين وهبوا حياتهم لحرب المسلمين والذين شكلوا خطرا كبيرا على الجيوش الاسلامية لعدة سنوات • فقد استمر خطر الهيئات حتى بعد انهيـار القوى الصليبية بالشـام وسـقوط عكا عام ١٢٩١ (٢) •

أما عن نشأة هيئة الداوية فانه بعـد عشرين عاما من نشـأة هيئـة الاسبتارية ظهرت فى مدينة بيت المقدس هيئة أخرى عرفت فى المصـادر العربية باسم فرسـان المعبد أو الداوية أو الديوية (٣) ، كما عرفت فى المصادر الأجنبية بعدة أسـماء منها Templiers Pauvres Soldats du Christ أو جنـود السـيد المسـيح الفقـراء • Les Chevaliers de Temple أو فرسان المعبد وغيرها من الأسماء • وقد تأسست هذه الهيئة فى ظروف تختلف عن تلك الظروف التى نشأت فيها هيئة الاسبتارية ، ذلك لأن هيئة الداوية نشأت بعد استقرار الصليبيين بالشام عنـدما ظهر لحجـاجهم ورعاياهم مشـكلة الطرق الغير آمنة نتيجة اغارات المسلمين عليها وسـطو قطاع الطرق عليهم بغرض السلب والنهب •

---

(١) Cahen, La Syrie du Nord a l'epoque des Croisades, p. 510

(٢) انظر الفصل الثانى للبحث الخاص « بالنشـاط الحربى للاسبتارية والداوية » •

(٣) جاء لفظ الديويه فى كتاب كنز الدرر لابن أيبك ج ٨ ص ١١٧ ، ونهاية الارب للنويرى ج ٢٩ من المخطوط ص ٢٧ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٦ ص ٣٣ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ٩ ص ٢١٤ ، وكتاب الروضتين لأبى شامة ج ١ ص ٤٩٠ ، والسلوك للمقريزى ج ١ ص ٤٨٥ •

وقد ورد فى كتاب سيولف Saewulf الرحالة الروسى سنة ١١٠٣ وكذلك الراهب ايكهارت Ekkehard سنة ١١١٥ (١) ، ذكر الاغارات والكمائن التى قام بها المسلمون على طرق الحجاج ، كما ذكر المؤرخ وليم الصورى ما فعله الفلاحون المسلمون من محاصرة بعض المدن الصليبية حتى مات أهلها جوعا وأقاموا مذابح راح ضحيتها كثير من الصليبيين .

وكان الطريق من يافا الى بيت المقدس طريقا غير آمن ، كذلك طريق الخليل بيت المقدس ، وطريق طبرية الناصرة الذى كان يمر فيه الحجاج الروس فى طريقهم لزيارة المقدسات فى منطقة الجليل (٢) . ورغم أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس استطاع أن يخضع بدو الصحراء عام ١١١٠ الا أن حامية عسقلان المصرية التى ظلت وقتذاك فى يد الفاطميين (٣) ، ظلت هذه القاعدة المصرية المتقدمة تشكل خطورة حقيقية على الوجود الصليبى بالشام مما جعل ملوك بيت المقدس يعملون جادين على تأمين هذه الناحية ، وذلك باقامة الحصون والقلاع فأقام بلدوين قلعة باسم Chastel Arnoul التى قام الفاطميون بهدمها سنة ١١٠٦ ، أى بعد عام واحد من بنائها . كما اهتم بلدوين الثانى بمشكلة تأمين طرق الحجاج ، وذلك بأن شجع بعض الفرسان المتحمسين بتكوين هيئة هدفها حماية وحراسة الحجاج ، وهى الهيئة التى أصبحت فيما بعد تشكل اكبر هيئة عسكرية صليبية فى الشرق ، وهى التى عرفت باسم هيئة فرسان المعبد او فرسان الداوية .

وقد بدأ تحمس هؤلاء الفرسان النبلاء لفكرتهم فى تأسيس هيئة حربية جديدة عندما زار الأراضى المقدسة فارسان هما : هيودى باين Hugh de

(١) كان سيولف Saewulf أحد حجاج شمال أوروبا ، زار الأماكن المقدسة فيما بين سنتى ١١٠٢ و ١١٠٣ وقد كتب هذا الرحالة كتابا عن رحلته باسم Interarium Saewulf اظهر فيه صورة قاتمة لما لاقاه حجاج شمال أوروبا من هجمات ومخاطر من قبل المسلمين ، وقد سافر سيولف من بيت المقدس الى طبرية لمشاهدة المقدسات فى منطقة الجليل فكتب عن المخاطر التى لاقاها فى طريقه .

انظر : Prawer, op. cit., Vol. I, p. 492.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 542.

(٣) Richard, op. cit., p. 105.

Paynes وهو فارس من اقليم شامبنى بفرنسا (١) ، وزميله جفرى دى سانت أومير Geoffrey de St. Omer ، ومعهم تسعة من زملائهم كلهم من أصل فرنسى .

وبوصول هؤلاء الفرسان الى الأراضى المقدسة ، نالوا تصريحا سنة ١١١٨ من بطريرك بيت المقدس جاريموند Guarimond ومن الملك بلدوين الثانى بانشاء منظمة حربية مهمتها محاربة المسلمين ، وحماية طرق الحجاج ، وحماية معبد سليمان (٢) . وقد أقسم الفرسان على ذلك بجانب القسم الكنسى الأول القائم على الفقر والعفة والطاعة .

ولم تكن فكرة تكوين هيئة بالشكل الرسمى موجودة قبل وجود شخصية هيودى باين وذلك رغم وجود جماعة الاسبتارية فى بيت المقدس قبل ذلك بفترة طويلة ، ولكن فكرة تكوين هيئة تكون تحت رعاية البابوية ، جاءت أصلا على يد زعماء هيئة فرسان الداوية (٣) . وقد شجع بلدوين هؤلاء الفرسان ، ومنحهم جزءا من قصره لاقامتهم وجزءا آخر لاقامة شعائرهم الدينية ، وكان هذا الجزء المخصص للداوية فى القصر الملكى هو نفسه المسجد الأقصى الشريف الذى سماه الصليبيون Palais de Salomon أو Templum Solomonis هيكل سليمان ويقع جنوب قبة الصخرة الشريفة Dome of the Rock (٤) ذلك المكان الذى أحدث فيه الصليبيون المذابح التى راح ضحيتها الآلاف من سكان بيت المقدس المسلمون عام ١٠٩٩ .

وفى عام ١١٢٨ أرسل الملك بلدوين الثانى هيودى باين الى الغرب لطلب النجدة وارسالها الى المملكة الصليبية ، وقد حضر هيو مجلس تروى Troyes الدينى المنعقد فى فرنسا (٥) ، وقد أقر هذا المجمع الهيئة الرهبانية العسكرية الجديدة ، كما أقر لها نظاما Régle كان بمثابة

(١) Dictionnaire Apologétique, Article Templiers, Col. 1584. & Encyclopedia Britannica, Vol. 21, p. 920.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 524 Lacroix, op. cit., p. 195.

(٣) Archer, op. cit., p. 167.

(٤) Grousset, op. cit., Vol. I, p. 542.
Bésant, op. cit., p. 276.

(٥) William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 526.

قانون سارت عليه هيئة الداوية وسائر الهيئات العسكرية الرهبانية الأخرى • وكان هذا القانون قد وصفه الأسقف برنارد أسقف كليرفو Bernard de Clairvaux (١) ، وذلك الأسقف الذى تبنى الهيئة الجديدة وكتب عنها كتابا عنوانه «De Laude Novae Milicae» أو الفروسية لجديدة ، قام فيه بالدعاية الضخمة لهيئة فرسان الداوية وقارن بينهم وبين فرسان العصور الوسطى ، كما أظهر خلال هذه المقارنة المميزات التى ميزت الهيئة الجديدة عن طبقة الفرسان المعروفة ، فأشاد بقوتهم وخشونتهم وايمانهم وزهدهم وذكر كثيرا من طباعهم ونظمهم• وقد وافق البابا هونوريوس على القانون الجديد الذى وضعه القديس برنارد لهيئة الداوية ، وأصدر البابا مرسوما عام ١١٣٩ م Omne Datum Optimum اعترف فيه رسميا بهيئة الداوية (٢) •

وكان الشرط الأساسى للالتحاق بالهيئة لجديدة أن يكون العضو من الفرسان (٣) ، ولذلك فقد ظل عدد أفراد هيئة الداوية محدودا فى أول الأمر ، فيذكر وليم الصورى أنه حتى وقت عقد مجمع تروى أى عام ١١٢٨ كان عدد الأعضاء لا يزال كما هو تسعة أشخاص ، كما ظل عدد الأعضاء ضئيلا فى الفترة التى تنتهى سنة ١١٢٨ لأن المنظمة لم تقبل بين أعضائها عنصرا جديدا غير العنصر الفرنسى (٤) •

---

(١) برنارد أسقف كليرفو او القديس برنارد شخصية صليبية بارزة، كان زعيما للرهبان السسترشين والمسئول الاول عن قيام الحملة الصليبية الثانية الى الشرق ، فقد نجح هذا الأسقف فى ان الهب حماس مستمعيه فى خطابه الشهير الذى القاه فى فيزيليه Vezelay بعد مرور ٥١ عاما من خطاب البابا أوربان الثانى فى مجمع كلير مونت والذى أدى الى قيام الحملة الصليبية الأولى • وقد نجح برنارد بأسلوبه البارع فى اقناع الملك لويس السابع وكونراد الثالث وعددا كبيرا من النبلاء والأمراء للقيام بهذه الحملة • كما أن هذا الأسقف تبنى هيئة الداوية منذ البداية مما جعل لهذه الهيئة شعبية ضخمة فى أوروبا وجعل العائلات النبيلة تسارع لالحاق أبنائها بالهيئة ونيل شرف الخدمة فى هذه المؤسسة :
انظر :

Michaud, op. cit., Vol. II, p. 116 & Encyclopedia Universalis, Art. TEMPLIERS, Vol. 15, p. 919.

(٢) Dict. de la Foi Catholique, Vol. II, col. 754.

(٣) Grouseet, op. cit., Vol. I, p. 542.

(٤) Lacroix, op. cit., p. 195.

وقد ظل فرسان الداوية يعيشون فى بداية عهدهم عيشة بسيطة متواضعة ، ويرتدون ملبسا غير موحد ، معتمدين على ما يجود به المحسنون من الصليبيين ، حتى توحد زيهم فأرتدوا رداء أبيض نقش عليه الصليب باللون الأحمر ، كما كانت لهم راية Baucent ، كانوا يحملونها فى مقدمة صفوفهم المحاربة (١) . وكانت هذه الهيئة من الرهبان الفرسان Monastico-Militare قد اشتهرت فيما بعد بحسن التنظيم والادارة ، كما اكتسبت أهمية سياسية وحربية واقتصادية كبيرة ، فانضم للهيئة منذ البداية شخصيات بارزة مثل هيودى تروى Hugh de Troyes كونت شامبنى ، وفولك انجو الذى خدم فى صفوف الهيئة بصفة مؤقتة Frère a temps أى أنه راهب وفارس لفترة محدودة (٢) . وقد انقسم الرهبان بالهيئة الى فئات ورتب ، وكان يوجد على رأسهم جميعا المقدم أو القائد Grand Maître (٣) .

وببداية القرن الثالث عشر ، تراكمت لدى الهيئة الهبات والعطايا والامتيازات ، حتى أصبحت لها فى الغرب الأوروبى عدة مراكز فى بروفانس ، وفرنسا وبواتو وانجلترا وأرغونه وقطلونية وقشتال والبرتغال وتوسكانيا ولمبارديا وصقلية والمجر والمانيا وأسبانيا . وكانت هذه المراكز العديدة بمثابة قواعد أمدت الصليبيين فى الشرق بسيل مستمر من الشباب المحارب ، حتى اصبحت هيئة الداوية بمثابة جيش دائم تميز عن سائر جيوش الصليبيين الاقطاعيين بعدة امتيازات (٤) ذلك لأن هؤلاء الفرسان كانوا يهبون حياتهم كاملة لمحاربة المسلمين ، وبذلك شكلوا خطرا ظل يشكل أهمية خاصة لدى حكام المسلمين .

وقد سارت هيئة الاسبتارية على نفس أسلوب الداوية ، فأصبحت فيما بعد هيئة عسكرية لها أهمية كبيرة ولكن مع فارق واحد ، هو أن رعاية المرضى وايواء الفقراء ظل حتى نهاية عهدها بالشام يمثل واجبها الأول (٥) ، رغم أنها كانت تمثل بدورها قوة عسكرية خطيرة تعاونت

---

(١) Prawer, op. cit., Vol. I, p. 414.

(٢) Ency, Universalis, Art. TEMPLIERS, Vol. 15, p. 919.

(٣) Olliver, Les Templiers, p. 42.

(٤) Cahen, p. cit., p. 510.

(٥) Prawer, op. cit., Vol. I, p. 495.

مع الداوية ضد المسلمين فى كثير من الأوقات . وجدير بالذكر أنه مع بداية استقرار الصليبيين بالشام ، ظهرت فكرة تكوين الهيئات الخيرية والعسكرية والدينية ، فتكونت الهيئتان الكبيرتان الاسبتارية والداوية فى وقت مبكر ، ثم تكونت عام ١١٢٨ هيئة فرسان التيوتون وهى هيئة لها طابع عسكرى خيرى أيضا .

وقد نشأت هيئة الفرسان التيوتون بشكل رسمى ومعترف به بين الصليبيين ، أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة ١١٩٠ ، فقد قام بعض الحجاج الألمان المشتركين فى الحصار وهم من بلدتى برمن ولوبك Bremen Lübeck ، بالاتفاق معا على رعاية المرضى والجرحى من الحجاج الألمان لما يواجهونه من مشكلة اللغة عند قدومهم الى بلاد الشام واستقرارهم بها (١) .

وقد قام هؤلاء الحجاج الألمان باقامة مستشفى أقاموها من قلاع السفن لاستقبال جرحاهم وقدموا لهم خدمات انسانية وخيرية جليلة مما لفت أنظار الأمراء ورجال الدين . وسرعان ما اعترف البابا كلستين الثالث .Celestin III بالهيئة الألمانية الجديدة ، على أن يكون قانونها الكنسى والحربى مطابقا لقانون الداوية ، وأن يكون قانونها الخاص بالمستشفى والأعمال الخيرية مطابقا لذلك القانون التى سارت عليه هيئة الاسبتارية (٢) .

وقد ارتدى أعضاء هيئة الفرسان التيوتون الجديدة الرداء الأبيض الذى نقش عليه الصليب باللون الأسود ، كما منحت الهيئة من جانب البابوية تلك الامتيازات والاعفاءات التى منحت لهيئتى الاسبتارية والداوية من قبل . وقد سارع للالتحاق بالهيئة الجديدة أربعون من النبلاء الألمان اختاروا فارسا نبيلا هو هنرى دى فالبوت Henri de Walpot ليكون مقدما عليهم ، كما أصبحت الهيئة تحمل اسم Hospitaliers de Nôtre - Dame des Allemands.

وجدير بالذكر أن الهيئة الألمانية لم تقبل بين أعضائها غير النبلاء الألمان ، واشترطت أن يكون العضو لم يسبق له الزواج ، كما أقسم

(١) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 98.

(٢) Dumesil, Dict. Historique, Geographique et Biographique des Croisades., col. 978.

الأعضاء على القسم الثلاثى القائم على التقشف والعفة والطاعة وذلك على نمط نظام كل من الاسبتارية والداوية •

ولم يقدر لهيئة التيوتون أن تلعب دورا كبيرا فى بلاد الشام مثل الاسبتارية والداوية ، ولذلك فان معظم تاريخ هذه الهيئة ينتمى الى التاريخ الأوروبى (١) • ولما كان نشـــاط هذه الهيئة وتاريخها يختلف عن الهيئتين السابقتين ، لذلك فضلنا مناقشتها فى فصل مســتقل من فصول الرسالة •

وبجانب تلك الهيئات الثلاث الكبار ، كان يوجد ببلاد الشــام عددا من الهيئات الخيرية الدينية ، قامت لخدمة الحجاج المسيحيين وأهمهـا هيئة القديس لازار Order of Saint Lazarus وهى مخصصة لرعاية مرضى الجذام (٢) ، ثم هيئة القديس توما Order of St. Thomas Acre ثم هيئـة كنيســة القيـامة Order of the Holy Sepulchre وهى تلك الهيئة من الرهبان جعلوا واجبهم الأول هو حراسة قبر السيد المسيح، ولم تصبح هذه الهيئة الأخيرة هيئة عســكرية لها نشاط حربى الا فى القرن الخامس عشر • كذلك كان يوجد هيئات دينية وخيرية أخرى ببلاد الشام ، ولكن أهميتها أقل من تلك الهيئات المذكورة ، ومنها مثلا هيئة Montjoie وهيئة Order of St. George التى نشطت فى مدينة اللد •

ولم تكن فكرة انشاء هيئات عسكرية لمحاربة المسلمين فكرة جديدة ولدت بالشرق الاسلامى فقط ، بل كان مثل تلك الهيئات موجـودا بالفعل فى الغرب لنفس الهدف وهو محاربة المســلمين فى الأندلس ، وأشهرها هيئة فرسان كلاترافا Chevaliers de Calatrava (٣) ، كمـا أنشأت هيئات عسكرية أخرى بالغرب لمحاربة الشعوب السلافية المتبربرة على ساحل البحر البلطيقى (٤) ، وبذلك نرى أن هذه الهيئات نشـأت أصلا لمحاربة كل من لا يدين بالمسيحية ، ثم تطـورت أهــدافها حتى أصبحت هذه الهيئات كلها ذات نشاط تجارى اقتصادى بحت ، على نحو ما سوف يظهر خلال البحث •

---

(١) Prawer, op. cit., Vol. I, p. 495.
(٢) Besant., op. cit., p. 274.
(٣) Fliche et Martin, Histoire de l'Eglise, p. 314.
(٤) King, op. cit., p. 303.

الفصل الثانى

النشاط الحربى للاسبتارية والداوية

عندما اكتمل تكوين الهيئات الدينية من الاسبتارية والداوية ، بدأت تتطور لتأخذ طابعا عسكريا بجانب طابعها الدينى ، وتمتع الرهبان الفرسان بثقة الملوك والأمراء فى كل من الشرق الصليبى والغرب الأوروبى ، لذلك انهالت الهبات والعطايا على الهيئتين وبزيادة ثرائهما أصبحتا تكونان معا عنصرا هاما داخل المجتمع الصليبى فى الشرق ، وسوف يتضح ذلك أكثر باستعراض النشاط الحربى والسياسى للهيئتين ، وبه سوف يظهر ذلك الدور الهام الذى قامتا به فى الشرق الصليبى .

ونظرا لأن المجتمع الصليبى بالشام قام فى بداية الأمر على سياسة العنف وأعمال الاغارة ، لهذا كان القتال أهم عامل فى تثبيت وجود الصليبيين بالشام . ومن الضرورى لبحثنا عن تاريخ الاسبتارية والداوية ، توضيح بداية وكيفية استخدام قوات الهيئات العسكرية كعنصر هام فى الجيش الصليبى ، وتطور هذه الهيئات لتصبح بمثابة الجيش الدائم النظامى ، أو الحملة الصليبية الدائمة وهو نظام جديد طرأ على نظام الجيوش الاقطاعية ، فلم تكن الجيوش النظامية معروفة فى تلك العصور (١) .

كما أن دراسة الشام من الناحية الاستراتيجية يجعلنا ندرك أهمية هيئات الفرسان والدور الذى قاموا به بالدفاع عن حدود الأراضى الصليبية . فرغم الحصانة الطبيعية التى نعمت بها بلاد الشام بفضل وجود البحر والصحراء فى غربها وشرقها وجنوبها ، ووجود نهر الفرات كحدود شمالية لها ، الا أن الصليبيين عجزوا عن السيطرة على منطقة الوديان الداخلية ، كما أنهم لم يسيطروا على كل المناطق الجبلية المتاخمة للساحل ، لأن الامارات الاسلامية ظلت تهدد حدودهم وتحد من توسعهم ، وبالتالى

---

(١) Smail, Crusading Warfare, p. 17.

لم يسيطر الصليبيون على الشام كله فى أى وقت من الأوقات • أما الشريط الساحلى الذى سيطروا على معظمه ، فلم يكن كل الفضل يرجع الى قوتهم ، بل الى المساعدة الدائمة من جانب الأساطيل الايطالية ، وعندما حصلت المدن الايطالية على الامتيازات التجارية كفوا أيديهم عن مساعدة اخوانهم فى الدين ، وهكذا عجز الصليبيون بجيوشهم الاقطاعية عن الاستيلاء على داخلية الشام ، بالاضافة الى ضعف الموارد المالية للصليبيين (١) • يضاف الى ذلك المشكلة التى واجهت الصليبيين ببلاد الشام وهى مشكلة قلة الرجال المحاربين ، خاصة اذا وضعنا فى اعتبارنا الأعداد الكبيرة التى وقعت فى أسر المسلمين ، بجانب اصابتهم بالأمراض وتفشى الأوبئة فيهم نتيجة قسوة المناخ الذى لم يعتد عليه الأوربيون الجدد •

وقد برز دور رجال الهيئات العسكرية فى تاريخ استقرار الصليبيين بالشام فى أواخر القرن الثانى عشر ، ذلك لأنه طوال الثلاثين سنة الأولى للوجود الصليبى فى الشرق ، لم تكن الهيئات قد تحولت بعد للعمل الحربى ، كما أن ملوك الصليبيين وباروناتهم كانوا لا يزالون قادرين على الدفاع عن أراضيهم ، كما أن قوة المسلمين وتهديدهم للصليبيين لم تكن قد ظهرت بعد ، ولذلك فان الحاجة لم تكن ملحة لقوة تدافع عن أراضى الصليبيين فى الشرق • أما وقد ظهرت قوة المسلمين ، خاصة بعد استيلاء عماد الدين زنكى على الرها ، وضعف ملوك الصليبيين ، فان الضرورة أدت الى البحث عن قوة جديدة تحافظ على ما تبقى من أراضى للصليبيين • وكانت هذه القوة الجديدة التى استفادت من كل هذه العوامل هى قوة الهيئات العسكرية من الاسبتارية والداوية ، فعمل الملوك والبارونات على الاعتماد على هذه القوة بشكل واضح • وبمعنى آخر ، فان استيلاء عماد الدين زنكى على مساحات واسعة من الأراضى ، حرم السادة الاقطاعيين من الدعامة الأساسية التى اعتمد عليها الاقطاع وهى الأراض وبالتالى من عائدها ، وأهم من ذلك ، الخدمات الحربية التى كان يقوم بها السيد للملك الصليبى بموجب العقد الاقطاعى كما أن فقر أرباب الاقطاعات من الصليبيين ، أدى الى عجزهم عن سداد التزاماتهم

---

(١) Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, p. 255.

والقيام بواجبات الحرب والدفاع ، ولذلك كان لابد للملوك والبارونات من البحث عن مصدر آخر للطاقة البشرية ، فوجدوا ضالتهم فى ثلاث فئات من الصليبيين هم :

١ ــ الحجاج المسيحيون :

وهؤلاء كانوا يمثلون مصدرا لا بأس به من الطاقة البشرية ، الا أنهم لم يكونوا ملزمين بالقيام بواجب الحرب والدفاع ، واذا حاربوا فلفترة محدودة ، بالاضافة الى أن الأسلحة التى استخدموها لم تكن بالكفاءة المطلوبة •

٢ ــ المرتزقة :

كان أول المرتزقة الذى ذكر اسمه فى المصادر الصليبية هو تنكرد الذى قدم لحصار انطاكية سنة ١٠٩٨ • واعتاد ملوك الغرب ارسال الأموال الى الشرق الصليبى لغرض استئجار الفرق والقوات الحربية المساعدة ، خاصة عندما كانوا يعجزوا عن الاشتراك فى الحملات الصليبية بأنفسهم لانشغالهم بمشاكلهم الداخلية (١) • ولكن كان من عيوب استخدام القوات المرتزقة أنها كانت تمثل عبئا ماليا ثقيلا على عاتق الأمراء والملوك ، خاصة عندما قلت موارد هؤلاء باسترداد عماد الدين زنكى أراضى المسلمين فى الرها وما حولها ، فحرم ذلك الصليبيين من اقطاعاتهم ومكاسبهم •

٣ ــ الهيئات العسكرية الاسبتارية والداوية :

وهؤلاء كانوا يمثلون أكثر المصادر البشرية عددا ونظاما ، كما كانوا يؤدون الخدمات الحربية دون انقطاع بعكس الجيوش الاقطاعية التى كانت تؤدى خدمات حربية متقطعة ، ففى الاجزاء الصليبية التزم الفصل بخدمة سيده لمدة عام كامل يبدأ باعلان الحرب ، رغم أن مدة الخدمة كانت أربعين يوما فقط فى الغرب الأوروبى ، أما أفراد الهيئات العسكرية فقد كانت مدة خدمتهم الحربية غير محدودة بزمان أو مكان ، فكان قسمهم وشرط التحاقهم بالهيئة ينص على ألا يتقيدوا بالزمان والمكان ، طالما حالفهم الحظ لمحاربة أعداء المسيحية • وقد اعتبروا هذا شرفا انفردوا به دون غيرهم من الصليبيين • يضاف الى ذلك أن الهيئات

---

(١) Smail, op. cit., p. 93.

العسكرية وخاصة الاسبتارية والداوية ، تميزت باستخدام أسلحة جيدة وتمتع أفرادها بكفاءة التدريب والمثابرة على الحروب (١) • واستطاعت الهيئات اثبات ذلك فى ساحات القتال ضد المسلمين ، كما شعر أفرادها بهذا التفوق وبالتدريج أصرت الهيئات على مزيد من الاستقلال العسكرى والسياسى مما أضعف من سيطرة الملوك عليهم •

ولذلك تميزت الفترة الثانية لاحتلال الصليبيين للشام بسياسة دفاعية حلت محل سياسة الهجوم التى ميزت الفترة الأولى من الوجود الصليبى بالشام • وبطبيعة الحال كان أبطال تلك السياسة الدفاعية هم أفراد هيئتى الاسبتارية والداوية ، فقد استفادت الهيئتان من ضعف الملوك والأمراء الصليبيين وقتذاك ، خاصة عندما قلت موارد الملوك الاقطاعيين بضياع الرها وغيرها ، وقلت المصادر البشرية الهامة التى كانت تزيد من قوة الصليبيين ، كما أن كثرة الحروب والأوبئة والمجاعات وما نتج عنها من تخريب الأراضى والمحاصيل ، جعل الفلاحين يهجرون الأراضى الزراعية مما أدى الى ارتباك اقتصادى أثر على الموارد المالية وغيرها للاقطاعيين (٢) •

ولم يسع الملوك والبارونات الا أن يتخلصوا من الأراضى الزراعية وأعبائها ، فلجئوا الى بيع الأراضى والقلاع ، فانتهزت الهيئات العسكرية هذه الحالة واستطاعت بما لديهم من أموال متراكمة ، من شراء هذه الأراضى والقلاع (٣) • وبهذا أصبحت الهيئتان الكبيرتان بما لديهما من أملاك تمثلان طبقة اقطاعية هامة قادرة على تسيير الجيوش والحملات وبناء الحصون وشراء المزيد من الممتلكات ، حتى أصبح للاسبتارية والداوية ممتلكات فى جميع أنحاء الشام ، هذا الى جانب ممتلكات أخرى لهم فى أرمينيا الصغرى والقسطنطينية وقبرص وأوروبا •

ومن العجيب ، أن هيئة الاسبتارية التى اعتمدت فى نشأتها وبداية عهدها على ضريبة العشور التى كانت تمنحها اياها الكنيسة فى قيساريه الشام وطرابلس والناصرة وعكا حتى عام ١١٤١ ، أصبحت هذه الهيئة من الثراء لدرجة أن أملاكها انتشرت فى كل من الشرق والغرب على السواء ، وقد أشاد بذلك المؤرخ وليم الصورى الذى أقر أن ممتلكات الهيئة زادت

---

(١) Longnon, Les Français d'Outremer au Moyen Age, p. 139.
(٢) Smail, op. cit., p. 100.
(٣) Cahen, op. cit., p. 317.

لدرجة أنه لا يوجد امارة من الامارات الصليبية ، خالية من ممتلكات الاسبتارية حتى أصبحت تتساوى فى ذلك مع ما امتلكه الملك نفسه (١) •

ثم ظهرت عام ١١٤٢ سياسة جديدة اتبعها الأمراء الصليبيون بدأها ريموند أمير طرابلس ، وهى سياسة العهد بالحصون الهامة والتى تقع على أطراف المدن والقرى الاسلامية الى الهيئات العسكرية ، وأدت هذه الخطورة الى زيادة قوة الهيئات بشكل واضح ، هذا بالاضافة الى ذلك السيل البشرى من مراكز الهيئات بالغرب الذى مد الهيئات فى الشرق بمزيد من الرجال ، مما جعلهم يقومون بواجبات القتال والدفاع على أكمل وجه ، بصرف النظر عن سياستهم الحربية التى امتازت بالتهور والتعصب الشديد الذى أضر بالصليبيين فى كثير من الحالات • وعلى الرغم من أنه كان محظورا على الملك الصليبى — طبقا لقانون بيت المقدس — أن يتنازل عن القصور لصالح هيئات دينية ، الا أنه بانهيار أحوال الصليبيين بالشام ، اضطر الملوك الى منح الهيئات القصور والقلاع مثل قلعة بانياس التى منحت للاسبتارية عام ١١٥٧ (٢) ، وقبل ذلك منحهم ريموند أمير طرابلس عام ١١٤٢ حصن الأكراد الواقع على حدوده مع المسلمين ، كما أن الاسبتارية قامت بشراء قلعة المرقب من صاحبها سنة ١١٨٦ ، كذلك منحت الهيئة قلاع هامة منها قلاع عكار وعرقة وغيرهما (٣) •

ولم تتوقف المنح عند هذا الحد ، بل امتلكت الهيئات القلاع والأراضى والقرى فى جميع أنحاء الشام الصليبى ، وخاصة فى غربه ، ففى سنة ١١٦٧ امتلكت الداوية والاسبتارية أراضى واسعة فى امارة انطاكية ، كما اشترت الاسبتارية سنة ١١٧٩ أملاكا فى نابلس (توجد ١٤٠ وثيقة من القرن الثانى عشر تثبت أملاك هيئة الاسبتارية) حتى وصلت أملاك الاسبتارية حتى تل باشر Turbessel ، كما كان لها أملاك فى جبلة وبانياس Valenie وطرطوس واللاذقية وصهيون وبيروت ومرقيه والمرقب (٤) •

---

(١) William of Tyre, op. cit., Vol. I, P. 526.

(٢) Richard, op. cit., p. 106.

(٣) Smail, op. cit., P. 102.

(٤) Conder, op. cit., P. 206.

وعندما امتلكت هيئات الرهبان الفرسان تلك الممتلكات الكثيرة ، بدأت تلعب دورا جديدا فى الشرق الصليبى لم يكن مقدرا لها فى بداية نشأتها المتواضعة ، فقد جاء ثراء الهيئات على حساب الملوك والبارونات ، بالاضافة الى أن الهيئات العسكرية لم تكن خاضعة للملك بيت المقدس أو الكنيسة الكاثوليكية بالشرق ، بل كانت خاضعة للبابوية فى روما مباشرة . وبهذه المميزات استطاعت الهيئات بما اكتسبت من قوة ونفوذ أن تضع سياسة خاصة بها تختلف تماما عن سياسة الامارات الصليبية ، وقد اتضح ذلك فى امارتى انطاكية وطرابلس حيث امتلكت الاسبتارية والداوية فيهما ممتلكات كثيرة وبالتالى مارست فيهما سلطة واسعة (١) .

واتسمت السياسة الحربية للهيئتين الكبيرتين بالطابع الهجومى طوال تاريخهما بالشام ، وقد بدأت هيئة الداوية هذه السياسة التى اتسمت بالتهور والعداء الشديد تجاه المسلمين — ما عدا فى حالات فردية قليلة — فكان ذلك من وجهة نظرها واجب دينى مقدس ، وتبعتها هيئة الاسبتارية فى هذه السياسة الهجومية بعد أن اتخذت الشكل العسكرى فراحت تتبع هذه الروح العدائية تجاه المسلمين مع بعض اختلافات : وهو أن كلا من الهيئتين كانت لها سياستها ، كما اختلفت كثيرا فى ميادين القتال ، مثال ذلك ما حدث بالنسبة لاعلان الحرب على مصر فان الاسبتارية عضدت هذه السياسة فى حين عارضتها الداوية بشدة فى عهد الملك عمورى الأول ، كذلك فى ميادين أخرى ، فعندما كانت توافق هيئة منهما على الحرب كانت الأخرى تعارض ، وقد حدث هذا فى كثير من المجالات الحربية الخاصة عندما أصبحت الهيئتان فى مستوى واحد من القوة ، فان التنافس الحربى والسياسى كان واضحا بينهما .

أما بخصوص التحول الى الناحية العسكرية ، فان ذلك حدث لهيئة الاسبتارية دون هيئة الداوية التى كانت منذ البداية هيئة حربية أخذت على عاتقها محاربة أعداء المسيحية ، أما هيئة الاسبتارية ، فان تحولها الى المجال الحربى الى جانب واجبها الانسانى فانه يرجع الى سببين رئيسيين : الأول هو أن الفرسان الجدد الذين التحقوا بالهيئة بعد فترة طويلة من انشائها ، لم يرضوا بحياة الرهبنة وحدها كما ارتضى بها مؤسسو الهيئة

(١) Prawer, op. cit., Vol. I, P. 496.

الأوائل ، فقد أراد الفرسان الجدد من الشباب ممارسة حياة الفروسية والحرب مما يتلائم مع طبيعتهم الاقطاعية ، كما أن حالة الفقر التى صاحبت الاسبتارية فى بداية الأمر لم تعد تلائم جيل الفرسان الجديد ومتطلباته .
أما السبب الثانى لهذا التحول العسكرى ، فهو وجود هيئة الداوية فى طابعها العسكرى ، طكانت هيئة عسكرية مثالية تنعم برضاء البابوية مما جعل هيئة الاسبتارية تعمل لتفوز بمثل هذه الخطوة وما تلاها من امتيازات ، بعد ٣٠ عاما من انشائها (١) .

وكان أن تبلور شكل هيئة الاسبتارية فى ثوبها الجديد فى عهد الملك فولك ملك بيت المقدس ، عندما منح الهيئة قلاع بيت نوبة Bêtenoble وايبلين Yebna وتل الصافية Blanchegarde وبيت جبرين Gibeline وذلك لحماية حدود المملكة ومواجهة حامية عسقلان المصرية بوجه خاص وهى التى شكلت للصليبيين مشكلة ضخمة عانوا منها كثيرا (٢) . وكانت فكرة خروج الرهبان للعمل خارج الأديرة فكرة جديدة لم تكن متبعة فى المسيحية ، كما أن الكنيسة ظلت حتى القرن الحادى عشر لا تشترك فى الحروب وتحرم على رجالها هذا النشاط ، ولكن سرعان ما جعلت الكنيسة من الاشتراك فى الحروب واجبا مقدسا على كل من الراهب والفارس ، فكان خدمة رهبان الاسبتارية والداوية فى مجال الحرب نوعا من الجهاد والواجب الدينى وخدمة الكنيسة ، ذلك لأن الكنيسة أرادت أن توجه طاقة الفرسان الى حماية الدين المسيحى والفقراء وأعمال الاصلاح (٣) . وقد تمثل هذا الاتجاه من جانب الكنيسة عندما قام احد رجالها وهو برنارد أسقف كليرفو Bernard de Clairvaux (*) بتشجيع فكرة الاستشهاد فى سبيل حماية الدين المسيحى ، وقد تبنى هذا الأسقف هيئة الداوية منذ نشأتها وشجع نواياها الحربية ومبادئها فى الجمع بين الدين والحرب (٤) .

---

(١) Prawer, op. cit., Vol. I, P. 490.

(٢) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ج ٨ ، ص ١١١ .

(٣) Thompson, op. cit., P. 265.

(*) برنارد أسقف كليرفو تبنى هيئة الداوية ومدح هؤلاء الرهبان الفرسان وقال عنهم أنهم رجال عاشوا بدون ممتلكات خاصة وتحت قانون واحد وكأنهم رجل واحد ، وحرم عليهم شرب الخمر والصيد والاشتراك فى مجالس الروائيين والمغنيين ، كما حرم عليهم ارتداء الملابس الفاخرة .

(٤) Michaud, op. cit., Vil. II, p. 116.

وبالفعل ، استقرت هيئة الداوية فى بداية أمرها ، كما ذكرنا ، فى جزء من قصر بلدوين ملك بيت المقدس ، وهو جزء من الحرم الشريف بالمسجد الأقصى ، وعاشوا فى هذا المكان عيشة متواضعة ثم تطور بهم الأمر الى أن أصبحوا هم السادة الاقطاعيين فى الامارات الصليبية المنهارة ومارسوا سلطة حربية وسياسية مستقلة عن باقى الامارات الصليبية .

وكان مما تفخر به بعض العائلات الأوربية النبيلة هو أن يكون أحد أبنائها له شرف الانتماء الى احـدى الهيئتين الكبيرتين ، فقد تسابقت العائلات النبيلة بأوروبا فى ارسـال أحد أبنائها للالتحاق بالداوية أو الاسبتارية حتى يحظى هذا الابن التعليم الدينى والتدريب الحربى وعلى أصول الفروسية (١) .

كما كان يوجد نوع من العضوية الشرفية بالهيئة ، وهى التحـاق الفارس لفترة محدودة بها ، فقد تمتع الفارس الشرفى برضاء الكنيسة ، خاصة عندما يقوم بمنح الهيئة هبة من الأراضى أو القصور ، كما أن بعض الأمراء الذين اشتركوا فى الهيئة كانوا يفضلون ارتداء زى الهيئة وشارتها على ملابسهم ودروعهم التى تحمل شارات عائلاتهم العريقة . وبجانب الأمراء والنبلاء الذين اشتركوا فى صفوف الهيئة أو التحقوا بها ، فان الهيئة قبلت فى صفوفها كثيرا من المسيحيين المحرومين من الكنيسة وغيرهم من العامة ، أى أشخاص لا ينتمون لأصل نبيل .

أما زى فرسـان هيئة الداوية فانه كان زيا ميزهم طوال تاريخهم بالشام ، فقد تحدد لهم هذا الزى بعد الاعتراف بالهيئة رسميا فى مجمع تروى . وهذا الزى عبارة عن رداء أبيض نقش عليه الصليب الأحمر وهى الشارة التى تحددت فى عهد البابا ايجينوس (٢) ، وقد ارتدى جميع أفراد الهيئة هذا الزى الأبيض الذى كان ــ على حد قول المؤرخ وليم الصورى ــ زيا للرهبان السسترشية الذين كان برنارد أسقف كليرفو زعيما لهم . وبعد فترة ، تقرر للهيئة رداء آخر أسود تميز به السيرجنت Sergeants والرهبـان القـائمين على الخـدمة Serving Brothers كما نقش على هذا الرداء الصليب الأحمر أيضا ، أما الزى الأبيض فقد

---

(١) Michaud, op. cit., Vol. 11 p. 116.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. I, P. 525.

ظل خاصا بالفرسان فقط . وكما قرر البابا أوجين الثالث Engène III هذا الملبس ، فقد عهد هذا البابا الى الأسقف برنارد بوضع قانون خاص لهيئة الداوية ، يكون بمثابة دستور لها (١) .

وقد أدت ظروف الحرب واشتراك هؤلاء الفرسان فيها الى أن صاروا يرتدون الملابس الكتانية والقمصان الحديدية ونطاقات تحمل سيوفا طويلة ، وفوق هذه الملابس الحربية ارتدوا الرداء الأبيض أو الأسود ، كما لبسوا على رؤسهم خوذات حمراء كما سمح لهم بترك ذقونهم طويلة (٢) .

كذلك كان لهيئة الداوية راية مميزة ، حملوها فى مقدمة صفوفهم المقاتلة ، وهذه الراية سميت Bauceant أو Baucent أو Banter وكان نصفها أبيض والنصف الثانى أسود ، ونقشت عليها كلمات باللاتينية :

«Non nobis, Domine, non nobis sed nomni tuo da gloriam».

ومعناه « لا تعطينا نحن يارب النصر ولكن اعطه لمجدك » ، كما نقش على هذه الراية أيضا الصليب الأحمر الذى له ثمانى زوايا وقد طرز بالخيوط الذهبية (٣) .

أما الملابس التى ارتداها فرسان هيئة الاسبتارية ، فقد اختلفت عن زى أعضاء هيئة الداوية ، فكان رداء الاسبتارية أسود اللون بسيط الشكل ، نقش عليه الصليب باللون الأبيض على الجانب الأيسر من الرداء ، ولكن بتطور نظم الاسبتارية فقد تطور زى الرهبان أيضا ، فتقرر أن يرتدى الفارس أثناء الحرب وفوق ملابسه الديرية رداء أحمر . وجدير بالذكر أن قوانين الاسبتارية تضمنت بنود كثيرة خاصة بالملبس ويبدو أن الهيئة اهتمت بهذا المظهر اهتماما خاصا ، بدليل أن قانونهم ينص على أن يكون الفارس مهذبا فى ملبسه وتفكيره ، كما حرم القانون على الفرسان ارتداء ملابس تخل بمظهرهم ، خاصة الملابس القصيرة ، ما عدا فى حالة وجود الراهب على ظهر سفينة أو قائم بنوبة حراسة (٤) .

---

(١) Dictionnaire Apologétique de la Foi Catholique, Vol. 1. p. 525.

(٢) Lamb, The Crusaders Iron MEN & Saints, p. 296.

(٣) Lacroix, op. cit., P. 196.

(٤) Mills, A History of the Crusades., P. 344.

وكان أول ظهور الهيئات كقوة عسكرية لها مكانتها بين أمراء ونبلاء الصليبيين ، عندما عقد الملك لويس السابع وكونراد الثالث وملوك وأمراء الشام مجلس حرب فى عكا فى ٢٤ يونية عام ١١٤٧ وحضره مقدمو الهيئتين بصفة رسمية ، ممثلين لقوة عسكرية لها وزنها فى الشرق الصليبى وهى قوة الاسبتارية والداوية (١) .

وكان مقدم الاسبتارية حينذاك هو ريموند دى بيو Raymond du Ruy وعمره حينئذ ٦٨ عاما ، أما مقدم الداوية فكان افرار دى بار Evèrard des Barres ، وكان مقدم الداوية هذا قد عمل قبل قدومه الى الشرق كمقدم لجيش لويس السبع خلال عبور قواته لآسيا الصغرى ، وقد حاز هذا المقدم ثقة الملك أثناء هذه الفترة (٢) .

بالاضافة الى أن الهيئتين قد نالتا شهرة واسعة بنجاحهما فى أمور الدفاع عن الحصون والقتال ضد المسلمين ، فانهالت عليهما الهبات وامتلكت كل منهما الحصون الهامة فى المملكة وأهمها قلعة بيت جبرين للاسبتارية سنة ١١٣٧ ، وغزة للداوية سنة ١١٤٩ ، هذا بجانب أملاك الهيئتين وقوتهما فى كل من امارة انطاكية وامارة طرابلس (٣) . وقد اشتركت الهيئات بقوات كبيرة لا يعرف عددها بالضبط ، فانها لم تسجل فى سجلات الهيئتين الا بعد مرور أكثر من عشرين عاما على التحول العسكرى لهما ، فقد استطاعت الاسبتارية بعد هذه الفترة من امداد جيوش الصليبيين بحوالى ٥٠٠ فارس و ٥٠٠ تركبولى (*) . أما الداوية فاشتركت فى المعارك بعدد من الجنود فاق عدد جنود الاسبتارية ، كما كانت تقوم قوات مشتركة من الداوية والاسبتارية بالعمل معا فى المعارك ، مثال ذلك تلك القوات التابعة للهيئتين التى خرجت من بيت المقدس لصد هجوم قام به المسلمون بقيادة تمرتاش أمير ماردين الذى انتهز فرصة غياب بلدوين الثالث عن بيت المقدس وأغار عليها ، ولكن فرسان الداوية والاسبتارية استطاعوا حماية المملكة وصد هجوم

(١) King, op. cit., p. 45.
(٢) Oman, op. cit., Vol. I, p. 247.
Dumesil, op. cit., 1. 970.
(٣) Cahen, op. cit., P. 511.

(*) التركبولى Turcopoles نوع من الخيالة الخفيفة اتقنوا الرمى بالسهام من فوق ظهور الجياد كما كان يفعل المسلمون ، وكان هؤلاء التركبول عادة يجندوا فى جيوش الصليبيين من طبقة الافراخ أى ابناء الصليبيين الذين ولدوا فى الشرق .

المسلمين (١) ، كما اشتركت الهيئتان فى عدد من هذه المعارك الصغيرة مما ساعد على اظهار الكفاءة الحربية لرجالهما ، فأصبح الملوك يرحبون بانضمام هؤلاء الرهبان الفرسان فى صفوف جيوشهم ، وكان الثمن الذى طلبته الهيئات فى مقابل اشتراك رجالهم فى المعارك هو أن يكون للهيئة السيطرة الكاملة على جميع القوات الصليبية الموجودة على ساحة القتال ، وبذلك أصبحت الهيئتان بمثابة حليفتين مستقلتين لحكام الشام من الصليبيين ، فكانت لهم السلطة المطلقة فى ساحة القتال كما أختاروا اتباع سياسة حربية مستقلة عن سياسة الدولة ولم يقبلوا تدخلا من أحد • وتدريجيا ، فقد الملوك والأمراء الصليبيين سيطرتهم على العمليات العسكرية والعلاقات السياسية الخاصة بعلاقاتهم مع القوى المحيطة ، مما أدى الى حلول الكوارث بالصليبيين جميعا نتيجة سياسة التهور والاندفاع والتعصب التى اتسمت بها السياسة الحربية للهيئات العسكرية (٢) •

وجدير بالذكر أن كل امارة صليبية كانت ملزمة بتقديم عدد معين من المحاربين للعمل تحت راية ملك بيت المقدس فى حالات الحرب ، وكانت هذه الأعداد القادمة من الامارات الصليبية تعتبر ضئيلة بالمقارنة الى تلك الأعداد الهائلة التى وفرتها الهيئات لملك بيت المقدس • وباستعراض هذه الأعداد التى وفدت من الامارات ، يمكن لنا أن نتعرف على التفوق العددى للداوية والاسبتارية ، فى ساحة القتال على باقى المقاتلين • فقد وفدت من كل امارة من الامارات الصليبية لمملكة بيت المقدس ٥٠٠ فارس ،ما عدا امارة طرابلس التى كانت تقدم ٢٠٠ فارس فقط ، كذلك التزمت الامارات الفرعية بتقديم ١٨٣ فارس محارب من كل منها ، أما المدن الاقطاعية فقد قدمت كلها ٦٦٦ فارسا فقط وقت الحرب لمساعدة المملكة ضد المسلمين • ومن هذا العرض يتضح أن العدد الذى قدمته هيئتا الاسبتارية والداوية (أكثر من الفى فارس) لمملكة بيت المقدس فاق بكثير العدد الذى قدمته مختلف الامارات والاقطاعات التابعة للمملكة (٣) •

---

(١) King, op. cit., P. 49.

(٢) Smail, op. cit., p. 103.

(٣) Mills, op. cit., P. 312.

وبجانب ما تميزت به قوات الهيئات العسكرية من حسن تدريب وكفاءة تسليح وكثرة عدد ، فان هذه القوات أمتازت أيضا باتباع نظم خاصة نافست بها الجيوش الاقطاعية المبعثرة على النصر ، كما أن هذه النظم كانت صارمة ظهرت فى شكل قانون عسكرى انفردت به الهيئتان ، وقد وضع لهما هذا القانون العسكرى الصارم برنارد أسقف كليرفو ، وبدأت الداوية باتباعه وتبعتها فى ذلك هيئة الاسبتارية (١) . وتمسك أعضاء الهيئتين بهذه القوانين والمثل الحربية ، كما راعى أفرادها نصوص قانونهم العسكرى الذى كان ينص على أن يراعى الفرسان الطاعة والاحترام تجاه المرؤسين (٢) . كما نص على ألا يلجأ الفارس الى أساليب غير شريفة فى القتال ، أو الهرب أمام العدو ، أو التخلى عن زميله وغيرها من النصوص الخاصة بآداب القتال والحرب . كما تميزت صفوف الاسبتارية والداوية فى ساحات القتال بالتماسك وشدة البأس ، وقوة خيولهم المحاربة المغطاه بالدروع ، هذا فضلا عن قدرتهم على الحركة السريعة رغم ثقل سيوفهم ، مما أدى الى قدرتهم على الحرب فى أكثر من جبهة فى وقت واحد (٣) .

أما بخصوص أفراد الهيئة الذين اشتركوا فى ميادين القتال ، فان القانون العسكرى الذى وضعه أسقف كليرفو قسم الهيئة الى ثلاث فئات : الفئة الأولى الممتازة وهى فئة الرهبان المحاربين ، وهم الفرسان من طبقة النبلاء . وقد سموا فى مختلف المراجع بعدة أسماء أكثرها استعمالا هى Milites .

والفئة الثانية وهى المؤلفة من الرهبان حملة السلاح الذين حاربوا فى صفوف الهيئة وسموا Armigeri أو Sergeant ، وهم طبقة البرجوازية وغيرها من الطبقات المتوسطة .

أما الفئة الثالثة فهى فئة من الرهبان قاموا بالخدمة داخل الدير أو قاموا بالواجبات الدينية ، وقد عرفوا فى المراجع الأجنبية باسم Clientes .

---

(١) Michaud, op. cit., Vol., II, P. 79

(٢) Lacroix, op. cit., P. 196.

Dict. Apololgétique de la Foi Catholique, 1. 1584.

(٣) Richard, op. cit., p. 106.

وبالاضافة الى هـذا التقسيم ، فقد التحق بالهيئة بعض الفرسان والأمراء بصفة مؤقتة ولفترة محدودة وهم ما عرفوا اسم Frère a Temps وقد خضع الجميع للقسم الثلاثى القائم على التقشف والفقر والطاعة • كما كان يرأس هؤلاء جميعا المقدم الأكبر Grand Master يعاونه فى الادارة ضباطه وقادته ، وهؤلاء لهم سلطة اصدار الأوامر ، ما عدا فى ظروف كاعلان حرب أو غير ذلك ، حيث أنه تحتم لاصدار أمر الحرب تكوين مجلس استشارى Chapitre Gènèrale وهو مكون من عدد كبير من الرهبان والفرسان •

بهذا التنظيم الحربى الدقيق ، بالاضافة الى الثراء الذى أحرزته الهيئتان ، أصبحتا تكونان طبقة منفصلة فى المجتمع الصليبى تمتلك القلاع والحصون والأراضى والجيوش وتتمتع بالمزايا التى تمتع بها الاقطاعيون فى الشرق (١) • هذه العوامل بالاضافة الى مسألة الاستقلال عن السلطة الكنسية فى الشرق والانتماء الى البابوية فى روما ، جعلت للهيئات مكانة خاصة داخل اطار الامارات الصليبية فى الشام ، كما أنه بازدياد قوتهـا الحربية واعتماد الملوك والأمراء عليهـا فى واجب الدفاع والقتال جعل الهيئات تمثل جانبا هاما فى الجيش الصـليبى ، فاشتركوا فى كثير من المعارك ضد المسلمين •

أما المعارك التى اشتركت فيها قوات الهيئتين والتى كان لهم فيها دور بارز ، فسوف نحاول سردها باختصار لشرح دور الهيئات فيها ونتائج هذه المعارك بالنسبة للرهبان الفرسان خاصة وبالنسبة للصليبيين عامة •

١ ـ دور الاسبتارية والداوية فى حصار دمشق ٢٤ يوليو ١١٤٨ م (٥٤٢ هـ) :

لم تكن فكرة الاستيلاء على دمشق بعيدة عن أذهان الصليبيين ، فقد نشأت الفكرة عندما شرع بلدوين الثانى فى الاستيلاء عليها سـنة ١١٢٩ (بعـد موت طغتكين) فأرسـل هيـودى باين Hugh de Payen مقدم الداوية الى الغرب لتجنيد المحاربين وأحضارهم الى الشرق لتنفيذ هذا المشروع • وبالفعل قام بلدوين الثانى بالاستيلاء على بانياس من الاسماعيلية ، ولكن بورى استطاع صده عن دمشق ، كما أن الظروف

(١) Longnon, op. cit., P. 132.

الجوية حالت دون تنفيذ بلدوين لمشروعه ، ومات سنة ١١٣٩ دون أن يحرز نجاحا (١) .

ثم حدث فى عهد الملك فولك محاولة أخرى للاستيلاء على دمشق سنة ١١٣٩ ، ولكن عندما تحسنت العلاقات بين دمشق والصليبيين ، أمن فولك حدوده من جانب دمشق ، كما حصن حدوده ناحية مصر فأنشأ القلاع الجنوبية (تل الصافية وبيت جبرين وايبلين) وسلمها للاسبتارية للدفاع عنها .

ثم ظهرت فكرة الاستيلاء على دمشق بعد استرداد المسلمين للرها وقدوم الحملة الصليبية الثانية ، فقد اجتمع فى عكا فى ٢٤ يونيه ١١٤٨ كل من ملك بيت المقدس وبارونات الشام والملوك الذين قادوا الحملة الصليبية الثانية وهما كونراد الثالث ولويس السابع ، كما حضر هذا الاجتماع مقدمى الاسبتارية والداوية كقادة عسكريين ، وتقرر فى هذا الاجتماع مهاجمة دمشق وحرمان المسلمين من هذه المنطقة الغنية (٢) . وفى ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ — ٢٤ يوليو ١١٤٨ ، بدأ حصار دمشق ، وكان مدبر الأمور فيها هو معين الدين أنر ، وقد تقدم الصليبيون فى اتجاه دشق حتى وصلوا الميدان الأخضر على مقربة منها (٣) . واشتركت الداوية والاسبتارية بقواتهما ، حتى أنهم شكلوا قوات المقدمة التى قادها بلدوين الثالث ، أما الوسط فقد كان تحت قيادة لويس السابع ، فى حين قاد المؤخرة كونراد الثالث (٤) .

وبوصول الصليبيين الى هذا المدى القريب من دمشق ، وأحكامهم حصار المدينة ، فقد بدأوا يمنون أنفسهم بحكم دمشق وراحوا يقسمون الغنائم المترقبة ، وبالفعل تم اختيار كونت فلاندرز أميرا على دمشق ، مما أثار بارونات الشام مما جعلهم يتهاونون فى القتال بعد أن أدركوا فشلهم فى الحصول على ما كانوا يتوقعونه (٥) . ونصب المسلمون الكمائن

(١) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٩٧ .
Runciman, op. cit., Vol. II, p. 180.

(٢) Michaud, op. cit., Vol. II, P. 179.

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

(٤) King, op. cit., P. 46.

(٥) Michaud, op. cit., Vol. II, P. 183.

للصليبيين ، وكمنوا لهم وسط الأشجار ، فنصح مقدم الداوية باقى الصليبيين بالاسراع فى مهاجمة دمشق من الجانب الجنوبى والشرقى لتفادى هذه الكمائن ، ورفض الصليبيون هذا الاقتراح ، الذى سوف يبعدهم عن مصدر الماء ، كما أنهم علموا باقتراب قوات نور الدين محمود ، وكان ذلك فى اليوم الخامس من الحصار (١) • وعندئذ ، رفع الصليبيون الحصار عن دمشق فى ٢٨ يوليو بعد أن أعلنوا أن الخيانة كانت السبب الرئيسى لهذا الفشل ، كما القوا اللوم على الداوية وأعلنوا أنهم تقاضوا مبلغا ضخما من الذهب من حاكم دمشق فى مقابل تضليل الصليبيين وافساد خطتهم (٢) •

ويرجع المؤرخون الغربيون فشل هذه الحملة لعدة أسباب أهمها : التنافر الواضح بين الصليبيين الغربيين والصليبيين الشرقيين ، ولكن كثير من المؤرخين اتفقوا على وجود خيانة بين الصليبيين ، وأرجع كثير منهم هذه الخيانة الى جشع الداوية وتعطشهم للسطوة والمال (٣) •

وهكذا فشلت محاولات الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق ، بعد محاولة أخيرة دامت خمسة أيام ، ويذكر ابن العديم أن الفرنج قبل انسحابهم من دمشق قرروا عليها قطيعة ظلوا يجبونها كل عام ، فخاف نور الدين محمود من سقوط دمشق فى يد الصليبيين مما جعله يعمل على الاستيلاء عليها عام ١١٥٤ م — ٥٤٩ هـ ، وبذلك تبخر أمل كل من الصليبيين والداوية فى امتلاك دمشق الى الأبد (٤) •

٢ — دور الاسبتارية والداوية فى حصار عسقلان سنة ١١٥٣ م (٥٤٨ هـ) :

كان المجال الحربى الثانى الذى أظهرت فيه الهيئات العسكرية نشاطا واضحا هو ذلك الدور الذى قامت به الهيئتان فى حصار عسقلان ، وذلك عندما قرر الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس اخضاع حامية عسقلان المصرية ، التى ظلت طوال ٥٠ عاما تهدد الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس ، فانتهز الملك الصليبى فرصة ضعف وتدهور مصر

(١) الذهبى ، دول الاسلام ، ج ٢ ، أحداث سنة ٥٤٢ هـ •
(٢) Besant, op. cit., P. 314.
Conder, op. cit., P. 111.
(٣) King, op. cit., P. 47.
(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ •
أ.د سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٥٧ •

فى عهد الخليفة الفاطمى الظافر ووزيره ابن سلار للقيام بهذا المشروع (١) •
فبدأ بلدوين الثالث بتأمين مشروعه ، فأنشأ سلسلة من القلاع (غزة ،
جبلين ، ايبلين ، وتل الصافية) وبعد انتهاء العمل فى تلك القلاع عهد
بها الى الهيئات العسكرية للدفاع عن تلك الحدود الهامة للمملكة والتى
طالما واجهت التهديدات من جانب مصر (٢) •

بدأ حصار عسقلان فى ٢٥ يناير ١١٥٣ ، واستمر على مدى ستة
أشهر كاملة ورغم وصول امدادات فاطمية من القاهرة ومن جانب
نور الدين محمود تارة أخرى ، الا أن الصليبيين أحكموا حصار عسقلان
خاصة من قلعة جبلين التابعة للاسبتارية ، حيث انطلقت منها فرق
الصليبيين التى تضمنت عددا كبيرا من الداوية والاسبتارية • وكان مقدم
الاسبتارية حينذاك هو ريموند دى بيو ومقدم الداوية برنارد دى ترملاى
Bernard de Tremelaye (*)

واستخدم الصليبيون فى حصارهم لعسقلان كل الأساليب الحربية
المعروفة حينذاك ، كما استخدموا آله حصار جديدة وهى البرج
التى لم تكن معروفة لديهم حتى ذلك الحين • واستطاعوا
بعد جهد شديد أن يدمروا سور القلعة ولكن قواتهم لم تكن كافية
لدخولها واحتلالها • ومن ثغرة فى سور القلعة ، هرع مقدم الداوية
ورجاله الى داخل القلعة ورفض أن يتبعه باقى الصليبيين ، وكان عدد
رجال الداوية قليلا اذا قورن برجال الحامية المصرية ، ولذلك فما أن
دخل برنارد ورجاله عسقلان حتى حاصره المسلمون داخل القلعة فعجز عن
الانسحاب ، فقام المسلمون بقتله ومعه أربعين من رجاله وقاموا بتعليق
جثثهم على سور القلعة، مما بث الرعب فى نفوس الصليبيين المحاصرين للقلعة •

ويتفق عدد من المؤرخين الغربيين على أن هذا التصرف من جانب
الداوية كان مرجعه تعطشهم للفوز بالغنيمة كلها وحبهم الشديد

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٣ •

(٢) Archer, op. cit., P. 226.

(*) لقى برنارد دى ترملاى مقدم الداوية حتفه أثناء حصار عسقلان ،
وقد تم انتخاب مقدما آخر فى نفس الوقت هو برتراند بلانكفورت
Bertrand de Blanquefort ولكنه أسر بدوره أثناء اشتباكه مع
نور الدين محمود ١١٥٦ كما أسر معه ٨٧ من فرسانه •

Dumesil, op. cit., 1. 971.
Grousset, op. cit., Vol. II, P. 352.

للغنائم . وفكر بلدوين ملك بيت المقدس رفع الحصار عن قلعة عسقلان ، ولكن ريموند دى بيو مقدم الاسبتارية ومعه البطريرك فولشر Foulcher d'Angouleme استطاعا ان يقنعا الملك بضرورة الاستمرار فى الحصار ، وبالفعل استمر الحصار ، وأخيرا استسلمت الحامية المصرية بعد مقاومة قاسية ووصول امدادات ضخمة للصليبيين ، وأخليت عسقلان فى ١٩ أغسطس ١١٥٣م(١) .

ويتضح من سلوك الهيئتين أمام عسقلان ، أن لكل منهما اتجاها مختلفا عن الآخر ، فالداوية أظهرت تهورا شديدا فى القتال وعدم تخطيط حربى فى الهجوم ، والرغبة فى الفوز بالغنيمة كلها ، أما الاستبارية فقد أظهر مقدمها تريثا وخبرة قتالية وصبرا فى نصحه للملك بضرورة استمرار القتال مهما كلف الأمر . والدليل على حب وتعطش الداوية للمال ، أنه حدث أثناء حصار عسقلان أن دب الخلاف بين الوزير عباس والخليفة الظافر الفاطمى انتهى بمقتل الخليفة وقدوم الصالح طلائع ابن رزيك الى مصر ، فهرب عباس من القاهرة الى الشام ومعه ابنه نصر وكان يصحبهم اسامة بن منقذ صاحب كتاب الاعتبار ، ولكن هؤلاء وقعوا فى أيدى الداوية الذين قاموا بقتل عباس وبيع ابنه نصر الى أعدائه فى القاهرة بمبلغ ضخم وكان ذلك فى سنة ١١٥٤ م — ١٤ ربيع الأول سنة ٥٤٩هـ (٢) . وقد أثبت هذا الحادث بالاضافة الى ما أظهره الداوية من سلوك أثناء مهاجمة عسقلان ، أن هذه الهيئة تميزت منذ البداية بالتطلع الى الغنائم وليس مجرد الحرب فى سبيل الدين كما زعموا ، كما أن الأحداث التالية التى سوف يأتى ذكرها سوف تؤكد هذه الحقيقة .

وكان نتيجة نصر الصليبيين أمام عسقلان أنهم أصبحوا يمتلكون كل الأراضى الممتدة من الاسكندرونة Alexandretta شمالا حتى غزة

---

(١) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
أ.د سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٥٥ .
(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ٢٩٧ .
Prawer, op. cit., Vol. I, P. 408.

جنوبا ، كما أن عسقلان تحولت من حـامية مصرية تحمى مصر ، الى حامية صليبية انطلق منها الصليبيون للاغارة على مصر (١) .

٣ — كارثة الاسبتارية فى بانياس ٢٦ أبريل ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) :

استمرت المناوشات بين المسلمين والصليبيين قرب بانياس عندما قام بلدوين الثالث بنقض معاهدته مع نور الدين محمود فى فبراير ١١٥٧م (ذو الحجة ٥٥١ هـ) (٢) فقام الملك الصليبى فى هذا التـاريخ بمهاجمة الرعاة التركمان فى منطقة الشعراء المجاورة لبانياس . وقد عاب المؤرخ الصليبى المعاصر وليم الصورى هذا التصرف من جـانب الملك واعتبره تصرفا غير لائق . وكانت منطقة بانياس تابعة حينذاك لهنفرى دى تورون Onfroi de Toron كند سطبل الملك ، ولكن هذا السيد الاقطاعى أدرك صعوبة الدفاع عن هذه المنطقة الهامة التى تقع على حدود المسلمين مباشرة، ولذلك فانه طلب اذنا من الملك بعقد اتفاق مع هيئة الاسبتارية فى مقابل القيـام بأعمال الدفـاع (٣) . كما أن هيئة الاسـبتارية كانت مكلفة بالدفاع عن قلعة سوبيب (تسمى اليوم قلعة النمرود وتقع على بعـد ٢ كم شرق بانياس) وكان لهذه القلعة موقع هـام فكانت تشرف على الوادى كله ولها منطقة دفاعية من ناحية دمشق . وكانت منطقة بانياس كلها معرضة لهجوم المسـلمين ، حتى أن الصليبيين المقيمين بهـا كانوا يخافون الخروج من المدينة أو الدخول اليها الا تحت حراسة مشـددة أو من خلال طرق سرية خوفا من هجمات المسلمين (٤) .

وبعقد هذا الاتفاق بين كند سطبل الملك وهيئة الاسبتارية ، تسلمت الهيئة أملاكها الجديدة ، ولتعزيز هذه الأملاك ، أمر برسبتور الهيئـة بارسال التعزيزات من الرجال والسلاح ، فوفدت على بانيـاس قافلة هائلة تحمل المؤن والسلاح وتسير بجانبها قوة كبيرة لحراستها ، حتى تستطيع القافلة دخول المدينة ولو بالقوة اذا اقتضى الأمر ذلك ، وقـد بلغت قوة القافلة حوالى ٧٠٠ فارس (٥) .

(١) Grousset, op. cit., Vol. II, P. 359.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .
أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢٥٩ .

(٣) King, op. cit., P. 57.

(٤) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 255.

(٥) Grousset, op. cit., Vol. II, P. 370.
King, op. cit., P. 57.

ولكن سرعان ما وصلت أخبار القافلة الى آذان المسلمين ، وعلم ناصر الدين أخو نور الدين محمود بأمرها ، فعمل على ادراك القافلة قبل وصولها الى بانياس • ورغم خروج فرسان الاسبتارية من بانياس لنجدة قافلتهم ، الا أن المسلمين انتصروا عليهم وغنموا أسلحتهم وخيولهم وأموالهم ، أما رؤوس القتلى فقد أرسلها ناصر الدين الى دمشق ، كما أرسل الى أخيه فى بعلبك جماعة من أسرى الاسبتارية فأمر بضرب رقابهم • ويقول وليم الصورى ، أن الاسبتارية بعد هذه الكارثة ، تخوفوا من تكرار تلك المأساة فألغوا اتفاقهم مع همفرى دى تورون ، كما أن نصر المسلمين على اسبتارية بانياس كان له أثر طيب فى العالم الاسلامى (١) •

٤ — دور الداوية والاسبتارية فى حروب الصليبيين ضد مصر حتى سنة ١١٧٦ م :

عندما تولى عمورى الأول ملك بيت المقدس ، أدرك هذا الملك أهمية تأمين الحدود الجنوبية لمملكته ، وكان لعمورى خبرة طويلة فى هذا المجال بحكم منصبه السابق قبل تولى المملكة ، فقد كان قبل ذلك حاكما على يافا وعسقلان ، ولذلك ادرك تمام الادراك أهمية وخطورة حدوده من جانب مصر ، كذلك فان عمورى أثناء توليه منصبه السابق كان قد هدد مصر وأرغم حكامها على دفع جزية سنوية قدرها ٣٣،٠٠٠ دينار سنويا • ولم يكتف عمورى بذلك ، بل انه عندما شعر بتدهور أحوال مصر الداخلية ، شرع فى الاستيلاء عليها طمعا فى مواردها الضخمة • ورغم وجود معاهدة بين عمورى وشاور وزير مصر الفاطمى الا أن الملك الصليبى نقض الاتفاق وأعلن الحرب على مصر بحجة عدم دفعها الأموال المقررة عليها ، مما اعتبره وليم الصورى اجراء خاطئا الا وهو اعلان الحرب على دولة حليفة (٢) •

وكان أكبر المساندين لهذه السياسة الجديدة هى هيئة الاسبتارية ، وربما عضدها فى ذلك وجود قلاع حصينة لها على حدود مصر وأهمها

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٨ •
William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 257.
Ibid., P. 350.
(٢) King, op. cit., P. 87.

قلعة بيت جبرين ، ويذكر وليم الصورى أن جيلبرت واسيلى Gilbert Assalit (١) مقدم الاسبتارية كان هو المحرك الأول لهذه الحملة وربما يكون هو صاحب الفكرة . وقد عمل مقدم الاسبتارية هذا على تجنيد عدد ضخم من القوات لمساعدة الملك فى تنفيذ مشروعه ، مما نتج عنه ارهاق خزائن الهيئة ، ولم يكتف المقدم بذلك ، بل انه اقترض الأموال لتعبئة الرجال . وفى مقابل هذه المساعدة وعد الملك عمورى مقدم الاسبتارية بأن تكون مدينة بلبيس وما حولها من نصيب الاسبتارية فى حالة النصر . وقامت الحملة فى سنة ١١٦٣ م ، حتى وصلت بلبيس ، وهى أول قلعة قاومت الصليبيين وكانت حينذاك بقيادة أخو ضرغام الوزير الفاطمى ، وسرعان ما قدم ضرغام للملك عمورى تسوية بشأن الأتاوة السنوية ، كما استغل هذا الوزير فرصة فيضان النيل ، فأجبر عمورى على الانسحاب الى الشام (٢) .

وجدير بالذكر ، ان موقف الداوية من هذا المشروع كان مخالفا تماما لموقف الاسبتارية منه ، فقد رفضت الداوية تماما الاشتراك فى الحملة العدائية على مصر ، معتبرة أنه من الخطأ نقض المعاهدة المبرمة مع مصر ، أو ربما لمجرد مخالفة سياسة الاسبتارية لما أصبحت عليه الهيئتان من تنافس وعداء (٣) .

وكان شاور قد لجأ الى بلاط نور الدين محمود يستنجد به ، فأرسل معه حملة الى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه فى أبريل ١١٦٤ م (٥٥٨ هـ) (٤) . أما نور الدين ، فقد أراد شغل الصليبيين عن مصر ، فقام ببعض الاغارات على أملاكهم فى الشام فهاجم انطاكية ثم حصن الأكراد ، ولكن الاسبتارية خرجوا ليفاجئوا السلطان فى معسكره ودخلوا بخيولهم وسطه ، حتى أن نور الدين هرب بصعوبة بالغة ، وهى الوقعة

---

(١) King, op. cit., P. 87.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٨٣ .

(٣) Beasant, op. cit., p. 347.

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٣٤٦ .
ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٢٠ .

King, op. cit., P. 88.

التى سماها ابن الأثير « البقيعة » (١) • واشترك فرسان الداوية فى هذه الموقعة لمساعدة الاسبتارية ، وكانت الداوية بقيادة اثنين من الفرسان الانجليز هما روبرت مانزل Robert Mansel وجلبرت دى لاسى Gilbert de Lacy .

وبعد هزيمة نور الدين محمود تحت حصن الأكراد وهروبه الى حلب ، انضم اليه أمراء شمال الشام وأعالى الجزيرة ، وعملوا جميعا على مهاجمة حصن حارم — وهو آخر حصن لانطاكية من ناحية حلب — وعندما سمع الصليبيون بذلك أسرع أمراء طرابلس وانطاكية وثورس الأرمنى وحاكم قليقية البيزنطى وقوة من الداوية والاسبتارية لنجدة الحصن فى ١٠ أغسطس سنة ١١٦٤ ، ولكن النصر كان للمسلمين ، واستسلمت حارم فى أكتوبر من نفس السنة ، وسار بعدها نور الدين قاصدا بانياس (٢) •

كان عمورى حينذاك يحاصر بلبيس ودام حصاره لها ثلاثة أشهر ، فلما علم باستيلاء نور الدين على حارم وسيره الى بانياس ، أسرع الى عقد صلح مع شيركوه وعاد فى شهر نوفمبر الى بلاده ليجد نور الدين قد استولى على حارم وبانياس وقام بأسر كبار أمراء الصليبيين • وبذلك تبدد حلم الاسبتارية مؤقتا فى امتلاك أجزاء من مصر (٣) •

وبقيام الحملة الثانية التى أرسلها نور الدين محمود فى يناير ١١٦٧ الى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لمساندة الخليفه العاضد ضد استبداد شاور ، قام شاور بالاستنجاد بالصليبيين ، فوصل عمورى الى مصر فى ٢ فبراير ١١٦٧ ومعه ٣٧٤ فارسا وقوة كبيرة من التركبولية ، فانضم شاور الى حلفائه واتخذوا مواقعهم فى مواجهة شيركوه على الضفة الشرقية للنيل • وقد تعهد شاور بدفع ٤٠٠ ألف دينار فى حالة بقائهم حتى رحيل شيركوه على أن يدفع نصف المبلغ مقدما • ويذكر أبو شامة أن شاور ضمن لعمورى أن يدفع له ألف دينار عن كل مرحلة يرحلها الى مصر ، كما

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٤ •
أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٣١٨ •
Stevenson, The Crusaders in the East, P. 188.

(٢) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٢٥ •
Conder, op. cit., P. 121.

(٣) أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٨٦
King, op. cit., P. 91.

« قرر شيئا لقضيم دوابهم وشيئا للاستبارية » (١) . وخرج عمورى من عسقلان الى مصر قاطعا ٢٧ مرحلة تقاضى عنها ٢٧ ألف دينار ، وقام بالاشتراك مع شاور بمحاصرة شيركوه فى بلبيس لمدة ثمانية أشهر . أما نور الدين محمود ، فانه هاجم أملاك الصليبيين فى بلاد الشام ونجح فى الاستيلاء على بعض الحصون للداوية والاسبتارية مثل حصون صافيتا والعريمة ، كما هاجم المنيطرة ، ودمر الأراضى التىحول حصن عرقة ، ثم سار جنوبا ليهدد حصن هونين (٢) .

هذه التحركات السريعة التى قام بها نور الدين فى أراضى الصليبيين ، جعل بوهيموند الثالث أمير انطاكية يدرك أهمية تأمين حدوده الشرقية ، لذلك اتبع نفس السياسة التىكان قد اتبعها قبله ريموند :مير طرابلس سنة ١١٤٢ ، وهى تسليم الحصون الهامة التى تقع على حدود المسلمين الى الهيئات العسكرية من الاسبتارية والداوية ، وهى القوة الوحيدة التى أصبحت قادرة على القيام بهذه المهمة ، لذلك سلم بوهيموند قلعة أبى قبيس وأفامية (التى كانت تحت سيطرة نور الدين حتى عام ١١٤٩ م) ، كما أن عمورى (الذى كان وصيا على امارة طرابلس أثناء أسر أميرها ريموند الثانى) سلم للاسبتارية حصون عرقة وعكار ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الاسبتارية والداوية تقومان بواجب الدفاع عن معظم حدود امارتى انطاكية وطرابلس .

أما موقف عمورى فى مصر ، فقد انتهى بعقد صلح مع شيركوه ، على أن يرجع كل من الطرفين الى بلاده ، فعاد شيركوه أولا ، أما عمورى فقد عاد بعد أن فرض على مصر أتاوة سنوية قدرها ١٠٠٫٠٠٠ دينار (٣) . وعاد عمورى من حملته الفاشلة على مصر بفكرة أن هذه البلاد سهلة المنال لولا وجود نور الدين محمود الذى ظل يهدد أراضى الصليبيين كلما غابوا عنها لمهاجمة مصر ، ولذلك فان عمورى قرر أن يقوم بهجوم سريع على مصر بحيث لا يعطى الوقت لتحركات نور الدين محمود .

ووجد عمورى فى هذه المرة أيضا أكبر المساندة من مقدم الاسبتارية ، جيلبرت داسيلى ، فطلب هذا المقدم من الهيئة أن تقدم للملك كل ما لديها

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٢١ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٥ .
(٣) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، أحداث سنة ٥٦٤ هـ .
أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

من امكانيات لضمان نجاح هذه الحملة ، كما أن جيلبرت سافر بنفسه سنة ١١٦٧ الى الغرب ليطلب قرضا من مدينتى جنوه وفلورنسا (١) . وعقد الملك عمورى والاسبتارية اتفاقية قبل قيام الحملة على مصر ، نصت على أن تضع الاسبتارية تحت امرة الملك عمورى ٥٠٠ فارس بأسلحتهم و ٥٠٠ تركبولية ، فى مقابل ذلك يمنح الملك للهيئة مدينة بلبيس وما حولها ، وكانت حصيلة عوائدها تقدر بـ ١٠٠٠٠٠ بيزنت ، بالاضافة الى منح الهيئة ٥٠٠٠٠ بيزنت اضافية . كما نصت الاتفاقية على أن تكون للهيئة الحق فى ملكية عشر مدن مصرية رئيسية هى : تنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص وأسوان والبهنسا وأطفيح والفيوم (٢) ، على أن تكون لها نصيب فى كل الضرائب المفروضة على الأراضى التى يستولى عليها الصليبيون فى مصر فى حالة نجاح الحملة . والى جانب هذا كله ، نصت الاتفاقية على أن يكون للهيئة النصيب التقليدى فى الغنيمة ، أما فى حالة اشتراك أفراد الهيئة فى حملة منفردين فان الغنيمة بأكملها تئول للهيئة ، ما عدا تلك المعارك التى يشترك فيها الملك شخصيا . وقد تم توقيع الاتفاقية بين الملك عمورى ومقدم الاسبتارية قبل قيام الحملة الى مصر بحوالى أسبوعين ، أى فى ١١ أكتوبر ١١٦٨ (٣) .

أما الداوية ، فانها كانت — كما أسلفنا — منذ البداية تعارض فكرة مهاجمة مصر ، وقد ظلت تعارض الفكرة ، كما عارضت المعاهدة التى تمت سنة ١١٦٧ بين عمورى ومانويل كومنين امبراطور الدولة البيزنطية ، بشأن حملة مشتركة ضد مصر ، واعتبرت الداوية هذا المشروع فيه الكثير من التهور لأن قوات شيركوه كانت تحتشد فى دمشق وتهدد الصليبيين من الجانب الآخر ، كذلك أدركت الداوية صعوبة الطريق الى مصر وما به من صحارى وقنوات مائية ، كما وجدت الداوية أن نقض عمورى للمعاهدة التى بينه وبين مصر سوف تثير الرأى الاسلامى ضد المسيحيين جميعا . ويقول Michaud فى هذا الصدد (٤) ، أن الداوية رفضت مشروع مهاجمة مصر بحجة أنه اذا تم للصليبيين الاستيلاء على مصر ، وهو أحسن الفروض ، فانهم لن يتمكنوا بحال من الأحوال من المحافظة

---

(١) Prawer, op. cit., Vol. I, P. 437.

(٢) King, op. cit., P. 94.

(٣) Conder, op. cit., P. 125.

(٤) Michaud, op. cit., Vol. II, P. 232.

على تلك البلاد ، كما أن غزو الصليبيين لمصر سوف يكون لصالح نور الدين ، لأن ذلك سوف يعطيه فرصة الاستيلاء عليها ، كما كان غزو الصليبيين لدمشق فيما سبق فى صالح عماد الدين زنكى •

وكان مقدم الداوية فيليب دى نابلس Philippe de Nabuls هو الذى يمثل أعلى الأصوات المعارضة ، وقد أعلن صراحة أنه لن يشترك فى هذا المشروع ، ورغم أن البارونات المحليين انضموا للداوية ، الا أن عمورى لم يلتفت اليهم ، كما أنه لم ينتظر وصول المدد الذى وعده به حليفه البيزنطى ، بل انه قام بحملته على مصر وحده ومعتمدا اعتمادا كاملا على قوة الاسبتارية (١) •

وظهرت قوات عمورى فى ٣ نوفمبر ١١٦٨ أمام بلبيس ، فاستولت على المدينة ، وأقام فيها الصليبيون مذبحة هائلة وسبوا النساء والأطفال (٢) • ثم قام عمورى بمنح مدينة بلبيس للاسبتارية طبقا للاتفاقية، فوضعت الهيئة بها حامية قوية ثم سار أفرادها مع الملك الى القاهرة ، وازاء ذلك قام شاور باحراق الفسطاط ، مما أوقف نشاط الصليبيين مؤقتا فى مصر ، كما أنه راوغهم فى مفاوضات الصلح حتى وصل شيركوه فى ١٧ ديسمبر ، وعندما وجد عمورى تفوق عدد المسلمين انسحب بجيشه فى ٢ يناير الى بلاد الشام ولذا يقول ابن الأثير « فلما اقترب (شيركوه) مصر رحل الفرنج عنها عائدين الى بلادهم بخفى حنين خائبين مما أملوا وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر » (٣) • ومن هذا القول يتضح أن عمورى أدرك أن رأى الاسبتارية وتحمسهم لغزو مصر انما جر عليه وعلى جيشه الوبال وفقد كثيرا من ممتلكاته بالشام استولى عليها نور الدين محمود أثناء غيابه فى مصر •

ورغم هذه الخسائر الفادحة التى تكبدها الصليبيون فى حملاتهم على مصر ، الا أن عمورى ملك بيت المقدس ظل يحلم بامتلاك هذه البلاد الغنية ، فأرسل الرسل الى الغرب لطلب العون ، أما الحليف الآخر الذى لم يحقق أحلامه ألا وهو مقدم الاسبتارية فأرسل هو الآخر الرسل الى الغرب ،

---

(١) ابن ايبك ، كنز الدرر ، ج ١١ ، ص ٢٩ أحداث سنة ٥٥٩ هـ .

(٢) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٣٨ .

King, op. cit., P. 49.

(٣) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٣٩ .

ويقول ابن الأثير « وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح » (١) .

وعاود عمورى الكرة مرة أخرى عام ١١٦٩ لغزو مصر بمساعدة الاسبتارية أيضا ، وقد أراد مقدم الاسبتارية هذه المرة ضمان حقه فى الغنيمة تعويضا لخسائره ومصروفاته الباهظة لاتمام الحملة ، بعقد اتفاقية مع الملك عمورى فوقعا اتفاقا جديدا أقر فيه الملك الاتفاقية السابقة الخاصة بلبيس وما حولها وباقى نصوصها . وقد نزلت حملة عمورى على دمياط بمساعدة البيزنطيين هذه المرة ، وظلت مدة اقامتهم على دمياط خمسين يوما ، ولكن الحملة فشلت ، وعاد عمورى الى بلاده فى ١٩ ديسمبر ١١٦٩ ، وعلى حد قول ابن الأثير « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين » . وسبب ذلك أن عمورى والاسبتارية فى هذه الحملة وجدوا أن نور الدين محمود قد استولى على عدة مناطق هامة منها حصن عرقة للاسبتارية وهو الذى استولى عليه نور الدين فى محرم ٥٦٧ هـ ، سبتمبر ١١٧١ م (٢) .

وبهذا الفشل ، دب الخلاف بين الحليفين ، فراح الملك عمورى يتهم حليفه ومساعده الأكبر جيلبرت داسيلى مقدم الاسبتارية بأنه كان السبب المباشر لفشل هذه الحملة ، كما أن جيلبرت هذا لم يسلم من جانب أعضاء الهيئة ، فقد ثاروا عليه ، ذلك لأنهم كانوا قد بنوا الآمال الضخمة فى احراز مكاسب فى مصر وبذلوا فى سبيل ذلك كل التضحيات ، ولكن النتيجة جاءت مخيبة لآمالهم فثاروا على مقدمهم . ولما وجد جيلبرت نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، خاصة وأنه تسبب فعلا فى ارباك خزائن الهيئة وجعلها مدينة بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ بيزنت ، كما أنه اتهم بتوريط الهيئة فى مشروعات حربية بدون الرجوع الى رأى المجلس الاستشارى الأعلى Chapter ، كما أتهم بأنه جعل الهيئة تتحمل أعباء ضخمة ، ألا وهى مهمة الدفاع عن حدود انطاكية وطرابلس . وكان زعيم المعارضة داخل هيئة الاسبتارية هو راهب باسم بونز بلان Pons Blan برستور الهيئة والذى طمع فى تولى منصب المقدم بدلا من جيلبرت واسيلى ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٥١ .
King, op. cit., P. 95.
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٥ .

فراح يوجه اليه اتهامات لا حصر لها ، وازاء هـذا الموقف قرر جيلبرت واسيلى أن يستقيل من منصبه ، وتلى هذا التصرف نزاع وانقسام داخل هيئة الاسبتارية (١) .

وبهذه النتيجة خاب أمل الاسبتارية فى أحراز مكاسب فى مصر ، وهى المكاسب التى سعوا اليها ونصت عليها شروط الاتفاقية ، مخالفين بذلك قوانين الهيئة التى كانت تنص على أن يشترك أفرادها فى أى معركة فى أى زمان ومكان بدون المطالبة بأجر مادى ، ويبدو أن مقـدمى الهيئات تناسوا هذه النصوص التى تضمنتها قوانينهم ، وراحوا يتصرفون كسادة اقطاعيين يزودون الملوك بالجند والسـلاح فى مقـابل مكاسب اقليمية وغـيرها .

وفى عام ١١٧٦ قام مانويل كومنين امبراطور الدولة البيزنطية ، بحملة برية بحرية مشتركة على مصر ، وقد أرادت الاسبتارية انتهاز هذه الفرصة لاحراز كسب ، فقـام مقدمهـا جيرار جوبرت Jerard Gobert (*) . بالحصول على مرسوم من الملك بلدوين الرابع يتضمن ضـمان ما وعده عمورى للاسبتارية ، بالاضافة الى امتيازات أخرى تبلغ ٣٠٫٠٠٠ بيزنت لصالح الاسبتارية فى مصر . ولكن مشروع اشتراك الاسبتارة فى الحملة الجديدة على مصر مات قبل أن يولد ، وذلك لأن كونت فلاندرز رفض قيادة الحملة وتبدد حلم الاسـبتارية مرة أخرى فى امتلاك الأراضى فى أرض مصر . ويبدو أنه منذ هذا التاريخ أدركت الاسبتارية صـعوبة تنفيذ مشروع غزو مصر ، ولذلك فقـد تخلت عنه جزئيـا ، ولكن من الغريب أن اسم فرسان الداوية هو الذى سوف يظهر فى الحملات التالية على مصر ، فبعد أن كانت الداوية تعارض المشروع نرى أنها توافق عليه وتشترك فيه مع حنا برين ملك بيت المقدس سـنة ١٢١٨ ، ثم مع لويس

(١) King, op. cit., p. 98.

(*) جيرار جوبرت مقدم الاسبتارية ينحدر من عائلة عريقة من منطقة ليموسين Limousin وكان الملك فولك قد انتخبه عام ١١٣٥ لاتمام مهمة سرية وهى تتلخص فى الذهاب سرا الى بلاط هنرى الأول لاستدعاء ريموند بواتو الى الشام للزواج من كونستانز وريثة عرش انطاكية . وقد حكم جوبرت الهيئة لمدة ٥ سنوات فى أواخر عهد بلدويى الثالث وأوائل عهـد بلدوين الرابع .

King, op. cit., p. 103.

التاسع سنة ١٢٤٩ ، مما يثبت أن الهيئات لم تلتفت لما أوردته قوانينها بقدر ما التفتت الى تحقيق المكاسب مهما كلفها ذلك .

٥ — موقف الداوية والاسبتارية العدائى من حروب صلاح الدين ببلاد الشـام :

استطاعت هيئة الداوية بما لها من نفوذ وسـط المجتمع الاقطاعى الصليبى ، أن تقنع الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، بضرورة بناء قلعة لها عند مكان يعرف اسم مخاضة الأحزان ، وكانت حجة الداوية فى ذلك هى تعويض الخسـارة التى لحقت بالصليبيين بضياع بانياس تلك القلعة التى كانت تقوم بتغطية هذه المنطقة الهامة من جانب دمشـق . وقد انتهز الصليبيون فرصة غياب صلاح الدين الأيوبى فى بعلبك وقاموا ببناء القلعة فى أكتوبر ١١٧٨ وذلك رغم معارضة بلدوين فى بداية الأمر . وقد أتم الصليبيون العمل فى القلعة على مدى ستة أشهر كاملة وبانتهاء العمل ، سلمت القلعة الجديدة لهيئة الداوية ، وقد أطلقوا عليها اسـم Castle Jacob أو Chastellet ، أما فى المراجـع العربيـة فقـد عرفت باسم قلعة جسر بنات يعقوب . تلك القلعة التى ما أن تسلمتها الداوية حتى أمدتها بحامية قوية أمدتها بالمال والسـلاح والرجال وجعلت مهمتها الأولى هى قطع الطرق على قوافل المسلمين .

وحدث أن اعتدى الصليبيون على بعض الرعاة فى منطقة بانياس فى ٦ أبريل ١١٧٩ (٥٧٤ هـ) مما أدى الى اشتباك بين قوات بلدوين الرابع وهمفرى تورون وبين قوات عز الدين فرخشـاه الأيوبى قـرب شقيف أرنون ، وأسفرت المعركة عن انتصـار المسلمين وهرب الملك الصـليبى بصعوبة بالغة ومعه الهمفرى ، وهى الموقعة التى تسمى فى المصادر العربية باسم « وقعة الهنفرى » (١) .

وبعد هذه الوقعة صمم السلطان صلاح الدين على ضرورة محاصرة حصـن الداوية الجديد ، بعد أن رفض الصليبيون مبلغا ضـخما قيمته ١٠٠٠٠٠ر١٠ دينار فى مقابل هدمه . ولذلك وضـع صلاح الدين قواته فى بانياس وعمل على ارسال الفرق للاغارة على الصـليبيين ، ولذا أراد بلدوين وضـع حد لهذه الاغارات فخرج مع كونت طرابلس لمحـاربة

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦ .
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٧ .

صلاح الدين عند مرج عيون Merigon في ١٠ يونيه ١١٧٩ (١) .

وانتصر المسلمون في هذه الموقعة ، كما وقع في الأسر مقدم الداوية أودسان أومون Eude de St. Amand الذى كان قد قد اشترك مع بلدوين الرابع ضد صلاح الدين في موقعة تل الصافية قبل ذلك بعامين . ويذكر بعض المؤرخين أن مقدم الداوية كان السبب المباشر في تلك الهزيمة التى لحقت بالصليبيين ، ذلك لأنه خرج في المقدمة ولم يبق في موقعه بجوار الملك ، ولذلك استطاع المسلمون محاصرته فوجد مقدم الدواية نفسه وسط قوات السلطان ، فتم أسره هو وعدد كبير من الصليبيين (٢) .

وفى ٢٤ أغسطس ١١٧٩ وصل صلاح الدين الى مكان الحصن فخيم بالقرب منه ، واستفاد بالأخشاب التى بمنطقة صفد وكانت للدواية ، فأمر بقطع أشجارها وأخذها للاستعانة بها في عمل أدوات الحصار ، وقد تحصن الداوية داخل حصنهم الجديد في انتظار النجدة وأشعلوا النيران خلف الأبواب ، ولكن السلطان أدرك خطورة هذه القلعة فعمل بجدية للاستيلاء عليها ، فقسم أمراءه لمهاجمتها من كل جانب ، فكان لفرخشاه الجانب الجنوبى وللسلطان الجانب الشمالى ، ونصر الدين بن شيركوه الجانب الغربى ، كما تم حفر خندقا مليء بالأخشاب وأشعلت فيه النيران . وأخيرا في ٢٩ أغسطس ١١٧٩ م أى ٢٤ ربيع الأول ٥٧٥ هـ تم اختراق سور القلعة المنيعة ، كما تم ردم الجب الذى كانت الداوية قد حفرته وسط القلعة . ويقول أبو شامة أن الحصن كان مليئا بالمؤن والأسلحة ، فقد وجد به ألف زردية و ٨٠ فارسا بغلمانهم و ١٥ مقدما للرجال ، كما وجد بالحصن كثير من أرباب المهن من بنائين وحدادين ونجارين وصناع أسلحة وكميات هائلة من المؤن والأقوات .

أما مقدم الداوية أدو ، الذى وقع في الأسر ، فقد رفض أن تدفع له فدية ، تبعا لقانون الداوية ، الذى ينص على ألا تدفع فدية للداوية على أساس أن فارس الداوية لا يمتلك ما يقدمه كفدية . ثم سيق المقدم الأسير الى أحد سجون دمشق حيث مات بعد عام واحد من معركة مرج

(١) Grousset, op. cit., Vol. II, p. 677.

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩ .
King, op. cit., p. 109.

العيون . أما قلعة جسر بنات يعقوب ، فقد ظل السلطان حتى اطمأن الى هدمها عن آخرها (١) .

ويبدو أن الهيئات العسكرية لم ترد أن يفوتها فرصة واحدة دون مهاجمة وايذاء المسلمين ، ذلك أن الاسبتارية والداوية لم يكتفوا بمهاجمة المسلمين ومحاربتهم عن أرض الشام ومصر فقط ، بل ان أيديهم تطاولت على المسلمين فى بلاد الحجاز أيضا . ذلك أن بعض المراجع أفادت أن الداوية اشتركت مع رينو دى شاتيون Renaud de Châtillon صاحب قلعة الرك والشوبك فى مشروعه الجرىء المتهور الذى هدف به مهاجمة الأراضى المقدسة بالحجاز (٢) . وكان هذا الفارس المعروف لدى العرب باسم أرناط ، يتسم بالعجرفة والتهور ، كما اشتهر بهجماته العديدة على قوافل المسلمين بدافع السلب والنهب ، كما أنه لم يخضع لأوامر ملك بيت المقدس ، أما الداوية فقد اشتركت معه فى تلك الهجمات على قوافل المسلمين (٣) . وسار أرناط بسفنه فى البحر الأحمر سنة ١١٨٣ م (٥٥٧ هـ) وظل يعتدى على سفن المسلمين حتى وصل الحوراء مع قوة كبيرة من فرسان الداوية وتوجه الجميع قاصدين المدينة المنورة ، ولكن قدوم قائد الأسطول الأيوبى حسام الدين لؤلؤ الى رابغ بقوات بحرية من مصر أنقذ الموقف ، فتفرقت قوات أرناط ، وهرب أرناط الى الكرك فى صعوبة بالغة (٤) .

واذا حاول الباحث تفسير اشتراك الداوية مع هذا الفارس ، الذى وصفته المراجع شتى أوصاف اللصوصية والتهور ، فربما يرجع اشتراك الدواية معه الى الكراهية الشديدة التى ضمرتها الداوية للمسلمين ، أو بما كان غرض الداوية فى ذلك احراز مكاسب اقليمية ، أو ربما لمجرد السلب والنهب — كما أراد الفارس اللص — على كل حال ، مهما كان هدف الداوية من الاشتراك فى هذا المشروع الضخم ، فانه هدف عدائى وقاس مما جعل صلاح الدين يقسم على اهدار دم أرناط كما أنه عامل

---

(١) ابن أيبك ، كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٦٤ .

(٢) Stevenson, op. cit., p. 226.

(٣) Michaud, op. cit., Vol. II. p. 255.

(٤) ابن أيبك ، كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٧١ .

King, op. cit., p. 112.

أفراد الداوية والاسبتارية بعد حطين معاملة لا تقل قســوة عن تلك التى عاملها لشريكهم أرناط (١) •

وبعد فشل أرناط فى حملته على بلاد الحجاز ، نجح بالاشتراك مع جـيرار ريدفـــورت Gerard de Rideford مقـدم الداوية وبعض البارونات من تثبيت جاى لوز جنان على عرش بيت المقدس سنة ١١٨٦ ، رغم معارضة هيئة الاسبتارية وبعض بارونات الشام وعلى رأسهم ريموند الثالث أمير طرابلس (٢) • وقد ظل مقدم الداوية جيرار يسيطر على الملك الجديد ويحثه على محاربة المسلمين وعدم الاستماع الى نصـح ريموند الثالث ، ذلك الأمـير الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت أكثر المحـاربين الصليبيين خبرة ، ولكن العداء الشخصى الذى كان بين ريموند وجيرار جعل الأخير يتودد الى الملك ، ويعمل على اخضـاعه لرغباته ، واظهار ريموند بمظهر الخائن للصليبيين •

ووسط تلك المنازعات والانقسامات التى دبت فى معسكر الصليبيين ، أعلن السلطان صلاح الدين الجهاد المقدس ، فأسرع الصـليبيون الى توحيد صفوفهم ، فأرسل جاى لوزجنان الى ريموند الثالث بعثة مكونة من مقدم الاسـبتارية روجيه ذى مولين ومقدم الداوية جيرار ورئيس أساقفة صور وبارونات ابيلين وصيدا ، للتفاوض مع ريموند وحثه على الانضمام الى الملك ونقض حلفه مع صلاح الدين • وقد سـافر مقدما الهيئتين مع مائة فارس فى ٢٩ أبريل ١١٨٧ عـلى أن يتبعهم باقى أفراد البعثة الى طبرية ، فأمضى المقدمان ليلة ٣٠ أبريل فى قلعة الفولة La Feve التابعة للداوية •

وكان صلاح الدين قد أراد أن يرسل قوة للاغارة على نواحى عكا ، وكان لابد لهذه القوة من المرور عبر أراضى ريموند الثالث ، فاستأذنه السلطان فى ذلك وسمح الأمير للمسلمين بالمرور على شرط عدم التعرض للمسيحيين المقيمين فى المنطقة • وقد تحدد يوم مرور قوات المسلمين فى ١ مايو ١١٨٧ (٣) • ولما علم مقدما الداوية والاسبتارية بأن المسـلمين سوف يمرون فى أراضى صليبية ، نسى الاثنان المهمة التى كانا فى طريقهما

---

(١) عن أرناط انظر : Schlumberger, Renaud de Châtillon.

(٢) Runciman, op. cit., Vol. II, p. 447.

(٣) King, op. cit., p. 119.

اليها ، وخرجا بقواتهما الصغيرة دون تريث لمقابلة قوات المسلمين • وصحب المقدمين أربعون فارسا من حامية الفولة و ٤٠٠ من المشاة ، وسار هذا العدد الضئيل ، دون مراعاة عدد المسلمين المتفوق ، الى مكان بين الناصرة وطبرية يعرف باسم رأس الماء Fountain of Cresson شاهد هؤلاء قوات الأفضل بن صلاح الدين فهاجموها على الفور • وكانت النتيجة ، أن أبيدت هذه القوة من الداوية والاسبتارية عن آخرها ، ذلك لأن قوات المسلمين كانت قرابة سبعة آلاف محارب ، فمزقوا الفرسان الصليبين اربا ، وقتل مقدم الاسبتارية روجيه دى مولين ، ومارشال الداوية جاك دى مالى Jacques de Mailly ، أما جيرار ريد فورت فقد استطاع الهرب من هذه الموقعة ، وكانت هذه الكارثة بمثابة بداية لنهاية عهد الصليبيين بالشام (١) •

ويقول ابن الأثير فى هذا الصدد ، أن السلطان كان قد طلب من أبنه الأفضل أن يرسل جيشا الى نواحى عكا لتخريبه ، فسار اليه أكابر الأمراء ، منهم صاحب حران والرها وقايماز النجمى ودلدروم الباروقى ، فلما أصبحوا على صفورية فى أواخر صفر « فخرج اليهم الفرنج فى جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما والتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود » (٢) • ويضيف أيضا ابن الأثير ، أن مقدم الاسبتارية لقى حتفه فى هذه الموقعة ، وأن السلطان لما علم بأمر انتصار المسلمين سار الى الكرك ، أما الصليبيون فقد عملوا على ارسال البعثة الخاصة باتمام الصلح مع ريموند الثالث أمير طرابلس •

من العجيب حقا ، أن بعد ما حدث للمسلمين من انتصار ، الا أنهم لم ينقضوا اتفاقهم مع أمير طرابلس ، فقد غادروا أراضيه حسب الموعد المحدد لهم وهو عند غروب الشمس ، فغادروها وهم يحملون رءوس قتلاهم على أسنة الرماح (٣) •

ويقول King ، أنه لو قدر لريد فورت مقدم الداوية أن يقتل فى هذه المعركة ، التى سبقت هزيمة الصليبيين المنكرة على يد صلاح الدين

---

(١) Ambroise: The Crusade of Richard the Lion Heart, p. 124.
Archer, op. cit., p. 275.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٠ •
Oman, op. cit., Vol. II, p. 324.

(٣) Runciman, op. cit., Vol. II, p. 433.

فى حطين ربما تغير الحال ، ذلك لأن الكراهية الشديدة التى كانت بين هذا الفارس المتهور وبين أمير طرابلس ، كانت من الأسباب الرئيسية التى أودت بالصليبيين جميعا فى حطين . كما أنه كان من نتيجة المعركة ، أن فقدت الداوية والاسبتارية اعدادا كبيرة من رجالهما ، مما جعل جيرار ريدفورت يضع تحت تصرف جاى لوزجنان تلك الأموال التى كان يرسلها الملك هنرى الثانى ملك انجلترا سنويا ، والتى كانت مودعة فى خزائن الداوية ، كذلك أمد جيرار الملك بجنود مرتزقة استأجرهم بتلك الأموال ، وكان هؤلاء الجنود يحملون الدروع التى تحمل شارة الملك هنرى الثانى ملك انجلترا (١) .

ولعب جيرار مقدم الداوية دورا هاما بالنسبة للمعسكر الصليبى ، كان هذا الدور أولا وأخيرا فى صالح المسلمين ، وذلك أن جيرار بعد هروبه من موقعة ١ مايو ، سار الى الناصرة ، وتقابل مع باليان ابيلين فسار الاثنين الى ريموند أمير طرابلس ، واستطاعا معا تسوية الأمر معه واقناعه بضرورة الصلح مع الملك ، وبالفعل توحد الصليبيون مرغمين خوفا من قوة المسلمين المتزايدة ، وقد ظهر هذا عندما تركزت قواتهم فى شهر يونيه فى صفورية ، وهو المكان الذى اعتادوا جمع قواتهم فيه منذ أن بدأ تهديد المسلمين يظهر لهم من جانب دمشق . ولم تتضمن قوة الصليبيين المتجمعة فى صفورية الا عددا ضئيلا من الداوية والاسبتارية ، ذلك لأن أكثر قواتهم أبيدت قبل ذلك بعدة أسابيع على يد قوات الافضل بن صلاح الدين . وتحرك صلاح الدين شرق صفورية فى ٣٠ يونيه ، عندما علم باستعدادات الصليبيين ، وفى هذه الليلة ، اجتمع الصليبيون لبحث أمورهم ، وقد نادى حزب منهم بضرورة التقدم نحو المعسكر الاسلامى وكان زعماء هذا الحزب هما جيرار ريد فورت مقدم الداوية وأرناط ، ولم يكن ذلك جديدا فقد عرف كلاهما بعدم التعقل وعدم التريث . أما الحزب الآخر وهو الذى تزعمه ريموند الثالث فقد اشتهر بالحذر والخبرة ، وقد نادى هذا الحزب بالمكوث فى هذا المكان حتى يقدم المسلمون عليهم ، ومال ملك بيت المقدس فى بداية الأمر الى الرأى الثانى الذى استقر رأى المجلس عليه ، ولكن كراهية جيرار نحو ريموند لم تقفه عند حد ، فاستطاع مقدم الداوية ومعه أرناط أن يذهبا الى خيمة الملك أثناء الليل

(١) Michaud, op. cit. Vol 11 p. 277.
Archer, op. cit p. 275.

وأن يقنعاه بخيانة ريموند وبأنه اعتنق الاسلام سرا وأن نصائحه هذه انما فى صالح المسلمين • واقتنع الملك بسرعة وأمر قواته فى الصباح بالتحرك نحو طبرية ، وكانت مفاجأة لباقى الأمراء الذين حضروا المجلس ، وبالفعل تحرك الجمع فى ٣ يوليو ،وكان ذلك بلا شك فى صالح المسلمين ، حتى أن صلاح الدين عندما علم بالتحرك ، أظهر سروره وارتياحه (١) •

وكان وضع الداوية والاسبتارية بالنسبة لباقى الصليبيين هو المؤخرة ، وكان مقدم الاسبتارية هو وليم بوريل ، وقد تعرضت هذه المؤخرة لعدة هجمات من المسلمين فعجزت عن الالحاق بباقى الجيش ، ولذلك قرر الملك جاى لوزجنان التوقف والمبيت فى نفس المكان ، وطلب ريموند من الملك أن يسرع بالجيش حتى يقترب الجميع من مصدر الماء ، كما أن هذا الأمير توقع أن يقوم المسلمون بقطع المؤخرة عن باقى الجيش وهذا هو ما حدث فعلا • ثم دارت المعركة المشهورة ، معركة حطين ، وكان النصر فيها حليفا للمسلمين (٢) ، ويهمنا فى هذا الصدد ، تلك الطريقة التى عامل بها السلطان أفراد الداوية والاسبتارية بعد النصر ، ووقوع هؤلاء جميعا وعلى رأسهم ملكهم فى الأسر • أما الملك جاى لوزجنان فقد عامله السلطان معاملة حسنة ، أما أفراد الداوية والاسبتارية فيقول ابن شداد « أما مقدم الاسبتارية والداوية فان السلطان اختار قتلهم ، فقتلوا عن بكرة أبيهم » (٣) • ويذكر ابن الأثير أيضا أن السلطان « أمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية أن تجمعوا ليقتلهم » (٤) • كذلك وعد السلطان كل من ينجح فى أسر أحد من الداوية أو الاسبتارية بمكافأة قدرها خمسون دينارا للفارس الواحد ، وقد تم أسر ٢٣ داوى واسبتارى بهذه الطريقة ، واختار السلطان أن يعرض عليهم الاسلام أولا قبل الأمر بقتلهم ، وقد لقوا جميعا حتفهم فى ٦ يوليو ١١٨٧ • أما جيرار ريدفورت مقدم الداوية وأحد القادة الصليبيين الذين كانوا سببا لهذه الكارثة ، فقد نجا من القتل عندما طلب

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ١٨٩ •
King, op. cit., p. 126.

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٩ •
أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠٦ •

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٤ •

(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ، ص ٥٣٤ •

الملك جاى من السلطان صلاح الدين أن يستثنى جيرار من هذا القرار ، فوافقه السلطان وسار الأسرى ومنهم جيرار الى دمشق (١) .

وبوصول أخبار هزيمة الصليبيين على يد صلاح الدين ، علت الأصوات فى الغرب تنادى بأن الداوية خانوا الصليبيين ، وذلك لأنهم نصحوهم بالسير نحو حطين ، كذلك اتهم الغرب أمير طرابلس أيضا بأنه كان أحد الأسباب المباشرة لهذه الهزيمة المنكرة (٢) . أما المسلمون ، فقد كتب الله لهم النصر وسار صلاح الدين من نصر الى نصر ، فاستولى بعد معركة حطين على كثير من قلاع الصليبيين ، وكان كثير من تلك القلاع ملكا للداوية والاسبتارية فاستولى السلطان على غزة والداروم وغيرهما من القلاع الهامة . كما أنه استولى بعد دخوله الى عكا على بيت الداوية فيها ومنحه للفقيه عيسى الهكارى كما منحه أيضا أملاك الداوية من منازل وضياع فأخذها بما فيها من غلال ومتاع (٣) .

وكان دور من بقى من الداوية والاسبتارية بعد نصر حطين ، أن قام هؤلاء بعد أن استرد المسلمون بيت المقدس ، بمصاحبة الصليبيين خارج بيت المقدس ، فقد قسم السلطان صلاح الدين الصليبيين ثلاثة أقسام : القسم الأول قاده الداوية ، والقسم الثانى قاده الاسبتارية ، أما القسم الثالث فقد سار بقيادة البطريرك وباليان ايبلين . وجدير بالذكر أن هؤلاء الداوية والاسبتارية الذين عاشوا بعد حطين وصاحبوا الخارجين من بيت المقدس لم يكونوا سوى بعض الرهبان الخدام Serving brothers . ذلك لأن الفرسان المحاربين كانوا ما بين قتلى أو أسرى ، ويقول كنج أن السلطان بما اشتهر به من سماحة الخلق ، فأنه سمح لهؤلاء الخارجين بالسير نحو طرابلس كما أنه سمح لعشرة من الرهبان الاسبتارية بالبقاء فى مستشفاهم لمدة عام لرعاية المرضى الذين وجدوا فى حالة مرضية خطيرة (٤) .

وما أن استرد المسلمون المدينة المقدسة ، حتى قام السلطان ببعض اجراءات تجاه ما كان تحت أيدى الداوية والاسبتارية من منشآت ، منها

---

(١) العماد ، الفتح القسى ، ص ٢٨ .

King, op. cit., p. 129.

(٢) Conder, op. cit., p. 154.

(٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

(٤) King, op. cit., p. 131.

ما أمر به من محو الآثار التى وجدوها على قبة الصخرة المباركة من صور وتماثيل وغير ذلك من أيقونات ، كما أمر السلطان باحراق دار الداوية وتعمير المسجد الأقصى ، ذلك المكان الطاهر الذى كان مقرا لهيئة الداوية . وتشير بعض المراجع أن الداوية قاموا بنزع قطع من قبة الصخرة وقاموا بارسالها الى القسطنطينية وصقلية فباعوا لملوك الغرب قطعا منها على سبيل التبرك . كما أمر السلطان بازالة قبور الداوية ومحو آثارها ، وكانت فيما يبدو تقع فى مكان مقابل للصخرة الشريفة (١) .

ويبدو من هذا العرض ، أن نهاية الداوية والاسبتارية كانت قد بدأت بالفعل على يد صلاح الدين ، وأن ما وقع لهم على يد قوات الأفضل ابن صلاح الدين فى ١ مايو ١١٨٧ أى قبيل حطين مباشرة ، كان يعتبر كارثة أودت بمعظم رجالهما ، ورغم ذلك فان الرهبان الفرسان أظهروا عدة نشاطات حربية ضد المسلمين بعد ذلك مباشرة ظهرت فى صور وعكا وأرسوف ، الى جانب معارك أخرى جانبية خاضوها بجانب قوات الصليبيين .

أما عن دور الاسبتارية والداوية فى حصار صور ١١٨٧ (٥٨٣ هـ) فقد تمكن صلاح الدين خلال ثلاثة أشهر من نصر حطين من الاستيلاء على كل المدن والقلاع الصليبية فيما عدا مدينة صور وستة قلاع هى : شقيف أرنون وهونين وكوكب وصفد والكرك والشوبك ، ولذلك فقد قرر السلطان أن يبدأ بحصار مدينة صور (٢) .

وفى يوم الجمعة ٢٥ شعبان (٢٥ نوفمبر ١١٨٧) بدأ حصار المسلمين لصور ، وقد استمر الحصار طوال شهر ديسمبر (٣) . وقد استماتت قوات الصليبيين فى المحافظة على مدينة صور ، كما أن أكثر المراجع الصليبية أجمعت على أن الداوية والاسبتارية ، قد قامتا بدور فعال فى الاحتفاظ بالمدينة . وكان مقدم الاسبتارية لا يزال هو بوريل Borrel الذى جعل من مدينة صور مركزا لقيادة الهيئة بعد استرداد المسلمين لبيت المقدس ، كما أنه وفد من الغرب قوة جديدة من الاسبتارية لتعويض

---

(١) العماد ، الفتح القسي ، ص ٦٥ .
سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٧ .
(٢) العماد ، الفتح القسي ، ص ٧٣ .
(٣) تفاصيل الحصار انظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣١ ، وابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

الخسارة التى لحقت برجال الهيئة فى حطين ، وقد جاءت هذه القوة برئاسة أرمانيو داسب Armanguad d'Aspe ، وهو أحد مقدمى الهيئة فى جنوب فرنسا قبل مجيئه الى الشام ، وقد جاء خصيصا للمعاونة فى الاحتفاظ بصور ضد الحصار الاسلامى لها (١) . وكان دفاع الصليبيين عن صور دفاعا مستميتا حتى أن السلطان قرر رفع الحصار فى بداية يناير وانسحب الى عكا .

وفى بداية عام ١١٨٨ ، سار صلاح الدين نحو طرابلس وانطاكية ، ولكن اسبتارية حصن الأكراد قاوموا المسلمين مقاومة شديدة ، فترك صلاح الدين حصن الأكراد واتجه الى الساحل ، فهاجم طرطوس فى ٣ مايو وكانت للداوية (٢) ، ثم هاجم بانياس وصهيون والشغر ودربساك وكانت أكثرها للداوية والاسبتارية ، كما نجح صلاح الدين فى اسقاط أهم معاقل الداوية والاسبتارية وهى قلاع صفد للداوية سنة ١١٨٨ وكوكب للاسبتارية سنة ١١٨٩ . وكان لسقوط تلك القلاع أكبر الأثر فى اضعاف قوة الصليبيين عامة ، واضعاف الهيئات العسكرية بالشام خاصة ، فلم يبق للصليبيين فى الشام سوى صور ، ولذلك انتاب الغرب نوبة من الحماس لانقاذ ما تبقى للصليبيين بالشام ، فقدم الى الشام ما عرف بالحملة الصليبية الثالثة .

وعندما هاجمت الحملة الصليبية الثالثة مدينة عكا ، قام الصليبيون بتوحيد صفوفهم أمام قوات صلاح الدين التى تركزت فى مرج عيون ، كما وضع صلاح الدين قوة ضخمة بقيادة تاج الدين عمر لتغطية مدخل مدينة عكا ، وكانت قوات المسلمين تتضمن خيرة القادة الأيوبيين مثل : مظفر الدين أمير الرها وحران والأمير المشطوب وأمراء ديار بكر والموصل وحصن كيفا ، والأفضل بن صلاح الدين وتاج الدين عمر أمير حمص ، كما طلب السلطان الامدادات من سائر الأقاليم الاسلامية (٣) .

أما الصليبيون فقد انقسمت قواتهم ثلاث فرق ، قاد الملك جاى لوزجنان الصليبيين الفرنسيين ومعهم الاسبتارية ومقدمهم أرمانيو داسب ، وقاد الجناح الأيسر جيرار ريد فورت مقدم الداوية ومن ورائه فرنسانه

(١) King, op. cit., 136.
(٢) أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٢٩ .
(٣) Oman, op. cit., Vol. II, p. 336.

ووحدات من المحاربين الفرنسيين والألمان ، أما كونراد فقد قاد الجناح الأيمن . وقد ظهر دور الاسبتارية والداوية عندما هاجم الجناح الأيسر الصليبى الجناح الأيمن الاسلامى بقيادة تاج الدين عمر حيث أسرع السلطان لنجدة هذا الجانب ، فأجبر جيرار على الارتداد حيث أعاد تنظيم قواته ، أما الملك جاى ومن ورائه الاسبتارية فقد عانوا الكثير فى اشتباكهم مع المسلمين ولم ينقذهم من كارثة محققة الا وصول الامدادات وقوات مساعدة بقيادة جفرى لوزجنان أخو الملك (١) .

وقد استأنفت قوات الداوية القتال مع المسلمين بقيادة تاج الدين عمر ، وأثناء الاشتباك خرج بعض أفراد الحامية الاسلامية من عكا وكانوا فى حوالى ٥٠٠ مقاتل ، وانقضوا على الداوية ، مما جعل باقى الصليبيين يرجعون الى معسكراتهم ، وكانت نتيجة هذا الهجوم الخاطف أن قتل جيرار ريدفورت مقدم الداوية ومعه سبعة آلاف من رجاله ، وتذكر بعض المراجع أنه أسر أثناء هذا الاشتباك ثم قتل بأمر من السلطان صلاح الدين (٢) . ويذكر أحد المؤرخين أن جيرار عندما أسر فى هذه المرة واتنقل الى معسكر المسلمين عنفه جماعة من الأمراء المسلمين لمحاربته المسلمين بعد أن عفى عنه السلطان بعد حطين . ويقال أن رد جيرار على الأمراء كان يتصف بالعجرفة والكبرياء وعبر لهم عن سعادته بأن سوف يموت شهيدا (٣) . كما ذكرت بعض المراجع أيضا أن الاسبتارية والداوية اشتركوا فى حصار عكا بآلات حصار تشبه تلك التى نصبها ريتشارد قلب الأسد ودوق برجنديا على القلعة (٤) ، وقد استطاع أحد المسلمين وهو رجل يدعى على بن عريف النحاسين أن يؤلف بعض التركيبات الكيميائية واستطاع بها أن يطيح بهذه الأبراج الهائلة التى نصبها الصليبيون على سور القلعة (٥) .

---

(١) Grousset, op. cit., Vol. II, p. 26.
King, op. cit., p. 138.

(٢) Ambroise, op. cit., p. 143.
Oman, op. cit., Vol. II, p. 339.

(٣) Michaud, op. cit., Vol. II, p. 359.

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨٥ .
Ambroise op. cit., p. 201.
Lane Poole, Saladin & the Fall of the Kingdom of Jerus. P. 288.

(٥) العماد ، الفتح القسى ، ص ٣٤٧ .

وقد حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا ، بعض التطورات فى صفوف الداوية والاسبتارية ، فقد قام مقدم الاسبتارية — بعد أن اتخذ أفراد الهيئة أماكنهم فى مواجهة السور الشمالى للمدينة — بتقديم استقالته لأسباب غير معروفة ، هذا الى جانب أنه لم يظهر الكفاءة القتالية المعهودة للاسبتارية أثناء حصار عكا . وبعد استقالة داسب من منصبه تولى قيادة الاسبتارية جارنيه دى نابلس وهو أحد أعضاء الهيئة البارزين ، حضر الى الشام فى صحبة ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد ، وعمل مستشارا له فى الأمور المتعلقة بالشرق كما عمل رئيسا لأركانه (١) .

وقد حدث أن استولى ريتشارد على جزيرة قبرص وهو فى طريقه الى الشام فألقى القبض على حاكمها البيزنطى اسحاق كومنين وعهد به الى جارنيه دى نابلس الذى أرسله الى قلعة المرقب حيث اعتقله بها . وقد تولى أمور الهيئة حتى وصول جارنيه دى نابلس برسبتور الهيئة ويدعى أوجيه Ogier

وبوصول الامدادات ، سارت المعارك بين الطرفين الاسلامى والصليبى وتكبد الطرفين خسائر فادحة ، كما أن الظروف الجوية كانت فى غاية الصعوبة ، كذلك انتشرت الأوبئة والمجاعات أثناء هذا الحصار الطويل (٢) ، هذا بالاضافة الى ما تخلل المعسكر الصليبى من منازعات وانقسامات . ومما زاد الأمور تعقيدا أن الملكة سيبل زوجة جاى لوزجنان توفيت أثناء الحصار ، مما أفقد الملك أحقيته فى عرش بيت المقدس ، فتطلع الى العرش كونراد مونفرات وسانده فى ذلك البارونات المحليين ، أما جاى لوزجنان فقد سانده ريتشارد قلب الأسد فى حين انضم ملك فرنسا الى معسكر كونراد (٣) .

وهكذا استمرا حصار الصليبيين لعكا فى ظروف سياسية وغير سياسية غاية فى الصعوبة ، ورغم ذلك فقد استماتوا فى هذا الحصار الذى جاء لنجدته ملكا فرنسا وانجلترا على رأس جيوشهما ، كما أن الداوية والاسبتارية أظهرتا كفاءة قتالية عالية أثناء هذا الحصار .

---

(١) King, op. cit., p. 140.
Ambroise, op. cit., p. 257.
(٢) العماد ، الفتح القسى ، ص ٣٣٠ .
(٣) Michaud, op. cit., Vol. II, p. 378.

وجدير بالذكر أن هيئة الفرسان التيوتون بدأت تظهر على المسرح الحربى منذ ذلك التاريخ ، فقد حدث أثناء الحصار على عكا أن ظهرت مشكلة واجهت المحاربين الألمان وهى مشكلة التفاهم مع الجنسيات الأخر من الصليبيين ، ولذلك قام بعض الخيرين منهم من أهالى مدينة لوبك ومدينة برمن ببناء مستشفى ، أقاموها من قلاع المراكب واستقبلوا فيها الجرحى والمرضى من المحاربين الألمان ، كما ساهم فى هذا المشروع الانسانى أربعون من النبلاء الألمان فكانت هذه هى نواة هيئة الفرسان التيوتون التى تتناول مسارها بشىء من التفصيل فى فصل مستقل فيما بعد(١) .

واستكمالا لدور الداوية والاسبتارية فى حصار عكا ، فان الداوية لعبت دورا فى الاتفاقية التى أراد صلاح الدين ابرامها مع ريتشارد ، ذلك أنه باستسلام عكا بعد حصار دام قرابة عامين (٢) ، أراد صلاح الدين ابرام صلح مع ريتشارد على شرط أن تقوم الداوية بضمان تنفيذ شروط الصلح ، وخاصة تلك الشروط المتعلقة بتسلم الأسرى المسلمين ولكن الداوية رفضت التوسط فى هذا الشأن ربما لعدم ثقتها فى حلفائها الصليبيين . وأمام هذا الرفض من جانب الداوية ، رفض السلطان بدوره تسليم الأسرى الصليبيين ، فقام ريتشارد فى ٢٠ أغسطس ١١٩١ (٢٧ رجب ٥٨٧هـ) باعدام ستة آلاف من الأسرى المسلمين (٣) . وبذلك أنهى ريتشارد كل سبيل للتفاهم مع المسلمين ، كما أن رفض الداوية فى التوسط للصلح ، أدى الى مذبحة راح ضحيتها هذا العدد الكبير من الأسرى المسلمين .

وفى ٢١ أغسطس ١١٩١ قرر ريتشارد قلب الأسد السير بجيشه الى يافا ثم الى بيت المقدس بغرض الاستيلاء عليها ، وذلك بعد أن نجح فى وضع أسس الاتفاق بين كونراد مونفرات وجاى لوزجنان ، على أن تضمن هيئتا الاسبتارية والداوية تنفيذ شروط الاتفاق بين الطرفين المتنازعين (٤) . وقد اختار ريتشارد السير بالقرب من الساحل حتى يسهل عليه تمويل جيشه عن طريق الأسطول ، خاصة وأن جيشه كان

---

(١) Michaud, op. cit., Vol. II, p. 403.

(٢) العماد ، الفتح القسى ، ص ٣٥٨ .

(٣) العماد ، المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

(٤) Ambroise, op. cit., p. 227.
Grousset, op. cit., Vol. III, p. 61.
Runciman, op. cit., Vol. III, p. 21.

يعانى من الارهــاق الشديد نتيجة اشتراكه فى الحصــار الطويل الذى دام على عكا (١) • وقد قسم ريتشارد جيشه الكبير الى اثنى عشرة فرقة بدأت سيرها فى ٢٣ أغسطس ، فى ظروف جوية قاسية ، فعانت الجنــود الصليبيين من شدة الحرارة وثقل دروعهم وملابسهم الحديدية • وكان ريتشارد قد نظم جيوشه بحيث يضمن سلامة فرسانه ، فجعل فى مقــدمة الجيش فرق الداوية وجعل المؤخرة للاسبتارية على أن تتناوب الهيئتــان الأماكن على طول الطريق (٢) • وكان مقدم الداوية فى جيش ريتشــارد هو روبرت سابليه Robert de Sable ، أما مقدم الاسبتارية فكان هــو نفسه جارنيه نابلس • وقد ضم جيش ريتشارد المتوجه الى بيت المقدس ، عــددا كبيرا من التركبول والفرســان الذين ساروا فى الوســط بحيث لا يخرجون الا لدواعى الهجوم ثم يعودون الى مراكزهم وسط فرق المشاة المدرعة بالملابس الحديدية (٣) ، كذلك فان الــداوية والاسبتــارية كان يصاحبهم عدد كبير من التركبولية ، وهم الفرسان من الخيالة الخفيفة من رماة الأسهم ، الذين حاربوا على طريقة خيالة المسلمين وامتازوا مثلهم بخفة الحركة • وقد ســار الصليبيون طوال الطريق يعانون من شدة الحرارة وثقل الملابس ووطأة سهام المسلمين ، الذين ساروا فى خط مواز لخطوط الصليبيين ، وعملوا على اشغالهم طوال الطريق ليــلا ونهــارا حتى أن الصليبيين قطعوا الطريق من عكا الى يافا فى تسعة عشر يوما ، وحاول صلاح الدين منع ريتشارد من الوصــول الى يافا فاشتبك مع الصليبيين فيما عرف بمعركة أرسوف (٤) • ففى يوم ٧ سبتمبر ، كانت قــوات ريتشارد تسير بجــانب غابات أرســوف وكانت نوبة حراســة المقدمة يومئذ للداوية وكان معهم أيضا عــدد كبير من لتركبولية والسرجنت ، فهاجم رماة الأسهم المسلمون الصليبيين مما جعل هؤلاء يتزاحمون على الاسبتارية ويضغطون عليهم ، وكان هدف السلطان فى ذلك هو تعطيل المقدمة واحداث ثغرة فى خطوط الصليبيين تمكنه من الاطاحة بهم والقضاء عليهم بسهولة (٥) • وقد أدرك ريتشارد هدف صلاح الدين بهذا لتكتيك

---

(١) Oman, op. cit., Vol. II, p. 303

(٢) Ambroise, op. cit., p. 241

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 64

(٤) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، احداث سنة ٥٨٦ هـ .

(٥) Oman, op. cit., Vol. II, p. 312

الجربى ، فأمر كل فرقة بعدم التوقف مهما زاد عليها الضغط من جانب رماة الأسهم المسلمين • ولكن يبدو أن أسهم المسلمين اشتدت وطأتها على الصليبيين ، مما زاد الضغط على الاسبتارية ، فتكبد هؤلاء خسائر فادحة ، فتقدم مقدمهم الى الملك يطلب منه الاسراع بالهجوم وعرفه بخطورة الموقف وسخط الفرسان من ذلك الوضع السلبى الذى أملاه عليهم الملك • ولكن ريتشارد رأى تأجيل الهجوم حتى الوقت المناسب وأمر المقدم بالانتظام حتى يأمر هو بالهجوم ، وقد أذعنت الاسبتارية لأوامر الملك ولكن لفترة محدودة تحملوا خلالها قسوة السهام وشدة الحرارة وضغط من باقى القوات ، ولكن سرعان ما فقد اثنان من الاسبتارية صبرهما ، فقام المارشال وليم بوريل Baldwin de Caron وفارس نورمانى اسمه بلدوين كارون Baldwin de Caron وصاحا معا صيحة الحرب التى اشتهر بها الاسبتارية وهى عبارة عن نداء «St. George» وخرج الاثنان عن باقى الصفوف فتبعهما باقى الصليبيين فى هجوم خاطف على رماة الأسهم المسلمين (١) • ويقول ابن شداد الذى صاحب صلاح الدين فى هذه الموقعة « ورأوا أنهم لا ينجيهم الا الحملة وقد اجتمعوا وسط المشاة وصاحوا صيحة واحدة وحملوا حملة واحدة من كل الجوانب » (٢) • وقد رأى ابن شداد بنفسه وقائع المعركة وشدة هجوم الصليبيين الذى بدأه الاسبتارية ، وكيف بدأ المسلمون يفرون من ساحة القتال بعد أن رأوا شدة الهجوم ، وكان ذلك فى ١٤ رمضان سنة ٥٨٦ هـ ، ٧ سبتمبر ١١٩١ م •

ويتضح من هذه المعركة ، أن فرسان الاسبتارية هم الذين قرروا موعد الهجوم على المسلمين ، فقد رفضوا الخضوع لأوامر الملك ، واعتبروا خضوعهم لأوامره نوعا من السلبية والخضوع وهذا ما لم يقبلوه ، ولذلك أطاحوا بأوامر الملك وساروا على نفس المنهج الهجومى الذى اشتهروا به ، وكان الحظ فى هذه المعركة حليف للصليبيين • ويعتبر هذا النصر نقطة تحول هامة بالنسبة للصليبيين عامة ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد

---

(١) Ambroise, op. cit., p. 248
Oman, op. cit., Vol. II, p. 315
Lane Poole, op. cit., p. 315

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٩٨ •
ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩١ •

ذاقوا طعم النصر منذ وقت بعيد ، فالتفوق العسكرى كان للجانب الاسلامى منذ ظهور نور الدين محمود (١) .

ففى أواخر أكتوبر ١١٩١ ، سار الملك الانجليزى الى مكان قرب يافا على مرتفع يازور Yazur ، حيث قضى خمسة عشر يوما بغرض بناء قلعة عرفت باسم Castel des Plaines منحها ريتشارد للداوية بهدف تأمين طرق الحجاج من يافا الى بيت المقدس . وقد خرج بعض أفراد الداوية فى ٦ نوفمبر للبحث عن العشب لخيولهم فوقعوا فى كمين نصبه لهم بعض البدو فى تلك النواحى ، ورغم قلة عدد الداوية الا أنهم حاربوا المسلمين بعنف وشراسة حتى وصلت اليهم النجدة متأخرة بقيادة كونت هيو الرابع ، كذلك وصل للمسلمين النجدة ، كما هرع ريتشارد بنفسه لنجدة الداوية ، فاشتبك الطرفان وكان النصر حليفا للمسلمين ، ولكن الفوضى التى دبت فى الجانب الصليبى جعلت بعض المؤرخين يعتبرون أن نتيجة هذه الموقعة لم تكن حاسمة لأى من الطرفين (٢) .

٦ — موقف الداوية والاستبارية العدائى ضد مصر بعد عصر صلاح الدين

تغيرت سياسة الصليبيين عامة خلال القرن الثالث عشر ، ذلك لأنه لم يعد لهم ممتلكات كثيرة فى بلاد الشام ، ولم يعد لهم به سوى بعض القلاع الساحلية (٣) . فلم تعد تواجههم مشكلة ترك قوات كبيرة وحاميات قوية للدفاع عن أملاكهم ، ولذلك فان حملاتهم على مصر من خلال القرن الثالث عشر لم تكلفهم سوى بعض الحاميات الصغيرة لحماية ما تبقى لهم من قلاع وساروا جميعا الى مصر غير متخوفين على ما لديهم فى الشام ، كما كان الحال فى عهد الملك عمورى خلال القرن الثانى عشر .

وقامت حملة حنا دى برين Jean de Brienne ملك بيت المقدس بمساندة المندوب البابوى بلاجيوس فى ٢٧ مايو ١٢١٨ قاصدة دمياط ، وقد ساندت كل من الداوية والاسبتارية هذا المشروع .

---

(١) Grousset, op. cit., Vol. III. p. 69

(٢) العماد ، الفتح القسى ، ص ٣٩١ .
Grousset, op. cit., Vol. III, p. 75

(٣) Oman, op. cit., Vol. II, p. 265

وأثناء وجود تلك الحملة بمصر ، قام الأشرف موسى بن العادل بمناوشة الفرنج فى الشام ، فهاجم حصنا صافيتا وحصن الأكراد وهما للاسبتارية (١) . كما أن المعظم بن العادل التقى بالفرنج على القيمون (حصن قرب الرملة بفلسطين) فى جماد آخر ٦١٥ هـ وانتصر عليهم وقتل منهم عددا كبيرا وأسر من الداوية مائة فارس وأدخلهم القدس وأعلامهم منكسة فى ٢٩ أغسطس ١٢١٨ (٢) . كما أن المعظم عيسى دخل قيصرية وأمر بهدمها ، ثم اتجه الى عثليث ولكن الداوية تحصنوا بها وثبتوا مما جعل المعظم ينصرف عنها . كما عمل على تدمير بعض الحصون الصليبية الهامة التابعة للداوية والاسبتارية ، وهى حصون تبنين وبانياس وصفد .

أما فى مصر فان دور الداوية والاسبتارية يتلخص فى تلك المساندة الشديدة التى قدموها لمندوب البابوية بلاجيوس ، حتى أنهم ساندوه فى رفضه لشروط الصلح التى قدمها السلطان الكامل للصليبيين عام ١٢١٩ مقابل جلائهم عن دمياط ، كما ساندت كل من الداوية والاسبتارية بلاجيوس فى مسألة مهاجمة معسكر الكامل والمعظم فى فارسكور ، رغم معارضة حنا دى برين لهذا الرأى ، وكانت نتيجة هذا التعنت من جانب الهيئتين أن فشل هذا الهجوم ووقع كثير منهم فى الأسر (٣) . كذلك كان دور الهيئات واضحا فى مساندة مندوب البابوية الذى لم يقتنع بأى عرض من عروض الكامل ، كما أنه رفض الاصغاء الى آراء الملك مما جعل حنا دى برين ينسحب الى بلاده عام ١٢٢٠ ، فى حين ظل باقى الصليبيين فى مصر .

ويبدو أن تعنت المندوب البابوى ومساندة الداوية والاسبتارية له قاد الصليبيين جميعا الى موقف سيىء للغاية ، فبعد أن كانوا يرفضون عروض الكامل فانهم ارتضوا أخيرا بالصلح بأى ثمن فى مقابل الخروج من مصر الى بلادهم بعد أن عانوا الهلاك فى مصر ، وأخيرا تم الصلح واسترد المسلمون دمياط ، ويذكر أبو الفدا أن بعض أفراد الداوية والاسبتارية حضروا مجلس الصلح (٤) .

---

(١) ابن ايبك ، كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٨ .
(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ص ١٠٨ .
(٣) أ.د سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٧٥ .
(٤) أبو الفدا ، المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٣٠ .

وفى عام ١٢٤٩ (٦٤٧ هـ) هاجم لويس التاسع ملك فرنسا مصر فى عهد الصالح نجم الدين أيوب ، وقد اشتركت الداوية مع الملك الفرنسى مشاركة فعالة ، فكان هذا الملك يثق فى هذه الهيئة ثقة كبيرة ، فقد أمر — على حد قول جوانفيل — بأن تشكل المقدمة من الداوية وأن يقود أخوه كونت أرتوا الفرقة الثانية ، على أن يقود الملك بنفسه الفرقة الثالثة ، مما يدل على ثقة الملك بفرسان الداوية بكفاءتهم فى قيادة الجيش . وقام هذا التشكيل بعبور نهر أشموم فى ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م ، وقد رأى كونت أرتوا أن يتقدم بقواته نحو المنصورة دون انتظار قوات أخيه الملك لويس التاسع ، وقد حاول مقدم الداوية وليم دى سوناك William of Sonnac أن يثنيه عن خوض المعركة قبل وصول باقى الصليبيين ، ولكن الكونت صمم على موقفه ، مما أجبر الداوية على السير معه ، حتى دخلوا جميعا مدينة المنصورة فاستطاع المماليك محاصرة الداوية فى شوارع المدينة الضيقة وقتلوهم عن آخرهم كما قتل الكونت أرتوا وكثير من الفرسان بلغ عددهم ٣٠٠ فارس بجيادهم (١) .

ويبدو من كتابات المؤرخ جوانفيل — وهو الذى رافق حملة لويس التاسع ولذلك فهو يعتبر المؤرخ الأول لها — يتبين أن كل من الاسبتارية والداوية قد اشتركوا مع لويس التاسع فى حملته على مصر ، ولكن يبدو أن الداوية كانت لها وضعا خاصا لدى الملك بدليل أنه اختار للهيئة ذلك الوضع المتقدم فى جيشه (٢) .

وبهذه النتيجة السيئة للمعسكر الصليبى ، بالاضافة الى أسر الملك نفسه بعد ذلك ، الا أن الداوية رفضت دفع فدية كونت بواتيه وقيمتها ٢٠٠ ألف عملة ذهبية ، ويذكر جوانفيل فى هذا الصدد أنه ذهب بنفسه للداوية وأخذ من خزانتها الأموال اللازمة بالقوة ، فاضطر مقدم الداوية

---

(١) ابو الفدا ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .

(٢) Joinville, Memoirs of the Crusades, p. 190
Oman, op. cit., Vol. II, p. 345

اعطاءها له على شرط أن تتقاضى الهيئة فى مقابل ذلك تعويضا ماليا من أموال الملك فى عكا (١) .

ومن الصفحات السابقة يتبين أن النشاط الحربى للاسبتارية والداوية كان واضحا وهاما فى عصر الحروب الصليبية ، وأن نشاطهم الحربى لم يكن ضد المدن الاسلامية فى الشام فحسب ، بل امتد الى أعالى الجزيرة ومصر والحجاز . وهذا كله جعل الهيئات العسكرية تهتم اهتماما كبيرا بقلاعهم وحصونهم الحربية ، وهذا ما سوف يتناوله البحث فى الفصل التالى .

---

(١) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ص ١٨٤ .
Joinville, op. cit., p. 229

الفصل الثالث

قلاع الاسبتارية والداوية ببلاد الشام

باستيلاء الصليبيين على بلاد الشام ، كان عليهم أن ينظموا طريقة التعايش مع جيرانهم الجدد الذين سلبت منهم الأرض وهم المسلمون وآخرون عاشوا عليها من أرمن وأجناس أخرى لم يشكلوا خطرا كبيرا على الصليبيين كما فعل المسلمون • ولذلك كان لزاما على الصليبيين أن يثبتوا وجودهم وسط هذا المحيط الاسلامى عن طريق القوات المحاربة التى لديهم وبالقلاع التى أنشاوها أو وجدوها • ولذلك كان بناء القلاع والحصون ضرورة ملحة ، فهى وسيلة رئيسية لحماية الحدود وادارة الاقطاعات وايداع الغنائم والامدادات والأسرى • وباستقرار الصليبيين بالشام استفادوا على الفور بتلك الحصون التى وجدوها ، كما حولوا بعض الآثار القديمة الى قلاع ، ثم تطور بهم الأمر الى بناء حصون كاملة مستخدمين فى ذلك الأيدى العاملة من أرمن وبيزنطيين وأسرى مسلمين • وقد تكلفت هذه القلاع أحيانا أموالا طائلة ، مثال ذلك فان قلعت صفد التابعة للداوية تكلفت وحدها مليون بيزنت •

وبانقضاء القرن الحادى عشر كان لابد للصليبيين من الاكثار من بناء القلاع القوية ، وذلك لمواجهة القصور فى الرجال المحاربين ، ونظرا لأن ملوك الصليبيين وباروناتهم لم يكونوا فى القرن الثانى عشر على قدر من الثراء يمكنهم من القيام بهذا العمل الضخم ، لذلك قامت الهيئات العسكرية من الاسبتارية والدوية بهذه لمهمة وهما الهيئتان اللتان أحرزتا ثراء ضخما وقوة سياسية وحربية ملحوظة فى الشرق (١) •

وجدير بالذكر أن تشييد الصليبيين للحصون فى بلاد الشام كان ضرورة ملحة لثلاثة أسباب رئيسية : السبب الأول هو الوضع الجغرافى

---

(١) Cahen, op. cit., p. 238

للامارات الصليبية (١) ، فقد تكونت المنطقة الصليبية من أربعة أجزاء طولية ، الأولى من الغرب وهى مملكة بيت المقدس وتقع على الساحل مباشرة ، ثم يليها الى الشرق امارة طرابلس ثم امارة انطاكية • وأخيرا يقع تجاه الشرق الجزء الرابع وهو المكون لامارة الرها المتاخمة للأراضى الاسلامية مباشرة • وكان طول هذه الممالك والامارات يتراوح ما بين ٤٠٠ ــ ٥٠٠ ميل فى حين أن عرضها بلغ فى أقصى الشمال من ٥٠ الى ٧٠ ميلا فقط ، فى حين بلغت فى بعض أماكن بامارة طرابلس ٢٥ ميلا فقط فى العرض • ومن هذا يتضح أن حدود الصليبيين كانت تتصف بالطول ، ولذلك احتاجت الى تحصينات ضخمة وقوية خاصة بعد استرداد المسلمين للرها وظهور قوتهم منذ تلك السنوات • وقد شيد الصليبيون قلاعا قوية على الحدود وعهدوا بها الى الهيئات العسكرية ، فهددوا بها المدن الاسلامية الكبرى وهى دمشق وحلب وحمص وحماه ، تلك المدن التى وقعت الى شرق الامارات الصليبية ، كما هددوا مصر فى الجنوب من قلاعهم الجنوبية •

وكانت القلعة فى هذه العصور هى مفتاح المدينة ، فاذا سقطت القلعة ، فان المدينة كانت تسقط بدون مقاومة •

أما السبب الثانى لضرورة تشييد الصليبيين للقلاع والحصون فهو قلة الرجال (١) ، فعلى الرغم من ذلك العدد الهائل الذى تكونت منه الحملة الصليبية الأولى ، الا أن عبورها لآسيا الصغرى عام ١٠٩٧ م وما واجهته من معارك وصعاب ، جعلها تفقد عددا كبيرا من الرجال ، فوصل الى الشام عدد ضئيل من الرجال ، حتى أن عدد الصليبيين الذين وصلوا الى بيت المقدس عام ١٠٩٩ لم يتعد ١٥٠٠ فارس غير المشاة ، يضاف الى ذلك رجوع كثير من الصليبيين الى بلادهم ، كما أن الحجاج الوافدين من الغرب لم يمثلوا قوة منتظمة لملوك بيت المقدس • وكان لضياع الرها من أيدى الصليبيين أكبر الأثر فى نقص القوة البشرية التى كانت تفد لهم من تلك الامارة ، وذلك لأن الأرمن مثلوا للصليبيين سيلا من القوات المساعدة الفعالة • يضاف الى ذلك أيضا أن ضياع بيت المقدس أدى بدوره الى انكماش الصليبيين فى منطقة محدودة بالشام مما جعلهم يفكرون أكثر فى بناء الحصون والقلاع للتغلب على مشكلة قلة الرجال •

---

(١) Feddan, op. cit., p. 14

أما السبب الثالث لضرورة تشييد الصليبيين للقلاع ببلاد الشام ، فمن المعروف أن الحصن كان مظهرا هاما من مظاهر الادارة فى النظام الاقطاعى ، فكان السيد يحتاج الى مركز آمن ومحصن يدير منه اقطاعاته المختلفة . وقد ساعد موقع القلاع فى الشام على القيام بهذا العمل ، كما كان لوقوعها وسط أراضى غنية ما أتاح لها أن تكون مستودعا هاما لحاصلات تلك الأراضى ، ومثال ذلك أن قلعة صفد التابعة للداوية كان يحيط بها من الأراضى الخصبة ما يكون ٢٦٠ قرية Casalia يبلغ مجموع من عليها من الرجال العاملين بها ١٠٫٠٠٠ رجل .

ويتضح من ذلك أن القلاع قامت بوظيفتين ، وهما أن القلعة مثلت سلاحا حربيا هاما استخدمة الصليبيون فى حالة الدفاع والهجوم ، كما أن القلعة كانت تمثل مركزا اداريا هاما وسط النظام الاقطاعى الكبير (١) . وكان هذا الهدف المزدوج للقلاع معروفا فى أوروبا منذ القرن التاسع فنقله الصليبيون الى الشام (٢) . وقد يصعب أحيانا التفرقة بين ما اذا كانت القلعة قد أنشأت لهدف حربى أو لهدف ادارى وربما تكون قد أنشأت لتحقيق الهدفين معا ، فكانت القلعة الواحدة تمثل مركزا لانطلاق قوة للاغارة على المسلمين ، وفى نفس الوقت هى مركز يدير منه السيد الاقطاعى أملاكه ويشون فيها حاصلاته من الأراضى التابعة للقلعة (٣) .

ونظـرا لأن هيئـة الاسـبتارية تمتلكان وهيئـة الداوية كانتـا الأراضى والقرى والقلاع وتفرضان نفس شروط السادة الاقطاعيين السابقين لهم ، فإنهما كانتا تمارسان نفس الحقوق والواجبات المفروضة على تلك الأملاك ، فكان لكل هيئة أفصالها العلمانيين . مثال ذلك : أنه بانتقال ملكية قلعة المرقب للاسبتارية عام ١١٨٦ ، انتقلت بالتالى تبعية الأفصال للقلعة بنفس الشروط التى كانت للمقطع السابق (٤) .

---

(١) Feddan, op. cit., p. 19.
(٢) Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land p. 173
(٣) Smail, op. cit., p. 214
(٤) Cahen, op. cit., p. 516

وقد بدأ ملوك بيت المقدس الأوائل فى بناء الحصون منذ استقرارهم ببلاد الشام ، فأقام بلدوين الأول عام ١١٨٦ قلعة ايلات وذلك للوصول الى البحر الأحمر ولقطع الطريق الذى سار من دمشق ومصر الى بلاد الحجاز ، أما الشمال الصليبى فكان محميا بسلسلة من القلاع القوية أهمها : قلعة بانياس وهونين وصفد وكوكب ، والأخيرة يقع الى جنوبها وادى الأردن وهو يمثل مانع طبيعى ، وأما امارة طرابلس فقد شيدت بهـا قلاع قوية فى المرقب وطرطوس وطرابلس وجبيل وحصـن الأكراد وعكار ، هذا بالاضافة الى عدة حصون أخرى هامة تناثرت على أرض الشام كلها (١) •

ومما يخص موضوع دراستنا فقد ظهرت ضمن سياسة الدولة الصليبية ظاهرة جديرة بالاهتمام ، وهى ظاهرة منح القـلاع الهـامة الى الهيئات العسكرية من الداوية والاسبتارية على وجه الخصوص ، وذلك عندما عجز الأمراء والبارونات عن القيام بمهمة الدفاع وما وراء ذلك من تكاليف باهظة ، فلم يوجد سوى الهيئات العسكرية التى استطاعت القيام بهذا العبء ، بما لديها من أمـوال طائلة وسيل لا ينقطـع من الفرسـان المحاربين (٢) • وكانت المنحة تأتى دائما بعد كارثة يتعرض لها الصليبيون ، فمثلا تنازل ريموند أمير طرابلس عن حصن الأكراد للاسبتارية حـدث بعد استرداد المسلمين لبعرين ، كما جاءت منحة بغراس للداوية بهدف دفع خطر الأرمن والبيزنطيين والمسلمين ، أما بيع المرقب للاسبتارية فقد تم لعجز صاحبها عن القيام بواجبات الدفاع عن اقطاعه الشاسع •

وبجانب طريقة المنح التى انتقلت بها ملكية بعض الاقطاعات والقلاع الهامة الى الهيئات ، فان الهيئات المذكورة كانت قد أصبحت على درجة هائلة من الثراء بحيث أصبحت قادرة على شراء قلاع أخرى هامة ، مثال ذلك أن الداوية قامت بشراء صفد من صاحبها Payen of Haifa ، كما قامت الاسبتارية بشراء قلعة كوكب من صاحبها Ivo Velos (٣) •

---

(١) Oman, op. cit., Vol. I, p. 258

(٢) Ponsoye, Lislam et le Graal, p. 312.

(٣) Smail, op. cit., p. 102

وبذلك كانت القلاع اماأن تمنح للهيئات ، واما أن تقوم الهيئات بشرائها من أصحابها ، هذا بالاضافة الى طريقة أخرى وصلت بها القلاع الى أيدى الهيئات وهى أن يتنازل أحد الأمراء الصليبيين عن جزء من أملاكه فى شكل منحة أيضا ، وكان أشهر هذه التنازلات تلك التى قام بها ريموند الثانى عام ١١٤٢ عندما منح قلعة حصن الأكراد الى هيئة الاسبتارية (١) .

وقد استطاعت هيئات الفرسان أن تفرض سيطرتها من خلال هـــذه القلاع الهامة على المناطق المحيطة بها ، ذلك لأن القلاع ــ كما ذكرنا ــ مثلت مركزا للسلطة يمارس منه السيد الاقطاعى سلطاته ، وجدير بالذكر أنه كان يوجد بالشام ست عشرة قلعة كمراكز ادارية وعسكرية لكل منهـــا وظيفتـــان : وظيفـــة عســـكرية ووظيفـــة ادارية ، وضـــمن هذه القلاع قلعة بيت جبرين ، تل الصافية ، دير البلح ، غـــزة ، يبنـــا ، قلنسوة ، قاقون ، وصفد وعثليث وتبنين وغيرها (٢) . ويتضح من هذه الأسماء أن الداوية ولاسبتارية امتلكت أكثر هذه المراكز الاقطاعية من القلاع مما ترتب عليه أن الهيئتين مارستا سلطات مطلقة فى هذه المناطق .

أما بالنسبة للطراز المعماوى الخاص بهذه القلاع ، فانه كان لكل قلعة طرازها وشكلها الخاص ، خاصة اذا وضعنا فى اعتبارنا أن الصليبيين بقدومهم الى الشام فانهم قد احتلوا عددا من القلاع البيزنطية ، تركوا بعض منها على ما هى عليه ، ومنها ما أضافوا اليها بعض ملامح الأنماط الغربية التى اعتادوا عليها فى قلاع بلادهم الأصلية . وقد عرف الصليبيون قبل قدومهم من القلاع يسمى Keep وهو نوع من الحصون بنيت على الطراز النورمانى اعتمد على ضخامة البناء وقوة الجدران ، بحيث أنه طالما احتمى به المحاصرون ومهما طلت مدة الحصار فانهم يصمدون حتى وصول الامدادات . وكان هذا النوع من القلاع صالحا لايواء عـــدد كبير من المحاربين ، وقد أسس الصليبيون بعض القلاع على هذا النمط ومنها الحصن الأحمر وبيت جبرين وقلعة صهيون وصافينا ، وآل الكثير من هذه القلاع الى هيئة الداوية (٣) .

---

(١) Grousset op. cit., Vol. II, p. 890.

(٢) Benvenisti, op. cit., p. 173

(٣) Feddan, op. cit., p. 42

ولكن سرعان ما تأثر الصليبيون بما شاهدوه وهم فى طريقهم الى الشام من قلاع فى آسيا الصغرى ، فقد شاهدوا فى هذه المناطق نوعين من القلاع : النوع الأول عبارة عن قلاع ضخمة لها أبراج قوية مهمتها حماية المدن ، أما النوع الثانى فكان عبارة عن قلاع تقع فى أماكن نائية ولهـا أهمية استراتيجية خاصة ومهمتها مراقبة الحدود ، كما كانت تمثل أيضا ثكنات ضخمة ضمت عددا كبيرا من الرجال • ولكن الصليبيين لم ينقلوا هذا النمط كما هو ، بل أضافوا اليه ما عرفوه من قبل ، وما يلزم للدفاع أمام أعدائهم المسلمين ، لهذا كانت لآلات حصار المسلمين وأسلحتهم الأثر فى تطوير القلاع الصليبية ، فبنى الصليبيون الأسوار الضخمة ، كما أحاطـوا قلاعهـم بالخنادق مثال قلعة سوبيب وشقيف أرنون وقلعة الحاج (١) • كما أنهم أكثروا من الأبراج فى أسوار الحصون فجعلوها أكثر ارتفاعا عن تلك الأبراج البيزنطية ، كما تميزت الداوية باسـتخدام الأبراج المربعة فى حين تميزت الاسبتارية باستخدام الأبراج المستديرة فى قلاعها •

وتذكر بعض المراجع الحديثة أن الصليبيين نقلوا الى الشرق طراز معمارهم ولم يتأثروا كثيرا بالطراز العربى أو البيزيطى (٢) ، ولكنهم اقتبسوا منها بعض الشيء لأسباب تتعلق بالمناخ ومواد البناء التى وجدوها فى الشرق • كذلك طبق الصـليبيون الانماط القوطيـة والرومانسكية المعروفة فى فرنسا ، فظهرت تلك الأساليب فى كنائس بيروت وطرطوس وغـزة وبيت المقدس وغيرها ، أما الداوية فقد اختـارت تطبيق النمط الاسلامى لمسجد عمر (الذى أقاموا به) على باقى الكنائس فى الغرب ، فكانت كنائسهم فى لندن وباريس تشبه ذلك المسجد الاسلامى العريق ، كذلك تأثرت كل من الداوية والاسبتارية بالطراز الشرقى فى المعمار ، فظهر ذلك جليا فى منشآتهم فى الغرب (٣) •

وبهذا أنشأ الصليبيون نوعين من القلاع : النوع الأول له تحصينات طبيعية أى أنها قلاع مبنية على مرتفعات بحيث يشكل موقعها العامل

(١) Feddan, op. cit., p. 47.

(٢) عبد الرحمن زكى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد رقم ١٥ ، ص ٧٤ •

(٣) Longnon, op. cit., p. 145
Lambert, L'architecture des Templier

الأول فى حصانتها ، وكان هذا النوع هو النوع هو المتبع تشييده فى الغرب الأوروبى . وكانت قلعة المرقب التابعة للاسبتارية تمثل أروع مثل لتلك القلاع فى الشام .

أما النوع الثانى فهو القائم على النمط البيزنطى وقد اتبعه الداوية فشيدت على شاكلته قلعة طرطوس (١) .

ويهمنا فى هذا المجال أن نذكر بعض القلاع الهامة التى امتلكتها الهيئات العسكرية وتاريخ كل منها ودور هذه القلاع فى الحروب مع المسلمين وكيفية سقوطها فى النهاية ، مع الأخذ فى الاعتبار أن قلاع الداوية تعرضت لتدمير كبير من جانب المسلمين أكثر من قلاع الاسبتارية ، ولذلك كان من الصعب أن نحكم فى عصرنا هذا على مدى قوة هذه القلاع التى تعرضت للتخريب ، الا من خلال تاريخ الحروب ، فالشواهد الباقية قليلة جدا ، ما عدا بعض قلاع قليلة لا تزال باقية حتى هذا اليوم .

ومن أهم حصون هيئة الاسبتارية الجديرة بالدراسة ، حصن الأكراد ، قلعة بيت جبرين ، قلعة كوكب ، قلعة أرسوف ، قلعة هونين ، والمرقب .

١ — حصن الأكراد :

يجرى فى وادى البقاع La Bocquée (الذى يقع بين جبل العلويين وجبال لبنان) النهر الكبير Eleutherus ، وكان الوادى يقع بين امارة طرابلس الصليبية وبين المدينتين الاسلاميتين حمص وحماه ، ولذلك أقام الصليبيون عدة حصون ضخمة لسد هذه الثغرة فى حدودهم . وأهم هذه القلاع خمسة هى : حصن الأكراد وحصن عكار وحصن العريمة والحصن الأحمر وصافينا (٢) . وكان حصن الأكراد هو أعظم هذه الحصون ، فكان يمثل روعة المعمار العسكرى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكان هذا الحصن يتمتع بعدة موانع الواحدة تلو الأخرى ، أولها خندق حول الحصن ثم سور خارجى ثم سور آخر داخلى ، وثلاثة أبراج كبيرة ، كان كل منهم بمثابة قلعة صغيرة Fortin ، وكان

(١) Smail, op. cit., p. 216

(٢) Longnon, op. cit., p. 148
Feddan, op. cit., p. 84

السور الداخلي أكثر ارتفاعا من السور الخارجي الملاصق له، مما مكن الجنود من مهاجمة العدو من السورين معا • وكانت الأبراج المستديرة تقع على مسافات متقاربة ومنتظمة فى السور مما مكن جناح بأكمله من الدفاع عن القلعة ، كما كان يوجد خلال السور مشربيات حجرية Machicolation وفتحات لرماة الأسهم Archeres وغيرها من الوسائل جعل القلعة من القوة والصلابة بحيث أنها لا تزال باقية الى يومنا هذا (١) •

وقد أعاد الاسبتارية بناء هذه القلعة فجعلوا فيها ساحتين كبيرتين وأبوابا منيعة ، كما أن مدخل القلعة كان مصمما بحيث أن الداخل اليها كان عليه أن يمر فى طريق معرقل ، فبعد أن يعبر البوابة الرئيسية للقلعة كان الداخل يمر فى طريق طويل ضيق تليه عدة بوابات محصنة ، يأتى بعدها دهاليز ذات منحنيات تؤدى فى آخرها الى الساحة الداخلية ، فاذا وصل المقتحم اليها يكون من بداخل القلعة قد استطاع محاصرته وتمكن منـه (٢) •

كذلك كان حصن الأكراد مزودا بالمداخل السرية Posterns حتى تتمكن الحامية من الخروج أو تلقى الرسائل بسهولة وبعيدا عن عيون المحاصرين • كما كان للحصن جسر متحرك Draw bridge وخندق خـارجى Moat ومشربيات حجرية الى جانـب ما سـمى بالمتراس Porticullis (وهو عبـارة عن اطـار من الخشب أو الحـديد مدبب الأطراف فى أسفله ، ينزلق ، عموديا فى حزين جانبيين فى كتفى باب الحصن ، وهذا المتراس يسدل اذا حاول العدو اقتحام القلعة وذلك بواسطة الحبال ولسلاسل • (وهذا النمط عربى فى الأصل) وكانت هذه الانشاءات التى بحصـن الأكراد انما تعتبر قمة التطـور فى فن بناء الحصـون • وبجانب هذا التحصين فى البناء ، كان الحصن كله محاطا من الجهات الثلاث بموانع طبيعية فكان حصن الأكراد مشيدا على قمة الجبل العلوى ويتحكم فى السهل الذى بأسفله •

---

(١) Smail, op. cit., p. 224
Feddan, op. cit., p. 51

(٢) عبد الرحمن زكى ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد رقم ١٥ ، ص ٧٤ •

Feddan, op. cit., p. 86

وجدير بالذكر أن هذا الحصن كان قبل مجيء الصليبيين للشرق فى حوزة المسلمين وبنى فيه أحد أمراء المسلمين برجا ومنحه لجماعة من الأكراد ليكونوا بمثابة منطقة حاجزة بينه وبين الصليبيين عند قدومهم ، فاستقر فيه الأكراد ثم حصنوه حتى أصبح قلعة منيعة فى وجه الصليبيين ، ثم اشترى الصليبيون هذا الحصن من الأكراد واحتلوه وعاد هؤلاء الأكراد الى بلادهم (١) . وكان احتلال الصليبيين لهذا الحصن حوالى عام ١١١٠ م فأقاموا عليه منشآت جديدة وعرف فى المراجع الأجنبية باسم Krak of the Knights أو Crac des Chevalies بعد استقرار الفرسان به . وكان هذا الحصن من القوة بحيث تعذر على المسلمين الاستيلاء عليه لمدة مائة وخمسين عاما ، رغم أنهم حاصروه أكثر من اثنتى عشرة مرة ، وذلك يرجع الى حصانة القلعة وحسن موقعها .

وفى عام ١١٤٢ وجد أمير طرابلس ريموند الثانى أن مهمة الدفاع عن هذه القلعة الضخمة أصبح عبئا لا يتحمله ، فمنح هيئة الاسبتارية حصن الأكراد وعدة حصون أخرى تقع على حدود امارته ومنها حصن رفانية Raphanèe وبعرين Mont - Ferand والبقاع مايتبع هذه الحصون من أراضى واقطاعات (٢) . وكان أهم هذه القلاع على الاطلاق حصن الأكراد الذى ظـل فى أيدى الاسـبتارية حتى خروج الصليبيين نهائيا من الشام ، فكان الحصن يعتبر نقطة انطلاق للصليبيين على المناطق الداخلية الاسلامية ، ففى سنة ١١٦٣ على سبيل المثال فشل نور الدين محمود فى مهاجمة الحصن وانسحب بعد أن خاض معركـة خاسرة تحت أسواره ، كما أن صلاح الدين حاول الاستيلاء على حصن الأكراد ولكنه اتجه الى الساحل تاركا أمره لمستقبل الأيام (٣) .

وواجه حصن الأكراد صعوبات حقيقية بعد عام ١٢٥٤ ، عندما اشتدت ضربات السلطان المملوكى الظاهر بيبرس على الصليبيين ، خاصة عندما سقطت حصون صفد للداوية عام ١٢٦٦ ويافا وانطاكية عام ١٢٦٨ م ، ثم تعرضت قلعة حصن الأكراد للهجوم المباشر من جانب المسلمين وحاول

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٤ .

(٢) Grousset, op. cit., Vol. II, p. 890
King, op. cit., p. 36

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٥٣ .

المسلمون الاستيلاء عليه عاما بعد آخر ، حتى أن مقدم الاسبتارية هيوريفيل Hugh Revel كتب خطابا عام ١٢٦٨ الى الغرب يعرب فيه عن الصعوبات التى يتعرض لها الحصن نتيجة عدم انتظام الامدادات وقلة الموارد البشرية والمادية (١) . وجدير بالذكر أن هذا الحصن الهام عاش فيه أكثر من ألفى محارب فى بداية القرن الثالث عشر ، ولكن بنهاية هذا القرن ، لم يوجد بحصنى المرقب وحصن الأكراد — وهما من أهم الحصون التى صمدت بالشام — سوى ٣٠٠ فارس فقط . وفى ٣ مارس ١٢٧١ م (١٦ شعبان ٦٦٨ هـ) استولى السلطان الظاهر بيبرس على حصن الأكراد الذى لم يكن به سوى عدد ضئيل من الفرسان الرهبان ظلوا يدافعون عنه حتى سقط (٢) .

ولا تزال قلعة حصن الأكراد باقية حتى اليوم ، رغم مرور أكثر من ثمانية مائة عام على انشائها ، وقد وجد أنه كان يوجد بالحصن غرفة خاصة بمقدم الهيئة كانت بمثابة مركز لأعماله الادارية ، كما وجد بأسفل القلعة كنيسة على الطراز الرومانسكى ، وهى التى دفن بها جود فرى جوانفيل (عم مؤرخ حملة لويس التاسع) ، أما ناحية الشمال فانه كان يوجد طاحونة هواء لطحن الغلال ، كما وجد آثار لغرفة طولها ١٣٠ ياردة لها سقف مقبى Vaulted ويبدو أنها كانت مخصصة لاقامة الرهبان المحاربين (٣) .

٢ — قلعة بيت جبرين Gibelin, Beit Gibrin

تقع قلعة بيت جبرين أو بيت جبريل على تقاطع الطرق المؤدية الى بيت المقدس والخليل Hebron وغزة وعسقلان . وقد استقر الصليبيون فى منطقة بين جبرين منذ مجيئهم الى الشام ، فقد أصبحت القلعة تابعة لمنطقة الخليل St. Abraham وكانت تعتبر أيضا مركزا لمنطقة بير سبع (٤) .

وكانت هذه المنطقة — فى بداية عهد الصليبيين بالشام — مهددة من جانب حامية عسقلان المصرية ، ولذلك قام الملك فولك ملك بيت المقدس

---

(١) Feddan, op. cit., p. 85

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩١ .

(٣) Feddan, op. cit., P. 89.

(٤) Benvenisti, op. cit., P. 186.

ببناء سلسلة من القلاع حول عسقلان كانت أول هـذه القلاع قلعـة بيت جبرين : ثم أنشأ بعدها قلعة تل الصافية Blanche garde وقلعة يبنه Yebna أو Ibelin ، ثم قلعة غزة .

وفى عام ١١٣٦ بعد أن تم العمل فى قلعة بيت جبرين ، منحت هذه القلعة لهيئة الاستبارية لتولى مهمة الدفاع عن الحدود الجنوبية المواجهة لحامية عسقلان المصرية (١) ، كما تسلمت الهيئة مع هذه المنحة حوالى عشر قرى تابعة للمنطقة ذاتها . وقد أسست هيئة الاستبارية حـول قلعة بيت جبرين منطقة سكنية زراعية ، سكنها فلاحون أحرار من أصول أوروبية ومنح كل منهم بيتا و ٧٠٠ دونام (١٠٠٠ متر مربع) فى مقابل دفع عشر المحصول ومبلغ آخر ثابت يدفع سنويا . كما تعهد هؤلاء الفلاحون بالخدمة العسكرية فى مقابل حصولهم على نصيب فى الغنائم .

وكان الهدف الأصلى من انشاء قلعة بيت جبرين ، هو الدفاع عن الحدود جهة عسقلان ، وبذلك مثلت هذه القلعة احدى قلاع الحدود الهامة ، ولكن الأهمية العسكرية لهذه القلعة تضاءلت بعد أن استولى الصليبيون على عسقلان سنة ١١٥٣ ولكنها ظلت قعة هامة على الطريق تجلب ضريبة معينة على القوافل المادة بها (٢) .

واستولى صلاح الدين الأيوبى على قلعة بيت جبرين بدون قتال سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، ثم أمر بتدميرها بعد ذلك بأربعة أعوام ، ثم عاد الصليبيون فاستردوها عام ١٢٤٠ ، بموجب معاهدة بين السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب وريتشارد أمير كورنول ، وفى سنة ١٢٤٤ م استردها المسلمون مرة أخرى .

وكانت قلعة بيت جبرين تشبه فى بنائهـا قلعة كوكب التى كانت للاسبتارية ، والتى سوف نتناولها فيما يلى .

٣ — قلعة كوكب Belvoir :

أما قلعة كوكب التى كانت تشبه قلعة بيت جبرين فى بنهائها ، فقد كانت لها عدة أسماء وردت فى المصادر المختلفة ، فقد جاءت فى المصادر

---

(١) King, op. cit., P. 33.

(٢) Smail, op. cit., P. 95.
Benvenisti, op. cit., P. 173.

العربية باسم كوكب الهوا ، وحصن كوكب ، أما المصادر الأجنبية فقد أشارت اليها بأسماء : Belvoir و Beauvoir و Coquet وذلك لأنها كانت تطل على منظر جميل (١) . وكانت قلعة كوكب من القلاع الهامة التى أقامها الصليبيون فى منطقة الجليل ، وتقع القلعة على ارتفاع ٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، كما أنها تطل على نهر الأردن وبحيرة طبرية والجليل والجولان عن بعد ، أى أنها تحكمت فى جنوب بيسان Bethsan . وكان الهدف من بناء قلعة كوكب هو حماية الطرق المحلية ، كما أنها كانت تتصل بقلعة صفد عن طريق استخدام الاشارات النارية Fire-signals . وكانت هذه القلعة مؤسسة على الطراز البيزنطى على مساحة ٣٨٠ قدم طولا و ٣٢٠ قدم عرضا ولها سبعة أبراج ، كما كان لها تحصين طبيعى من جانب سورها الشرقى اذ يقع فى هذا المكان منحدر تلال وادى الأردن ، ولذلك لم تكن القلعة فى حاجة الى تحصينات اضافية ، كما أن أبراجها المربعة الشكل بلغ ضلع كل منها ٣٠ قدما وارتفع من ١٥ الى ٢٠ قدما (٢) . وكانت قلعة كوكب من الحصانة والقوة حتى أن العماد الكاتب قال عنها « كأنها وكر العنقاء ومنزل العواء » ، وربما قصد بذلك أنها كانت ملكا لقوم أشداء شكلوا خطورة على المسلمين (٣) ، ويقول ابن شداد عن قلعة كوكب « كان حصنا قويا وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة (٤) .

ولا تذكر المصادر شيئا عن تاريخ بنائها ، وربما حدث ذلك فيما بين سنتى ١١٣٨ — ١١٤٠ فى عهد الملك فولك . وكانت قلعة كوكب فى البداية عبارة عن مبنى صغير يمتلكه نبيل فرنس باسم ايفوفيلوس Ivo Velos ، وباع هذا النبيل القلعة لهيئة الاسبتارية سنة ١١٦٨ بمبلغ ١٤٠٠ بيزنت ذهبية (٥) . فقام الاسبتارية ببناء القلعة وتوسعت أملاكهم حولها حتى بلغت حوالى مائتى كيلومترا مربعا شملت هذه المساحة عددا كبيرا من القرى .

---

(١) Richard, op. cit., P. 107.

(٢) Smail, op. cit., P. 231.

(٣) العماد ، الفتح القسى ، ص ١٦٦ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٤ .

(٥) Benvenisti, op. cit., P. 295.

Smail, op. cit., P. 102.

وعمل السلطان صلاح الدين على ضرورة الاستيلاء على القلعة كوكب ، وفى سنة ١١٨٣ استطاع المسلمون الاستيلاء على القلعة المجاورة لها المسماة كفربلا Forbelet • وبعد نصر حطين قام صلاح الدين بالعمل على الاستيلاء على هذه القلعة الاسبتارية الهامة، فجعل السلطان عليها قوة بقيادة أحد الأمراء لمحاصرتها حتى لا يخرج منها الاسبتارية لقطع الطريق على المسلمين ، ولكن استطاع الاسبتارية مفاجأة المسلمين وخرجوا عليهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا ما معهم من مؤن وسلاح وعادوا الى قلعتهم (١) ، واستطاع الفرسان الرهبان بهذه الغنائم أن يصمدوا أمام هجمات المسلمين على مدى ستة أشهر أخرى • ولما علم صلاح الدين بما حدث ، أرسل الأمير صارم الدين قايماز النجمى لمحاصرة هذه القلعة الهامة ، وكان قد سير جماعة أخرى لمحاصرة قلعة صفد التابعة للدواية • ويقول العماد الأصفهانى أن الاسبتارية فى كوكب اشتدت مقاومتهم خاصة بعد سقوط صفد ، ولكنه حدث أن قام المسلمين بأسر أحد الاسبتارية وقادوه الى قايماز النجمى فأطلعه الأسبتارى على بعض مواقع الصليبين ، وبذلك استطاع القائد الاسلامى أن يهاجم الصليبين فى مواقعهم ، وأخيرا استولى على حصن كوكب فى أواخر عام ٥٨٣ هـ — ١١٨٩ م وسير الأسرى الاسبتارية الى السلطان صلاح الدين الذى ولى قايماز النجمى واليا على القلعة (٢) •

وقد استرد الاسبتارية قلعة كوكب بموجب معاهدة ١٢٤١ (بين الصالح أيوب وريتشارد أمير كورنول) ولا يعرف بالضبط التاريخ الذى استولى فيه المماليك على قلعة كوكب ، ولكن أغلب الظن أنه تم فى عهد السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٣ عندما استولى هذا السلطان على كل أملاك الاسبتارية بمنطقة الجليل (٣) •

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٧ .
(٢) العماد ، الفتح القسى ، ص ١٦٤ — ١٦٧ .
(٣) Benvenisti, op. cit., P. 297.

٤ ــ قلعة أرســوف :

كان اقطاع أرسوف فى خلال القرن الثانى عشر فى حوزة آل ايبلين ، ولكن حوالى سنة ١٢٦٠ عجزت تلك الأسرة فى عهــد باليان ابن حناايبلين عن الدفاع عن هــذا الاقطاع الضخم ، خاصة وأن أراضى المسلمين التى وقعت شرق هــذا الاقطاع كانت تهدده بصفة مستمرة ، لذلك قام باليان بتأجير القلعــة والمدينة وما حولهما الى منظمة الاسبتارية عــام ١٢٦١ فى مقابــل ٤٠٠٠ بيزنت سنويا • وباستلام الهيئــة لهذا الاقطاع قامت بانشاء تحصينات هامة للقلعة خاصــة فى الجانب الشرقى لها وأثناء القيام بهــذه التحصــينات ، (التى كانت تعتبر خرقا للمعاهدة المبرمة بين بيبرس والصليبيين) قام السلطان بيبرس سنة ١٢٦٥ بحصار القلعــة ودام الحصار أربعين يوما دافع خلالها الاسبتارية عن القلعة دفاعا مريرا ، ثم اضطروا الى تسليم المدينة ، وتحصنوا داخل القلعــة فى ٢٦ أبريل فلحق بهم الأهالى •وأخيرا هاجم بيبرس القلعة من ناحيــة الجنوب وبعــد فترة أدرك الاسبتارية استحالة الصمود فطلبوا الأمان بشروط قدموها للسلطان فوافق عليهــا ، ولكن بمجرد خروج الحامية من القلعة أمــر بيبرس بأسرهم جميعــا وارسالهم الى أســواق الرقيق بالقاهرة حيث بيعــوا هنــاك (١) •

٥ ــ قلعة هونين (٢) Castellum Novum, Chastel Neuf

وتقع قلعة هونين على الحــدود بين مملكة بيت المقــدس ومدينة دمشق ، ولذلك فانها كانت تعتبر قلعة لها أهمية استراتيجية من الدرجة الأولى بالاضافة الى أهميتها الاقتصادية وذلك بسبب وقوعها على أحد الطرق التجارية الرئيسية • وقد أعاد الصليبيون تحصين هذه القلعة فى نفس الوقت الذى قاموا فيه بانشاء قلعة جسر بنات يعقوب (مخاضــة الأحزان) وبذلك أصــبحت القلعتان الجــديدتان تتحكمان فى روافد الأردن العليا وتكونان خطا دفاعيا عوض الصليبيين عن ضياع قلعة وهونين والتى هددوا بها دمشق ، وكما كونت قلعتا جسر بنات يعقوب وهونين خطا دفاعيا ناحية دمشق ، كونت قلاع غزة وعســقلان وايبلين والرملة خطا دفاعيا آخر من جهة مصر (٣) •

(١) Benvenisti, op. cit., P. 132.
(٢) Prawer, op. cit., Vol. I, P. 554.
(٣) Grousset, op. cit., Vol. II, P. 667.

وكانت المنطقة المحيطة بهونين ملكا لأمير الجليل الصليبى هيودى سانت أومير ، وذلك منذ سنة ١١٠٧ م ، ويبدو أن هذا الأمير هو الذى أنشأ الحصن ليتمكن من السيطرة على طريق دمشق — صور ، كما أنه شيد قلعة تبنين للسيطرة على باقى المنطقة . وفى ظروف غير معروفة حول الاقطاع كله بما فى ذلك قلعتى هونين وتبنين الى اقطاعية مستقلة تابعة لصاحب بانياس هنفرى دى تورون Onfroi de Toron (١) ، ولكن سرعان ما عجز هذا السيد الاقطاعى عن الدفاع عن أملاكه أمام هجمات نور الدين المتكررة ، فقام ببيع نصف هونين سنة ١١٥٧ وكذلك نصف أقطاع بانياس لهيئة الاسبتارية ، ولكن هيئة الاسبتارية تخلت عن هذه البقاع بعد أن تعرض أفرادها لكارثة أودت بمعظمهم على يد نور الدين محمود سنة ١١٥٧ م (٢) .

واستطاع صلاح الدين الاستيلاء على قلعتى هونين وتبنين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) (٣) ، ثم عاد الصليبيون فاستردوهما وظلتا فى أيديهم حتى عصر السلطان الظاهر بيبرس الذى استولى على القلعتين سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٥ — ١٢٦٦ م) .

٦ — قلعة المرقب Markab :

كانت قلعة المرقب من أهم قلاع الصليبيين بأمارة انطاكية ، فقد شيد هذه القلعة جماعة من سكان الجبال فى منتصف القرن الحادى عشر وأكمل العمل فيها آل مازوار Mazoir الصليبيين ، ثم أضاف اليها الاسبتارية بعض المنشات وجعلوها مركزهم الرئيسى . وكانت هذه القلعة هى أول ما يشاهده القادم الى الشام من جهة البحر مما جعل لها موقعا هاما بالنسبة للصليبين . (٤) وهى تقع على مسطح مثلث الشكل يرتفع مسافة ٣٠٠ متر فوق سطح البحر وتحيط بالقلعة المنحدرات من جميع النواحى ، وبالاضافة الى التحصينات الطبيعية ، كان لها

---

(١) Benvenisti, op. cit., P. 300.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 256.

(٣) العماد ، الفتح القسى ، ص ٨٦ .

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ .

(٤) Runciman, op. cit., Vol. III, P. 47.

أسوار مزدوجة ، تتخللها الأبراج المستديرة الشكل ، وكان يوجد بالطرف الجنوبى لها قصر يقع على مرتفع ضيق يوجد بآخره خزان للمياه، وكان هذا البناء الضخم يشتمل على كنيسة وحجرة كبيرة وبرج قطره ثلاثون مترا (١) .

وكانت قلعة المرقب خلال القرن الثالث عشر ، تمثل عاصمة قوية لدولة شبه مستقلة وهى هيئة الاسبتارية ، وكان يفصلها عن امارة انطاكية أراضى تابعة للمسلمين باللاذقية وجبله ، وقد أصبحت المرقب عاصمة ومركزا للاسبتارية خاصة بعد ضياع حصن الأكراد . وجدير بالذكر أن الاسبتارية قامت بشن هجمات عديدة ضد حماه من هاتين القلعتين ، وخاصة فى عهد الملك المنصور ناصر الدين محمد أى حوالى عام ١٢٠٥ (٢). ولم تكن قلعة المرقب منحة منحت للاسبتارية ولكن برتراند مازوار صاحبها عندما عجز عن الدفاع عن أملاكه سنة ١١٨٦ فانه قام بتأجير هذا المكان للاسبتارية فى مقابل مبلغ سنوى قيمته ٢٢٠٠ بيزنت ، وذلك لضمان مورد مالى ثابت لأصحاب القلعة القدامى ، كما أن الاسبتارية قدمت للأمير بوهيموند وأولاده مبلغ ١٠٠٠٠ بيزنت ثمنا لهذه الصفقة (٣) .

وقد عاش فى قلعة المرقب مئات من رهبان الاسبتارية بصفة دائمة تحت قيادة عسكرية أو قائد عسكرى هو الـ Châtelain ، يساعده Vice-Châtelain و Praeceptor militum وجنود آخرون وتركبولية ، لهذا أصبحت هذه القلعة بمثابة ثكنات عسكرية لهيئة الاسبتارية ، كما كان يتم بالمرقب الاجتماعات السنوية الخاصة بالهيئة ، كما كانت تمثل قصرا للضيافة استضافت فيه الهيئة كبار زوارها .

وكان سقوط المرقب هو فى الحقيقة سقوطا لهيئة الاسبتارية بأسرها ، ذلك لأن الهيئة بعد ذلك لم يبق لها فى الشام قلاع كبرى. وكان سقوط القلعة على يد السلطان المملوكى قلاوون فى ٢٣ مايو ١٢٨٥ (١٩ ربيع

---

(١) Cahen, op. cit., P. 172.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٠ .
Runciman, op. cit., Vol. III, P. 103.

(٣) Cahen, op. cit., P. 515.

الأول ٦٨٤هـ) وكان السلطان قد صمم على محاربة الاسبتارية والانتقام منهم خاصة بعد أن تعاملوا مع المغول وتحالفوا معهم ، ويقول أبو الفدا فى هذا الصدد عن حصن المرقب « وهو حصن للاسبتارية فى غاية العلو والحصانة لم يطمع أحد من الملوك الماضيين فى فتحة » (١) • وقد دخل قلاوون القلعة فى ٢٥ مايو بعد أن سمح لضباطها (٢٥ ضابطا) بالخروج بأسلحتهم وأمتعتهم ، أما باقى الحاميةفلم يسمح لهم الا بالخروج وحدهم فخرج هؤلاء جميعا الى طرطوس وطرابلس وتسلم المسلمون قلعة المرقب من الاسبتارية ، فقد أراد السلطان ابقاء عمارتها (٢) •

وهناك عدد آخر من القلاع والحصون أقل أهمية ، كانت من مراكز الاسبتارية ببلاد الشام ، ومن هذه القلاع سوبيب Subeibe (قلعة النمرود اليوم) وتقع على بعد ٢ كم شرقى بانياس ، على المنحدرات الجنوبية الغربية لجبل الشيخ ، وتقع قلعة سوبيب على مساحة ربعمائة وثمانين ياردة من الشرق الى الغرب ومائة وثمانين ياردة من الشمال للجنوب (٣) • وتم بناء هذه القلعة سنة ١١٤١ م واستفاد الصليبيون منها فى اخضاع المسلمين المحليين وفى الدفاع عن بانياس ، كما كان لوجودها الأثر فى أن وافق حكام دمشق على اقتسام عوائد المنطقة مع رينيه بروس Renier Bruce سيد سوبيب (٤) •

وكلفت هيئة الاسبتارية بالدفاع عن هذه القلعة التى وقعت ضمن اقطاع بانياس فى عهد هنفرى تورون ، وذلك لأن القلعة تمتعت بموقع استراتيجى من الطراز الأول ، فقد أشرفت على الوادى كله كما أنها تمتعت بمنطقة دفاعية طبيعية حولها تتمثل فى بحيرة الحولة وجبال الجليل ومنطقة بانياس ، وكان ذلك على درجة كبيرة من الأهمية للجانب الصليبى ، خاصة بعد أن أصبحت دمشق فى يدنور الدين محمود (٥) •

---

(١) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢١ .

(٢) ابن أيبك ، كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٧٨ .

(٣) Cahen, op. cit., P. 720.
Smail, op. cit., P. 223.

(٤) Feddan, op. cit., P. 25.

(٥) Grousset, op. cit., Vol. II, P. 370.

وفى سنة ١١٥٧ استولى نور الدين محمود على قلعة بانياس والمنطقة كلها كما أن همفرى دى تورون حوصر فى قلعة سوبيب فى ٢١ مايــو ١١٥٧ ، ثم سقطت القلعة فى يد نور الدين محمود سنة ١١٦٤ م • وتمثل هذه القلعة نموذجا رائعا لطراز القلعة النورمانى المسمى حديثا باسم Keep (١) •

وبجانب هذه القلاع السابق ذكرها ، فان هيئة الاسبتارية امتلكت قلاعا أخرى أقل حجما وأقل أهمية • منها قلعة برج السور ، وقد منحت المنطقة كلها للاسبتارية سنة ١١٣٦ وتقع قلعة برج السور شمال شرقى أملاك الاسبتارية التى تركزت حول بيت جبرين ، وقام الاسبتارية ببناء برج ليكون بمثابة مركز ادارى لها تدير منه أملاكها فى المنطقة (٢) • كما كان للاسبتارية قلعة أخرى أنشئت لأسباب ادارية وهى قلعة بلمونت Belmont ولا تزال بقايا هذه القلعة موجودة حتى اليوم (٣) •

أما أملاك هيئة الاسبتارية فى مملكة أرمينيا الصغرى فقد كانت محل نزاع مع هيئة الداوية ، فقامت بينهما المنازعات على بعض الحصــون فى تلك المنطقة • ومن المؤكد أن قلعة سلوقيه Salef أو Selèucie كانت تابعة للاسبتارية ، فقد مثلت هذه القلعة مقر القيادة الاسبتارية فى قليقية ، وكان ريموند روبن قد منحها للهيئة بموجب مرسوم أصــدره عام ١٢١٠ (٤) •

أما عن أهم حصون وقلاع هيئة الداوية ، فهى قلاع غزة وصفد وصافيتا والداروم وجسر بنات يعقوب وعثليث •

١ ــ قلعة غزة (٥) Gadres :

كانت غزة منذ أقدم العصور هى المفتاح المؤدى الى مصر ، وآخر المدن القوية على الحدود المصرية من جهة سيناء ، فهى تقع على طريق الساحل المؤدى الى مصر • وكانت غزة قبل دخول الصليبيين لشــام

(١) انظر عبد الرحمن زكى ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد رقم ١٥ ، ص ٥٦ •

(٢) Benvenisti, op. cit., P. 325.

(٣) Ibid., P. 229.

(٤) R.H.C., Tome I, Doc. Arm. Sempad, P. 645.

(٥) ابن حوقل ، صورة الأرض ، القسم الاول ، ص ١٧٢ • الاسطخرى ، المسالك والممالك ، ص ٤٤ •

مركزا تجاريا هاما ، وكان بها قلعة قوية ، وباستيلاء الصليبيين على الشام أصبحت غزة بمثابة نقطة انطلاق للمصريين الى قاعدتهم الهامة بعسقلان ، ولم يتمكن الصليبيون من الاستيلاء على غزة الا عام ١١٤٩ م وذلك بعد أن أحاطوها بسلسلة من القلاع القوية هى قلعة بيت جبرين وتل الصافية ويبنة Yebna (أسدود) • وكان الغرض من الاستيلاء على غزة هو استكمال احاطة قاعدة عسقلان المصرية بقلاع صليبية تمهيدا للاستيلاء عليها ، وقام المصريون بتدمير قلعة غزة قبل مغادرتها ، فقام الصليبيون باعادة تحصينها سنة ١١٤٩ م على يد عمورى ملك بيت المقدس ، وذلك بأن أنشئوا قلعة على تل عال وسط المدنية وتم تسليم هذه القعة للداوية (١) •

وكانت قلعة غزة عاملا هاما فى سقوط عسقلان فى أيدى الصليبيين سنة ١١٥٣ فقد عملت حامية غزة على تعطيل وصول الامدادات للحامية المصرية بعسقلان ، خاصة وأنها تقع على بعد ٢٠ كم فقط من عسقلان المصرية • وبعد سنة ١١٥٣ تغيرت وظيفة قلعة غزة ، فأصبحت بعد هذا التاريخ تمثل قاعدة صليبية متقدمة انطلق منها الصليبيون لمهاجمة مصر • وحاول صلاح الدين الأيوبى مهاجمة غزة وذلك عندما كانت القلعة بقيادة ميلودى بلانس Milo de Plancy فاحتمى الأهالى بالقلعة ولكن هذا القائد الصليبى منعهم ، وعلى الرغم من أن المسلمين استطاعوا دخول المدنية الا أن القلعة استعصت عليهم وصمدت الداوية • فعاود صلاح الدين الكرة مرة ثانية سنة ١١٧٧ ولكنه اضطر الى رفع الحصار نظرا لصمود الداوية ودفاعهم عن قلعة غزة دفاعا قويا (٢) • ثم شن المسلمون سنة ١١٨٢ هجوما موحدا من الشمال لمهاجمة بيروت ومن الجنوب لمهاجمة غزة ، ولكن الداوية صمدت مرة أخرى ودافعت عن القلعة ، وأخيرا أمر جيرار ريدفورت مقدم الداوية الذى كان وقتذاك أسيرا لدى صلاح الدين بعد معركة حطين ، أمر هذا المقدم حامية غزة بالتسليم وذلك فى

---

(١) Grousset, op. cit., Vol. II, P. 338.

لا تزال بقايا قلعة غزة موجودة حتى الآن وتسمى باسم « البرج العتيق » انظر : R.H.C., Tome II, Chiprois.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 374.

Grousset, op. cit., Vol. II, P. 650.

مقابل اطلاق سراحه ، وبالفعل سلمت الحامية للمسلمين • وقام السطان صلاح الدين بتدمير قلعة غزة سنة ١١٩١ م وذلك لحرمان الصليبين من قاعدة لهم فى هذه المنطقة الهامة ، ولكن ريتشارد قلب الأسد وصل بعد بضعة أشهر من تدمير القلعة فأمر باصلاحها وسلمها مرة أخرى للداوية للدفاع عنها • ولكن وفقا لصلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد سنة ١١٩٢ ، كانت قلعة غزة خارج نطاق سلطة الصليبيين حتى أن ريتشارد تعهد بتدمير أسوارها (١) •

٢ — **قلعة صفد** Safed :

كانت قلعة صفد تسيطر على المنطقة الواقعة بين وادى الحولة ونهر الجليل حيث يجرى الطريق بين دمشق وطبرية ، وكان الهدف من انشاء قلعة صفد هو الدفاع عن الأراضى الصليبية ضد اغارات المسلمين من ناحية دمشق (٢) •

وقد أنشأ قلعة صفد أمير الجليل الصليبى هيودى سانت أومير فى تاريخ غير معروف ، ثم انتقلت ملكية القلعة الى الملك فولك الذى باعها بدوره الى هيئة الداوية سنة ١١٦٨ م (٣) •

وفى سنة ١١٨٨ حاصر صلاح الدين بجيوشه قلعة صفد ، ودام الحصار مدة شهرين استسلمت بعده الحامية ، وباستيلاء المسلمين على صفد عملوا من هذه القلعة قاعدة لهم (٤) •

وبقدوم الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩ ، قام المعظم عيسى بن العادل بتدمير قلعة صفد ، خوفا من أن يتخذها الصليبيون قاعدة لهم يهددون منها الأراضم الاسلامية ولكن بموجب معاهدة ١٢٤٠ بين السلطان الصالح أيوب وريتشارد كورنول ، تسلم الصليبيون منطقة الجليل كلها بما فى ذلك قلعة صفد ، فاستردها الداوية مرة أخرى وأعادت بناءها (٥) •

---

(١) Benvenisti, op. cit., P. 191.

(٢) King, op. cit., P. 36.

(٣) Benvenisti, op. cit., P. 201.

(٤) العماد ، الفتح القسى ، ص ١٦٥ •
ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٤٨ •

(٥) Grousset, op. cit., Vol. II, P. 138.

وأشار الأسقف بنوا داليناني Benôit d'Alignan • أسقف مارسيليا ، الذى كان قد وفد حديثا من الغرب ، على مقدم الداوية بضرورة اعادة بناء قلعة صفد نظرا لأهميتها الاستراتيجية ، ورغم معارضة المقدم بحجة قلة الموارد المالية ، فان الأسقف استطاع اقناعة بضرورة اعادة بناء القلعة باستخدام حوالى ألف أسير من أسرى المسلمين ، أمضوا فى عملية بناء القلعة قرابة عامين ونصف • ويقال ان هؤلاء الأسرى تمردوا وحاولوا عرض شكواهم على حاكم دمشق ، فقام الصليبيون بقتل جميع الأسرى المسلمين الذين اشتركوا فى اعادة بناء قلعة صفد (١) •

وكانت قلعة صفد من أكبر القلاع الصليبية على الاطلاق ، كما أنها كانت مصممة بطريقة تجعلها قادرة على الصمود بعدد قليل من المحاربين ، ذلك أنه أقام بالقلعة وقت السلم ألف وسبعمائة محارب زادوا الى ألفى محارب فى أوقات الحرب ، كما كان يقيم بها فى الأوقات العادية خمسون فارسا قام على خدمتهم عدد من الرهبان الخدام بالاضافة الى ٥٠ من الخيالة الخفيفة (التركبول) بخيولهم وثلثمائة رجل عملوا فى تشغيل آلات الحرب بجانب ٨٢٠ رجل عملوا فى الاصلاحات اللازمة بالاضافة الى اربعمائة من الأسرى (٢) •

وجاءت نهاية قلعة صفد على يد السلطان المملوكى بيبرس ، ففى سنة ٦٦٤ هـ — ١٢٦٦ م قام بيبرس بحصار القلعة وقد باشر الحصار بنفسه ، كما أنه وعد الحجارين بمبلغ مائة دينار لمن يدمر أول حجر من القلعة ، واستمر هذا الحصار أكثر من ستة أسابيع دون جدوى ، فعاقب السلطان الظاهر بيبرس أربعين من أمرائه كانوا سببا فى فشل الحصار • ثم لجأ بيبرس بعد ذلك الى الحيلة للاستيلاء على هذه القلعة لهامة ، وذلك بأنه أعطى أمانا لمن بها من المسيحيين الشرقيين وبذلك أوجد نزاعا داخل القلعة بين هؤلاء والصليبيين ، وأخيرا قرر الطرفان ارسال رسول للسطان لطلب الأمان وكان الرسول من المسيحيين الشرقيين اسمه ليون Leon ، وقد قام هذا الشخص بخيانة الصليبيين ذلك لأنه برجوعه الى

---

(١) Benvenisti, op. cit., P. 203.
Feddan, op. cit., P. 30.

(٢) Benvenisti, op. cit., P. 204.

القلعة فانه أخبرهم بأن السلطان قبل شروطهم ، ففتح الداوية أبواب صفد فى ٦٦٤ هـ (٢٣ يوليو ١٢٦٦ م) ، وهنا قام بيبرس بأسرهم جميعا وأمر بضرب رقابهم عند تل قرب صفد ، ويذكر أبو المحاسن ، أن السلطان لم يعطهم امان بنفسه حتى يتخلص من هذا العهد ولكنه أجلس شبيها له هو الأمير كرمون التترى ، ولذلك فان بيبرس أمر بقتلهم جميعا وعلى حد قول أبو المحاسن « وكان فى قلب الملك الظاهر منهم حزازة ، ثم شرط عليهم ألا يأخذوا معهم من أموالهم شيئا » (١) ولكنه حدث أنه بخروج أفراد الداوية من القلعة وجد أنهم أخذوا كثيرا من التحف ، مما جعل السلطان بيبرس يأمر بضرب رقابهم ، ويذكر ابن أيبك « ضربت رقاب نحو ألفين من فرسانهم » • ثم أمر السلطان بعمارة الحصن وتعميره بالذخائر والسلاح ، وكان ذلك فى شهر رمضان المعظم سنة ٦٦٤ هـ — ١٢٦٦ (٢) • وقد أبقى بيبرس على اثنين من داوية صفد ، أسلم أحدهما أما الثانى فقد أرسله الى عكا لبث الرعب فى نفوس باقى الصليبيين (٣) •

وباستيلاء بيبرس على تلك القلعة الهامة فانه جعلها مركزا لمقاطعة اسلامية ضخمة امتدت من تبنين شمالا الى جنين Jenin جنوبا ومن عثليث غربا الى طبرية شرقا ، وولى بيبرس على القلعة الأمير مجد الدين الطورى وجعل الأمير عز الدين العلائى نائبا على صفد (٤) •

٣ — قلعة صافيتا Blanche Garde

أنشأ الملك فولك قلعة صافيتا سنة ١١٤٢ ضمن سلسلة القلاع التى أنشأها هذا الملك بهدف احاطة حامية عسقلان المصرية من كل جانب تمهيدا للاستيلاء عليها • وكانت القلعة ملكا للملك نفسه ثم انتقلت ملكيتها الى كونت عسقلان ثم الى عمورى الأول ملك بيت المقدس سنة ١١٦٦ (٥) •

---

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٨ •
Benvenisti, op. cit., P. 204.

(٢) ابن أيبك ، كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١١٧ •

(٣) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٧ •

(٤) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٩ •

(٥) Benvenisti, op. cit., P. 205.

وقلعة صافيتا تمثل مثلا رائعا لنوع القلاع النورمانية المعروفة باسم Keep وهو ذلك الطراز الذى عرفة الصليبيون قبل مجيئهم الى الشرق ، وقد تميز هذا الطراز بالضخامة وسمك سورة وقوة بنائه ، ويبلغ سمك سور البرج بقلعة صافيتا أحد عشر قدما (قلاع جبيل وصيهون على طراز قلعة صافيتا) ولم يوجد بالسور أى فتحات ما عدا تلك الفتحات التى خصصت لرماة الأسهم Archères وباب واحد صغير منخفض وهو المدخل الرئيسى للقعة . كما أنه كان يوجد بالدور الأسفل للقلعة قاعة كبيرة استخدمها الداوية كنيسة ولها سقف مقبى يبلغ ارتفاعه خمسة وخمسين قدما ، أما البرج فان ارتفاعه يبلغ مائة قدم . ولم تدخل الأخشاب فى مواد بناء هذه القلعة ، كما كان سائدا فى أوروبا ، مما جعل القلعة تقاوم الحرائق والنيران ، كما أن قلعة صافيتا كان يحيط بها سور مستدير ماثل قلعتى سوبيب وجبيل (١) .

وفى عام ١١٨٧ استولى صلاح الدين على قلعة صافيتا وأمر بتدمير القلعة ، ولكن الصليبيين استردوها سنة ١١٩٢ ثم عادت الى حوزة المسلمين سنة ١١٩٢ بموجب صلح الرملة ، ثم استولى عليها الصليبيون مرة أخرى سنة ١٢٤١ ، وأخيرا قام المسلمون بتدميرها نهائيا سنة ١٢٤٤ .

٤ — قلعة الداروم (دير البلح) Daron, Darum :

وأقام الملك عمورى قلعة الداروم سنة ١١٧٠ فى مكان يقع جنوب غزة ، وتبعد القلعة مسافة خمسة أميال عن الساحل ومسافة أربعة اميال عن غزة . ويقول وليم الصورى أن الملك عمورى بنى هذه القلعة بغرض التوسع ولكى يتمكن بسهولة من جمع الجزية السنوية التى فرضها الصليبيون على القرى المحيطة (٢) . وبذلك كانت قلعة الداروم تمثل مركزا اداريا هاما قام بجمع الأموال لصالح الملك ، كما أنها كانت احدى القلاع الصليبية المتقدمة الوقعة على حدود الصحراء ، كما أن أراضى هذه القلعة امتدت حتى واحة العريش وهى منطقة جرداء تماما .

---

(١) Smail, op. cit., P. 228.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 373.

وتمثل قلعة الداروم أساوبا متطورا من أساليب بناء القلاع ، فهى مبنية على النمط الرومانى Castrum الذى استخدمه العرب والبيزنطيون فى قلاعهم ، وبذلك كانت هذه القلعة تمثل مزيجا من العمارة الغربيـــة الشرقية (١) • وكانت قلاع يبنا وصافيتا وغزة وبيت جبرين مصممة على نفس هذا النمط الذى صممت عليه قلعة الداروم •

وكان بداية هجوم صلاح الدين على الأراضى الصليبية موجها تجاه قلعة الداروم التابعة للداوية ، فسار فى السادس عشر من ديسمبر ١١٧٠ م نحو الدراوم ولكن القلعة صمدت خاصة عندما تحرك عمورى ملك بيت المقدس جنوبا ليواجه صلاح الدين لأول مرة على أراضى صليبية (٢) • وتلقى عمورى فى هذه المعركة امداداته من قلعة الداوية بغزة ، ثم تقابل المسلمون والصليبيون بين غزة والداروم ، فاستطاع المسلمون دخول الداروم فى التاسع عشر من ديسمبر ثم توجه صلاح الدين الى غزة بعد أن خرج منها فرسان الداوية مع الملك عمورى • ثم توجه صلاح الدين بعد ذلك الى مصر ، ويبدو أنه لم يترك حامية اسلامية فى الداروم ، ففى نوفمبر سنة ١١٧٧ هاجم صلاح الدين جنوب مملكة بيت المقدس وظهر أمام قلعة الداروم ، ولكن الأمر انتهى بما عرف فى التاريخ « بكسرة الرملة » حيث رجع بعدها صلاح الدين الى مصر (٣) •

وفى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) استولى صلاح الدين الأيوبى على قلعة الداروم وعدد من القلاع الأخرى التابعة للداوية فى نفس المنطقة (٤) • وتسـلم القلعة أحد قادة صـلاح الدين وهو علم الدين قيصر ، ولكن الصليبيين ظلوا يعمون جاهدين لاسترداد تلك الحصون ، حتى تمكنوا من استرداد الداروم بعد معركة دارت بين الداوية والمسلمين (٥) •

ويبدو أن صلاح الدين اهتم اهتماما خاصا بقلعة الداروم ، وذلك بعد موقعة أرسوف ، فأمر صلاح الدين بهدم أسوار عسقلان ويافا وغزة

---

(١) Smail, op. cit., P. 230.

(٢) Prawer, op. cit., Vol. I, P. 447.

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٨ •
أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٠ •

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٧ •

(٥) العماد ، الفتح القسى ، ص ٣٢٢ •

وقلاع صافيتا واللد والرملة ، ولكنه أمر بالابقاء على قلعة الداروم وقلاع بيت المقدس والكرك (١) .

٥ — قلعة جسر بنات يعقوب Chastellet :

بعد أن عقد بلدوين الرابع وصلاح الدين معاهدة صلح سنة ١١٧٧ بعد موقعة تل الصافية ، ضغط فرسان الداوية على الملك الصليبى وأقنعوه بضرورة بناء قلعة لاغلاق المدخل الى الأردن فى مكان يقع على بعد عشرة أميال من بانياس ،على أن تقوم القلعة الجديدة بمهمة قلعة بانياس ولتأمين الممر المؤدى من وادى الأردن الأعلى المقابل للجولان (٢) . وتحت ضغط الداوية اضطر بلدوين الرابع لقبول العرض فخرج سنة ٥٧٤ هـ (نوفمبر سنة ١١٧٧) عند مكان يعرف باسم جسر بنات يعقوب أو المشهد اليعقوبى (Vadum Jacob, Guè de Jacob) على تل يقع على بعد خمسمائة متر جنوبى شرقى جسر بنات يعقوب أقام الصليبيون الحصن على الطريق الذى يؤدى من طبرية وصفد الى دمشق عن طريق القنطرة . ويذكر أبو شامة أن الحصن الذى بنى على مخاضة الأحزان بينه وبين دمشق مسافة يوم ، وبينه وبين صفد وطبرية مسافة نصف يوم (٣) . وتكلف بنـاء الحصن ٨٠٫٠٠٠ دينـارا ذهبيا ، ولم يتم بناء هذا الحصن بسهولة اذ واجه الصليبيون عدة هجمات من المسلمين الموجودين بوادى البقاع الذين فروا الى دمشق بعد أن تم العمل بالقلعة فبدءوا مهاجمتهم للصليبيين من دمشق (٤) .

ويقول وليم الصورى ان العمل تم فى القلعة على مدى ستة أشـهر ثم تسلمتها الداوية فى أبريل ١١٧٩ ، فقامت الهيئة بتقويتها بالرجال والسلاح فأقام بها ثمانون فارسا وأفصالهم وخمسة عشر قائدا تحت امره كل منهم خمسون محاربا ، كما أقام بالحصن عدد كبير من أرباب الحرف والصناعات (٥) .

---

(١) Conder, op. cit., P. 278.

(٢) Grousset, op. cit., Vol. II, P. 664.
Benvenisti, op. cit., P. 303.

(٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦ .

(٤) Prawer, op. cit., Vol. I, P. 557.

(٥) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣ .

وباتمام العمل فى هذه القلعة ، أصبحت كل ممرات الأردن الرئيسية فى يد الهيئات العسكرية ، ذلك أن قلعة جسر بنات يعقوب كانت للداوية وقلعة كوكب للاسبتارية ، كما لهما قلاع أخرى على طريق الساحل من اللد الى الجليل (١) •

وسرعان ما تعرضت قلعة جسر بنات يعقوب لهجمات صلاح الدين فى سنة ٥٧٤ هـ (أغسطس ١١٧٩) وذلك عندما خيم السلطان فى تلك السنة بالقرب من القلعة وأمر بقطع أشجار منطقة صفد التابعة للداوية وذلك لعمل آلات حصار من أخشابها • كما أنه رتب أمراءه لمهاجمة القلعة من كل جانب ، فأمر فرخشاه بمهاجمة الجانب الجنوبى فى حين تولى السلطان بنفسه مهاجمة الجانب الشمالى ، كما اشترك ناصر الدين بن شيركوه فى هذا الحصار • ويقول أبو شامة أن برج القلعة كان محكم البناء ولذلك فان نقبه تم بصعوبة بالغة ، فكان طوله يبلغ ثلاثين ذراعا وعرضه ثلاثة أذرع ، وعرض السور تسعة أذرع ، ولم يسقط سور القلعة الا بعد أن اشتعلت النيران فى القلعة ، وبدخول المسلمين اليها وجدوا بها حوالى سبعمائة أسير من المسلمين (٢) • واستغرق فتح هذا الحصن مدة أربعة وعشرون يوما ولم يبرح صلاح الدين المكان حتى اطمئن الى هدم هذه القلعة عن آخرها (٣) •

٦ ــ قلعة عثليث أو حصن الحاج :

وكانت قعة عثليث أو Castrum Peregrinorum, Chastiau Pélèrin أو حصن الحاج أو الحصن الأحمر (٤) • تقع على ساحل البحر المتوسط بين حيفا وقيصرية • وتمل قلعة عثليث نهاية عهد الصليبيين فى الشام ، ذلك لأنه بعد نصر حطين ، فشل الصليبيون فى الاستقرار بداخل البلاد ، فاتخذوا لهم مواقع ساحلية حتى يتيسر لهم وصول الامدادات من البحر • وكان يوجد فى عثليث قلعة صغيرة تاسم Destroit وكانت تابعة

---

(١) Prawer, op. cit., Vol. I, P. 557.
Richard, op. cit., P. 107.

(٢) أبو شامة ، كتاب الرزضتين ، ج ٢ ، ص ١١ •

(٣) Prawer, op. cit., Vol. I, P. 561.

(٤) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٣ •

للداوية فى القرن الثانى عشر ، ثم بدأ الصليبيون فى شتاء ١٢١٧ — ١٢١٨ فى بناء قلعة عثليث ، وذلك عندما قرر حنا دى برين تحصين نقطتين جنوبى عكا ، هما عثليث وقيصرية ، فقام الداوية والتيوتون وبعض الحجاج بالعمل فى تحصين القلعة وانتهوا من ذلك فى الخامس عشر من أبريل ١٢١٨ • واستفاد الصليبيون فى بناء قلعة عثليث بالحجارة الضخمة التى وجدوها فى هذه المنطقة ، كما أن المادة التى استخدموها فى لصق الحجارة كانت عبارة عن خليط من قواقع البحار • وتمثل قلعة عثليث تطورا معماريا ضخما فى بناء الحصون ، ذلك لأن التحصينات التى أنشئت بها كانت عبارة عن خندق Moat عرضه أربعون قدما وعمقه عشرة اقدام يتم ملؤه بماء البحر من الجانبين ، ويلى هذا الخندق سور خارجى يبلغ ارتفاعه خمسين قدما ويبلغ سمكة عشرين قدما (١) • ويمتد هذا السور الضخم بعرض القلعة كلها ويقوم عليه ثلاثة أبراج مستطيلة الشكل ، كما كان يوجد فى السور وعلى مسافات متساوية فتحات Casemates تكفى كل منها لأربعة رجال فى آن واحد • أما الأبراج ، فكان عرض كل منها تسعين قدما وارتفاعه ثلاثون قدما ، كما كان يوجد فى كل برج أبواب سرية Posterns بكل منها بوابة متحركة Porticullus عبارة عن أسياخ من الحديد المتشابكة • ويلى هذا السور الأول سور ثان به برجان مستطيلان يصلهما ممر ولا يزال أحد هذه الأبراج قائما حتى اليوم ويبلغ ارتفاعه مائة وعشرة قدما وهو مكون من ثلاث طبقات • وكان ترتيب الأسوار بهذا الشكل يسمح بانطلاق كمية هائلة ومتساوية القوة من النيران حتى أن المحاصر للقلعة كان يتعرض لخطين من النيران ، تنطلق من خمسة أبراج ضخمة وسورين • أما داخل القلعة فقد اندثرت معالمها فلا يوجد غير بعض آثار لعدد من الحجرات الضخمة ربما استخدمت فى أغراض التخزين ، كما أنه يوجد من تلك الآثار أثر لكنيسة قائمة حتى الآن (٢) •

وقد تعرضت قلعة عثليث لهجوم من جانب قوات المعظم عيسى بن العادل سنة ١٢٢٠ الذى انتهزفرصة غياب الصليبيين فى هجومهم على

---

(١) Feddan, op. cit., P. 93.

(٢) Ibid., P. 95.

دمياط (١) ، فهاجم عثليث وقيصرية ، وعندئذ دمرت الداوية قلعة Destroit القديمة وركزوا اهتمامهم للدفاع عن عثليث • ورغم شدة آلات حصار المسلمين الا أن أدوات حصار الداوية أوقفت عمل منجنيقات المسلمين ، كما أن حامية عثليث تكونت من أربعة آلاف مقاتل ، ولذلك فقد استمر حصار المسلمين للقلعة لمدة أسبوعين اضطر المعظم بعدها الى رفع الحصار بسبب وصول الامدادات للداوية وحصانة القلعة •

وفى عام ١٢٢٩ حاول الامبراطور فردريك الثانى الاستيلاء على قلعة عثليث من الداوية ، ولكن الداوية قامت باعتقال الامبراطور بالقلعة حتى تنازل عن ادعائه فى ملكيتها (٢) • وفى عام ١٢٥٠ عهد الملك لويس التاسع الفرنسى بزوجته الملكة ، فأقامت فى قلعة عثليث حيث وضعت مولودها المسمى كونت دالسون Comte d'Alècon بها فى نفس العام •

وقد هاجم بيبرس قلعة عثليث سنة ١٢٦٥ بقوة قادها بنفسه ، كما أمر بتدمير الأراضى التى حول القلعة ، ولكن عثليث صمدت حتى بعد سقوط عكا على يد السلطان الأشرف خليل • ولكن الداوية أدركت بعد سقوط عكا أنه لا جدوى من مقاومتهم فسلموا القلعة للمسلمين فى الرابع عشر من أغسطس ١٢٩١ وخرجوا منها الى قبرس • وبذلك كانت قلعة عثليث للداوية آخر معقل صليبى بالشام استسلم بعد استسلام جميع الصليبيين بالشام وخروجهم منه •

***

ومن قلاع الداوية الأقل أهمية من القلاع السابق ذكرها قلعة الفولة التى تقع على الطرق التى تصل بيت المقدس بنابلس وطبرية • وتاريخ بناء قلعة الفولة غير معروف ، وكانت هذه القلعة تابعة لهيئة الداوية ومثلت قاعدة صليبية هامة فى المعارك التى دارت بين الصليبيين وصلاح الدين عام ١١٨٣ • فقد ذكرت هذه القلعة مرارا فى المصادر وخاصة عندما ذهب

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٢ •

(٢) Ollivier, Les Templiers, P. 98.

انظر الفصل الخاص بالعلاقات السياسية للرهبان الفرسان ص ١٠٤ •

اليها باليان ايبلين وهو فى طريقه الى طبرية للالحاق بمقدم الداوية قبيل معركة حطين مباشرة .

وقد هزم صلاح الدين حامية الفولة من الداوية هزيمة منكرة فى معركة ١ مايو ١١٨٧ ، كما أنه استولى على القلعة بعد نصر حطين مباشرة وأمر بتدميرها ، ويقال ان القلعة كان بها كثير من المؤن والرجال والعتاد ، كما أنه وجد بها كثير من المخازن ربما كانت خاصة بتشوين منتجات الحاصلات الزراعية للمناطق التابعة للقلعة ، ولا تزال بقايا هذه القلعة قائما حتى اليوم (١) .

وامتلكت الداوية قلاعا أخرى مثل قلعة البطرون وهى التى استولى عليها صلاح الدين وأمر بهدمها تماما (٢) ، كما كان للهيئة حصن بانطاكية بسم القصير استولى عليه السلطان بيبرس سنة ٦٧٤ هـ — ١٢٧٥ م (٣) .

وبالاضافة الى هذه القلاع التى وقعت على الحدود أو على الطرق الهامة ، امتلكت الداوية قلاعا أخرى فى المدن الصليبية الكبيرة ، فكان للهيئة قلعة بمدينة عكا ، وهذه القلعة هى فى الأصل قصر الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى ، وهو أحصن موقع بالمدينة ، وذلك لوقوعه على ساحل البحر (٤) . وعندما حاصر السلطان المملوكى الأشرف خليل ابن قلاون مدينة عكا سنة ٦٩٠ هـ — ١٢٩١م « عصت الداوية والاسبتارية والأرمن » (٥) ، فى قلعة الداوية بعكا ، فأمنهم السلطان ولكنه

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٧ .
العماد ، الفتح القسى ، ص ٣٤ .
Benvenisti, op. cit., P. 323.
(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .
(٣) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ .
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٥ .
(٤) Benvenisti, op. cit., P. 104.
(٥) الذهبى ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

لم يف بعهده ، فيقال انه قتل وأسر منهم عددا كبيرا ، وكانت قلعة الداوية هى آخر ما استسلم بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ م (١) •

أما أملاك الداوية فى مملكة أرمينيا الصغرى فكانت كثيرة ، ومن أهم قلاع الداوية فى تلك المنطقة قلاع درباك وبغراس وحجر شغلان La Roche Roissel (٢) • وغيرها من القلاع الهامة • وكانت حصون الهيئات فى أرمينيا الصغرى موضع نزاع دائم بين الاسبتارية والدواية حول امتلاكها أو امتلاك الأراضى التى حولها ، ولا توجد تفاصيل هامة بخصوص أشكال هذه القلاع فى المصادر والمراجع التداولة •

وقبل أن نختتم هذا العرض لقلاع الداوية والاسبتارية يجب ألا يفوتنا أن نذكر أن هذه القلاع القوية ، التى اشتهرت بقوة بنائها وشدة حصوفها كانت تتصل بعضها ببعض بجهاز اتصال دقيق ، ذلك أن الصليبيين عرفوا من العرب والبيزنطيين طرق الاتصال التى لم تكن معروفة لديهم من قبل ، وهى الحمام الزاجل (من العرب) والاشارات النارية (من البيزنطيين) • وعمل الصليبيون على أن تكون قلاع شقيف أرنون وسوبيب وتبنين وصيدا متصاين باحدى تلك الوسائل ، كما أن قلاع حصن الأكراد وصافيتا وعكار والعريمة وحصن الحاج (عثليث) وطرطوس ، كانت جميعها متصلة بشبكة منظمة من الاتصالات •

وجدير بالذكر أن قلعة الكرك كانت تتصل بقلعة داوود فى بيت المقدس والتى تبعد عنها بمسافة خمسين ميلا ، عن طريق الاشارات النارية (٣) •

وبذلك يتضح لنا مدى قوة هذه القلاع ومدى دقة ذلك النظام الذى أديرت به •

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٦٥ •

(٢) Cahen, op. cit., P. 512.

R.H.C., Tome I. Doc. Arm. Gregoire Le Prêtre, P. 171.

(٣) Feddan, op. cit., P. 53.

الفصل الرابع

النشاط السياسى لرهبان الفرسان

فى بلاد الشام

(أ) العلاقة بين الداوية والاسبتارية وبين رجال الكنيسة الكاثوليكية بالشام :

كانت العلاقة بين الفرسان الرهبان وبين رجال الكنيسة الغربية فى بداية نشأة الهيئات علاقة ودية ، ولكن سرعان ما تغيرت تلك العلاقة عندما ظهرت فرق الرهبان الفرسان على المسرح السياسى والحربى فى الامارات الصليبية ببلاد الشام ، وراحت تلك الفرق تتطور بسرعة نتيجة ما حصلت عليه من حقوق وامتيازات كثيرة من قبل أمراء الصليبيين وملوكهم ، بالاضافة الى تلك الهبات والعطايا التى انهالت عليها من قبل البابوية • وحقد رجال الدين على هيئتى الداوية والاسبتارية أيضا لأنهما لم تخضعا روحيا أو قضائيا لأى سلطة دينية فى الشرق ، بل كان خضوعهما للبابا فى روما مباشرة ، مما أعطى لتلك الهيئات سلطة وحرية فى الشرق • وكانت أول مظاهر تلك الكراهية بين الطرفين هى تلك الكراهية التى وردت فى كتابات المؤرخ الصليبى وليم الصورى ، الذى كان يمثل بدوره أحد رجال الدين البارزين فى مملكة بيت المقدس ، اذ شغل منصب رئيس أساقفة صور منذ ١١٧٥ حتى ١١٨٥م • فقد أظهر هذا المؤرخ استياءه من تلك المنح والامتيازات التى انهالت على الفرسان الرهبان من حساب أموال الكنيسة (١) • كما أظهر وليم الصورى استياءه لذلك الجشع الذى أظهره مقدم الداوية برنارد دى ترملاى Bernard de Trèmelay وفرسانه ، عندما اشتركوا فى احدى المعارك الصليبية فى مهاجمة عسقلان ١١٥٣ ، وكيف رفض ذلك المقدم ادخال باقى الصليبيين من خلال الثغرة التى أحدثها الصليبيون فى أسوار عسقلان ، اذ أن مقدم الداوية ومن معه رغبوا فى الفوز بالغنيمة كلها للهيئة دون باقى الصليبيين (٢) • ومما زاد

---

(١) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 245.

(٢) King, op. cit., P. 51.

من تلك الهوة بين الرهبان الفرسان ورجال الدين ، تلك الامتيازات التى منحها لهم البابوات ، ففى سنة ١١١٣ جعل البابا بسكال الثانى هيئة الاسبتارية تحت حمايته المباشرة ، وأعفاها من دفع ضرائب العشور Tithes ثم انهالت على الهيئة المنح الواحدة تلو الأخرى من جانب خلفائه من البابوات ، ففى سنة ١١٥٤ على سبيل المثال أصدر البابا أنسطاسيوس الرابع مرسوما بابويا يقضى باقرار وتأمين الامتيازات القديمة التى كانت لهيئة الاسبتارية ، ويضيف اليها امتيازات أخرى زادت من قوة أعضائها من الناحيتين الدينية والسياسية (١) •

وهذا كله جعل الاسبتارية تبدو كهيئة دينية منفصلة عن السيطرة الروحية للأساقفة مما كان بمثابة ضربة قاضية لسلطة رجال الدين بالشام وكان لهذه الامتيازات والاعفاءات التى منحت للهيئات أسوأ الأثر على المتحصلات المالية وغيرها لرجال الدين ، ذلك لأن الضرائب الكنسية كانت تمثل للكنيسة جزءا هاما من دخلها فى الشام أكثر منه فى الغرب ، لأن هذه الضرائب كانت تشمل نصيبا وافرا من الغنائم (٢) ، وبذلك حرمت هيئات الفرسان الكنيسة ورجالها من جزء كبير من تلك الأموال • وقد زاد حقد رجال الدين على الرهبان الفرسان لأن هؤلاء الرهبان بجانب رفضهم دفع الضرائب للكنيسة ، فانهم أيضا قاموا بايواء الأشخاص الذين صدر ضدهم قرارات الحرمان من الكنيسة Excommunicated ، كما طالبوا بحقهم فى الاعانات القادمة من الغرب الأوروبى وممتلكات الكنيسة (٣) • كما أن الهيئات مارست حقوقا كنسية كثيرة أثارت رجال الدين ، فقد أصبحوا من الناحية الدينية يمثلون « كنيسة داخل الكنيسة » وكذلك « دولة داخل دولة » وذلك لما تمتعوا به من حرية سياسية بعد أن تحرروا من سلطة الملكية الصليبية وخضعوا للبابا فى روما مباشرة (٤) •

وتفصيلا لما سبق ، أصدر البابا اينوسنت الثانى Innocent II مرسوما بابويا عام ١١٣٥ (٥) ، حرم فيه على الأساقفة ممارسة سلطة وضع كنائس الاسبتارية تحت حكم التحريم الدينى Enterdict ، وذلك

(١) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 240.
(٢) Ibid, P. 239.
(٣) Conder, op. cit., P. 116.
(٤) Grousset, op. cit., Vol. I, P. 544.
(٥) Ponsoye, op. cit., P. 114.

رغم أن الأساقفة قد مارسوا هذا الحق ضد الأمراء الصليبيين ورعاياهم (١) .

وبذلك تحررت كنائس الاسبتارية والداوية من القيود الكنسية ، وأصبحت أملاك الهيئتين خارج نطاق الأحكام والسلطات الكنسية ، كما منح الرهبان الفرسان حق اقامة مراسم دفن موتاهم كاملة ، وفتح كنائسهم مرة كل عام لاقامة الاحتفالات الدينية وجمع الأموال ، مما كان يعتبر تحديا قويا لرجال الدين (٢) . ومما زاد أيضا من عوامل الحقد بين الفئتين أن هيئة الاسبتارية أقامت المبانى والمنشآت العالية فى مقابل مبنى كنيسة لا لاتينا La Latina ، فقد كانت كنيسة الاسبتارية ببيت المقدس تقع على مقربة من الكنيسة المذكورة ، ولكن بالتدريج ، استولت الهيئة على المبانى التى كانت تفصلها عن كنيسة مارى لاتينا ، فأنشأت الهيئة بدلا من تلك المبانى ، منشآت أخرى أكثر ارتفاعا . كماشيدت الهيئة قصورا اتصفت بالفخامة والضخامة ، مما أثار حقد بطريرك بيت المقدس فولشر Foulcher ، الذى حاول دون جدوى استرداد حقوق الكنيسة (٣) .
وتطور الأمر الى أن الاسبتارية اعتدت على رجال الدين داخل الكنيسة ، ففى سنة ١١٥٥ قام فرسان الهيئة برمى السهام على البطريرك أثناء قيامه ببعض الشعائر الدينية ، بل انهم قاموا بدق أجراسهم حتى لا يسمع صوت البطريرك فولشر داخل كنيسة القيامة ببيت المقدس .

وقد أثار هذا التصرف من جانب الاسبتارية رجال الدين ، فقاموا بجمع السهام التى اخترقت الكنيسة ، ووضعوها فى مكان مرتفع على جبل

---

(١) كان للتحريم الدينى أو تحريم مباشرة الشعائر الدينية بعض المظاهر ، فقد كانت المدينة أو الكنيسة الموقع عليها هذا الحكم ينزع من فوقها الصلبان والرفات والصور والتماثيل وتوضع هذه الأشياء على الأرض للدلالة على الحزن والأسى ، كما تمنع الكنائس من دق أجراسها بل تنزع هذه الأجراس من أماكنها . كذلك يوقف اقامة أى صلاة ويحرم على رجال الدين أكل اللحوم طوال فترة التحريم ، كما أن الأفراد الذين يحكم عليهم بالحرمان يحرم عليهم تحية الناس ويجبرون على قص شعورهم ولحاهم .
أنظر :
King, op. cit., P. 52.
(٢) Richard, op. cit., P. 109.
(٣) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 246.

الزيتون Mont Olives ، حتى يرى الجميع تلك الاهانة التى اقترفتها هيئة الاسبتارية تجاه المقدسات الكنسية (١) .

وكان المؤرخ الصليبى وليم الصورى شاهدا عيانا لتلك الواقعة ، وقد أظهر فى كتاباته شدة الاستياء لهذا التصرف من جانب الاسبتارية ، كما ألقى المؤرخ كل اللوم على البابوية فى روما ، على أنها المسئولة عن منح ذلك الاستقلال الدينى للهيئة وفصلها نهائيا عن سلطة بطريرك بيت المقدس ، مما أدى الى تطاول الاسبتارية على الهيئة الكنسية وعدم احترامهـا لها (٢) . وعلى الرغم أن ما ورد فى كتابات وليم الصورى صحيح الى حد كبير ، الا أن اتجاهه العدائى نحو الرهبان الفرسان وحقده عليهم كرجل من رجال الدين فى المقام الأول ، يجعلنا نتلقى ما يرد عنه بشىء من الحذر .

غير أن تصرفات الاسبتارية وعلاقتهم السيئة بالسلطة الكنسية ، أدت الى أن قرر الأساقفة ارسال وفد منهم للسفر الى روما برئاسة فولشر سنة ١١٥٥ ، وكان قد جاوز مائة عام حينذاك ، لعرض القضية على البابا أوربان الرابع Urban IV (٣) . وعندما وصل الوفد الى روما ، كان البابا قد تركها الى فرتينو Ferentino ، فأرجع بعض الأساقفة أن ترك البابا لروما انما يرجع الى أنه أراد أن يتفادى مقابلة البطريرك ، كما قيل أن بعض الاسبتارية قد زاروا البابا قبل وصول الوفد ، وأنه تلقى منهم بعض الهدايا للوقوف الى جانبهم فى هـذه القضية . ويذكر وليم الصورى أن البابا استقبل الاسبتارية بأسلوب ودى ، فى حين كان استقباله لوفد الأساقفة بزعامة فولشر كأنه لأشخاص غير جديرين بمقابلة البابا .

وكيفما كان الأمر ، فقد كلف البابا جماعة من القضاه لبحث القضية ، وقرر هؤلاء القضاة أن الاتهامات المنسوبة ضد الاسبتارية اتهامات غير واضحة ، وذلك رغم ما عدده الوفد الكنسى بقيادة فولشر من تعدى

---

(١) Michaud, op. cit., Vol. II, P. 262.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 240 .

(٣) Ibid., P. 247.

الاسبتارية على أملاك الكنيسة ، وايوائها لأشخاص محرومين منها ، وجمعها لصدقات كان من حق الابرشيات أن تجمعها • وقد رفض البابا الاصغاء لما عرضه فولشر وبعثته ، وعاد الجميع الى الشام خائبين (١) • ولهذا ذهب وليم الصورى وسط غضبه يتهم البابوية بقبول الرشوة من الاسبتارية ، هذا بينما دافع المؤرخ المحدث كنج عن الاسبتارية بشكل واضح ، فقد اتهم اثنين من الكرادلة بأنهم قبضوا الرشوة لمساندة قضية فولشر أمام البابا فى روما •

وقد وردت فى المراجع حوادث أخرى من حوادث النزاع بين الرهبان ورجال الدين يرجع السبب فيها غالبا الى منازعات حول ملكية أرض ، أو أموال ، مما يدل على أن الثراء الذى تمتعت به كل من الداوية والاسبتارية على السواء قد أثار بالفعل حقد رجال الدين ، خاصة وأنه بقدوم القرن الثالث عشر ، كانت تلك الاعفاءات الضريبية قد تضاعفت بالنسبة للهيئات حتى شملت كل أراضيها وأملاكها ، كما أعفيت هيئتا الاسبتارية والداوية من كل التزاماتهما المالية نحو الكنيسة ، بمعنى أن الأفراد الذين عاشوا على أراضى وممتلكات الاسبتارية والداوية أصبحوا ملزمين بدفع الأموال لهم وليس للكنيسة (٢) • بحكم أن كلا من الهيئتين — الداوية أو الاسبتارية — تمثل جهة دينية لها حق تحصيل الأموال من المسيحيين • وقد أدى ذلك كله الى أن أصبحت الهيئتان قوة منافسة للهيئة الكنسية ، وقد ظهر التنافس فى عدة أماكن فى ممتلكات الصليبيين فى بلاد الشام ، حيث انتشرت أملاك الهيئتين • ومثال ذلك النزاع الذى حدث بين الكنيسة وهيئة الاسبتارية فى امارة انطاكية ، حيث تمتعت تلك الهيئة بامتيازات وأملاك ضخمة فى تلك الامارة الصليبية • وقد انفجر النزاع بين الطرفين ، عندما تم لهيئة الاسبتارية شراء حقوق استغلال اقطاع المرقب الذى كان متصلا بأسقفية بانياس ، وكان للأسقف على هذه الأراضى حقوق مالية ودينية لا تتفق مع مصالح الاسبتارية واستقلالها ولذلك ثار رجال الدين ، وعرض الأمر على البابا أوربان الثانى ، الذى أرسل الى الشام وفدا من رجال الدين

---

(١) King, op. cit., P. 55.

(٢) Cahen, op. cit., P. 518.

لاجراء تحكيم بهذا الشأن • ولكن الأمر تطور الى ضغط عسكرى من جانب الهيئة ، فاضطر أسقف بانياس الى الالتجاء داخل أسوار المرقب • ويبدو أن المشكلة قد اتخذ فيها قرار ، وحكم فيها ، اذ دفعت الهيئة عام ١١٩٣ للأسقف الضرائب المستحقة باستثناء الضرائب المفروضة على الأراضى التى تستثمرها الهيئة مباشرة • وكان هذا حلا مؤقتا ، اذ توفى أسقف بانياس فتولى مكانه أسقف اسبتارى ساعد أخوانه بالهيئة على المطالبة بجميع الضرائب المجباه من ذلك الاقطاع • وقد ساند البابا كلستين الثالث الاسبتارية فى هذا المطلب ، فوافق على أن تكون هذه الحالة مؤقتة تنتهى بانتهاء خدمة الأسقف الاسبتارى (١) •

وتتيجة المنازعات المستمرة بين رجال الدين والهيئة ، استقر الرأى على أن تعتبر الهيئة بمثابة السيد الاقطاعى ، تمارس نفس حقوقه على أراضيها ، على أن تترك للكنيسة أملاكها القديمة قبل أن تصبح المرقب اقطاعا • كذلك قام بين الداوية وأسقف بانياس نزاعا حول ضرائب رفضت الداوية أن تدفعها للكنيسة ، فقد كان لهيئة الداوية مخبز وفندق وبعض الأملاك فى بانياس رفضت أن تدفع عوائدها للأسقف ، وقد انتهى هذا النزاع بأن اتفق الطرفان على اقتسام المبلغ فيما بينهما •

وباستمرار أدوار النزاع بين رجال الدين الكاثوليك والرهبان الفرسان بسبب حقد رجال الدين على تلك الثروة الضخمة التى انهالت على الداوية والاسبتارية ، فقد راح رجال الدين يعملون بكل الوسائل على تقديم الشكوى والاتهام ضد الهيئات لدى البابوية ، وعلى سبيل المثال ، فقد انتهز أسقف عكا فرصة أن قدم أمير انطاكية شكوى ضد الاسبتارية والداوية لدى البابوية متهما اياهم بالتضامن مع المسلمين والاسماعيلية ضده ، وراح هذا الأسقف باتهام هيئة الاسبتارية بأنها ازدادت ثراء فى المقاطعة التابعة الأسقفية عكا (٢) ، وذلك بسبب ذلك الامتياز الذى تمتعت به هيئة الاسبتارية وهو الاعفاء من دفع الضرائب ، وبذلك طغى دخلها على حساب الكنيسة ودخلها • كذلك اتهم الأسقف أفراد الاسبتارية بأن سلوكهم قد تغير ، وأنهم تخلوا عن نظامهم الأول ،

(١) Cahen. op. cit., P. 520.

(٢) King op. cit., p. 220.

كما أنهم ، أى الاسبتارية ، كانوا على صلات ودية مع الامبراطور البيزنطى حنا الثالث دوكاس (١٢٢٢ — ١٢٥٤) العدو اللدود للامبراطور اللاتينى الذى كان تحت رعاية البابوية • ويبدو أن أسقف عكا استطاع فعلا اثبات عدة اتهامات ضد هيئة الاسبتارية ، مما جعل البابوية تصدر مرسوما بتاريخ ١٣ مارس ١٢٣٨ ، توبخ فيه مقدم الاسبتارية وتحذره أنه ان لم يقم باصلاح داخل الهيئة خلال ثلاثة أشهر ، فان البابوية سوف ترسل أحد رجال الكنيسة للقيام بمهمة الاصلاح الشامل داخل هيئة الاسبتارية • واتصف المرسوم باللهجة الشديدة نحو مقدم الهيئة ، ويبدو أنه تم بعض الاصلاحات داخل الهيئة ، ذلك لأنه لم ترد فى المراجع شيئا بخصوص هذا الموضوع بعد هذا التاريخ (١) •

(ب) العلاقة بين هيئة الاسبتارية وهيئة الداوية :

اتصفت العلاقة بين هيئة الاسبتارية وهيئة الداوية فى بلاد الشام فى بداية الأمر بالتعاون والتضامن ، خاصة وأن كلا منهما قامت بخدمات متعددة للحجاج ، فقام فرسان الداوية بحراسة الحجاج المسيحيين على الطرق المؤدية الى بيت المقدس ، فى حين قام فرسان الاسبتارية برعاية المرضى والفقراء من الحجاج •

ولكن سرعان ما تطورت الأمور فى بلاد الشام ، وانقلبت الهيئتان الى منظمتين حربيتين كان لكل منهما دوره العسكرى ، وأثبت الفرسان الاسبتارية والداوية شجاعة كبيرة فى الحرب ضد المسلمين ، مما أدى الى أن انهالت الأموال والهبات عليهما ، حتى أصبحت كل منهما تمثل قوة سياسية وحربية كبيرة • وعندئذ بدأ التنافس يظهر بوضوح بين الهيئتين ، بل تطور الى صراع ومنازعات ، كان أغلبها بسبب امتلاك هيئة لأراضى دون الأخرى ، أو جباية أموال من جهة من الجهات • ورغم تلك المنازعات الا أن الهيئتين اتفقتا فى أوقات كثيرة ، خاصة فى حروبهما ضد المسلمين ، الا أن هذه الأدوار من العلاقات الودية لم تستمر كثيرا ، بل كان يشوبها التناقض والتنافر بين كل منهما فى كثير من الأحيان •

---

(١) King. op. ct., P. 221.

أما أدوار النزاع بين الاسبتارية والداوية ، فيبدو أنها بدأت فى عهد الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، اذ أصبحت الهيئتان فى عهده على درجة كبيرة من الثراء ، فقام التنافس بينهما ، حتى أن كلا منهما كانت تحاول الاحتفاظ بأملاكها على السهول الساحلية فى شمال الشام وآسيا الصغرى (١) ، مفضلين ذلك عن محاولة الاحتفاظ بأملاك الصليبيين عامة فى بلاد الشام ، حيث كان يقف على حدودها القائد الاسلامى صلاح الدين الأيوبى ، متأهبا لضرب الصليبيين ضربة قاضية (٢) •

وبنجاح المسلمين بقيادة صلاح الدين فى استرداد بيت المقدس ، انتقلت قيادة هيئة الاسبتارية الى عكا ، حيث أصبح لها فى تلك المدينة عدة منشآت • وقد بدأ النزاع بين الهيئتين فى عهد عمورى الثانى ، عندما ادعت الداوية حوالى عام ١٢٠٤ امتلاك بعض مناطق واقعة بين المرقب وبانياس (٣) ، والتى كانت ملكا لأحد أفصال هيئة الاسبتارية واسمه Séguin • وقد قامت الداوية بطرد الاسبتارى صاحب الاقطاع بالقوة ، واستولت على قصره ، وازاء ذلك ، قدم المجنى عليه شكواه لقائد قلعة المرقب الاسبتارى واسمه بيترد ديسكورى Peter d'Escurai ، الذى ثار عندما علم ما اقترفه الداوية تجاه أحد رعاياه ، فخرج بقوة من فرسانه واسترد القصر وأعاده لصاحبه الاسبتارى •

وكانت نتيجة هذا الحادث ، أن ظهر العداء بين أعضاء الهيئتين ، كما فقدوا جميعا السيطرة على أنفسهم ، وتناسوا عهودهم تجاه الهيئة واخوانهم فى الدين ، وراحوا يتقاتلون كلما التقوا ، وقد تطور هذا النزاع الفردى ، الى نزاع بين الهيئتين بشكل أكبر ، فانضم مختلف الطوائف الصليبية الى احدى الهيئتين ، حتى أوشكت بلاد الشام الصليبية الدخول فى حرب أهلية من جراء نزاع فردى ، وهو فى حقيقة الأمر تكملة لذلك النزاع قام فى تاريخ سابق بين هيئة الاسبتارية وأسقف

---

(١) Conder, op. cit., P. 130.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P.447.

(٣) King, op. cit., P. 171.

بانياس (١) ، حول بعض المتحصلات المالية ، ثم تطور الخلاف بين الهيئتين فظهر على الصورة التى سبق عرضها وهو خلاف بين هيئة الداوية وأحد أفصال هيئة الاسبتارية • ويذكر لنا المؤرخ كاود كاهن ، أن الصراع بين الهيئتين هو فى حقيقة الأمر صراع بين طرفين مستعمرين تصارعا على ممتلكات واحدة ، ومثال ذلك ما حدث من نزاع بين الاسبتارية والداوية بشأن امتلاك جبله •

وقد بدأ النزاع على جبله ، عندما منح ريموند — روبن الأمير المنافس لبوهيموند الرابع فى حكم انطاكية ، تلك المنطقة لهيئة الاسبتارية ، كما عهد بقيادتها لقائد قلعة المرقب الاسبتارى ، ولكن باسترداد بوهيموند الرابع انطاكية (٢) ، فقد أراد هذا الأمير الانتقام من الاسبتارية حلفاء منافسه ، فمنح منطقة جبله لهيئة الداوية المساندة له فى صراعه مع ريموند — روبن • وأخيرا تمت تسوية بشأن جبله عام ١٢٢١ ، على أن تقسم عوائد المنطقة بين الهيئتين بالتساوى • وجدير بالذكر أن ملكية جبله ، لم تكن كاملة للاسبتارية ، فقد كانت الهيئة تقتسمها مع المسلمين ، وفى عام ١٢٣١ دارت معارك طاحنة بين قائد قلعة المرقب الاسبتارى والمسلمين فى حلب ، تم بعدها توقيع معاهدة أصبحت بموجبها جبلة تابعة للاسبتارية • ولم يكن واضحا ما اذا كانت هيئة الداوية ضمن ذلك الاتفاق ، وأخيرا فى ١٨ يونيه ١٢٣٣ تم الاتفاق بين الهيئتين على أن تكون جبله قسمة بينهما ، على أن تكون كل من الاسبتارية والداوية ملتزمتين معا بكل ما يوقع من اتفاقيات مع حاكم حلب ، أما بالنسبة للأمير صهيون المسلم ، فان كل هيئة كانت لها حرية اختيار التعامل معه بالطريقة التى تراها (٣) •

وبذلك أصبح للداوية حق المرور فى الطريق من طرطوس الى جبله ، وهو طريق يسير قرب قلعة المرقب ، ولكن بغزو المغول للمنطقة فى منتصف

---

(١) Cahen, op. cit., P. 520.
Nouvel Encyclopedia Thèologique, Vol. 18, 1. 595.
انظر البحث ص ١١٠ •

(٢) Cahen, op. cit., P. 633.
أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٩١ •

(٣) King, op. cit., P. 213.

القرن الثالث عشر ، عادت جبله الى يد الصليبيين مرة أخرى ، وعندئذ دخلت الهيئتان مرة ثانية فى شقاق منذ عام ١٢٥٨ ، فكان لابد من وضع معاهدة جديدة لمحو أسباب النزاع ، فتنازلت الهيئتان عن أملاكهما فى المرقب ، فيما عدا بيت الداوية فى بانياس • ثم تم توقيع اتفاق آخر عام ١٢٦٧ لتوضيح حدود جبله الجديدة •

وتذكر لنا بعض المراجع أدوار أخرى من المنازعات بين الهيئتين الداوية والاسبتارية على مناطق كانت كل من الهيئتين تمتلك فيها طواحين Da'uq ، فقد كانت الداوية تمتلك طواحين Molendia بهدف استغلال مياه نهر عكا ، كذلك امتلكت الاسبتارية طواحين Kurdani فى قرية تحمل نفس الاسم • وقد وقع نزاع بين الداوية والاسبتارية عام ١٢٣٥ ، ذلك لأن الداوية كانت قد أقامت سدا عبر النهر لرفع منسوب المياه ، ثم وافقت البابوية للاسبتارية على اقامة سو آخر ، على شرط الا يزيد منسوب المياه عن درجة محددة ، حتى لا تهدد المياه الطواحين أو تفيض فتسبب أضرارا فى المنطقة المحيطة • وكان من شأن السد الذى أقامته الداوية ، أن يعوق مراكب الاسبتارية التى سارت فى النهر من عكا الى مكان الطواحين ، كذلك تعهدت الاسبتارية بعدم الاضرار بسد الداوية كما تعهدت بالقيام بعمل الاصلاحات اللازمة فى السد اذا ما تسببت مراكبهم فى أى اضرار به • وقد تعهد الطرفان على عدم اقامة أى منشآت أخرى عبر النهر • ولكن النزاع سرعان ما تجدد بين الهيئتين عام ١٢٦٢ بشأن مياه نهر عكا ، فقد اتهمت الاسبتارية هيئة الداوية برفع منسوب مياه النهر عن المنسوب المتفق عليه ، مما ترتب عليه صعوبة الملاحة فى النهر وحدوث أضرار فى طواحين الاسبتارية • وقد تبادل الطرفان الاتهامات ، فاتهمت الداوية الاسبتارية بحفر قناة لتحويل مجرى النهر الى مزارع القصب التابعة لهـا وبذلك قلت كمية الميـاه الواردة لطواحين الداوية مما جعلها تتوقف عن العمل • وقد استمر هذا النزاع بين الهيئتين ، حتى تدخل للفصـل فيه شخصيات صليبية هامة ، تم بعدها وضـع نوع من الاتفاق بين الطرفين (١) •

وبجانب تلك المنازعات التى حدثت بين الاسبتارية والداوية بخصوص أملاك أو حقوق أو امتيازات ، فان العداء بينهما اتخذ صورة أخرى وهو

(١) Benvenisti, op. cit., P. 250.

أن كل هيئة اتخذت خطا مخالفا للهيئة الأخرى ، وقد اتضح ذلك فى العلاقات الخارجية لكل من الهيئتين ، فانه كان يكفى أن تنحاز هيئة الى فئة معينة ، حتى تنحاز الهيئة الأخرى الى الفئة المضادة لها . وهناك أمثلة عديدة لتلك المنازعات والاختلافات التى وصلت الى حد القتال بين الداوية والاسبتارية ، مما أدى فى كثير من الأحيان الى احتمال وقوع حرب أهلية بين الصليبيين بسبب تنازع القوتين .

ومن تلك الأمثلة ، ذلك النزاع الذى قام بين فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية بعد سفر الأمير الانجليزى ريتشارد كورنول ، ذلك الأمير الذى رفض أن ينحاز لأى من الهيئتين فى نزاعهما الذى سبق مجيئه الى الشرق . وقد تطور النزاع بين الداوية والاسبتارية لدرجة أن الداوية قامت بمحاصرة بيت الاسبتارية فى عكا ، كما أنها رفضت الصلح مع مصر كما فعلت الاسبتارية ، بل ان الداوية عملت على تحطيم الاتفاقية التى تمت بين الاسبتارية ومصر (١) .

وقد تطور النزاع بين الهيئتين وشدة لتنافس بينهما ، لدرجة أن كلا منهما انحاز لحزب صليبى معاد للآخر ، وقد ظهر هذا بوضوح ، عندما وقفت كل هيئة فى جانب أحد الأطراف المتنازعة فى الصراع بين بارونات الشام بزعامة آل ابيلين وبين ريكارد فيلانجرى Ricardo Filanghieri مندوب الامبراطور فردريك الثانى ونائبه فى بلاد الشام (٢) . وقد أراد فيلا نجرى أن يبدأ نشاطه فى نشر نفوذ الامبراطور من عكا ، حيث انتشرت فى أنحائها اقطاعات آل يابلين أعرق عائلات الصليبيين بالشام . وكان اقطاع تورون Toron التابع لفيليب مونفور أحد أفراد أسرة ابيلين يجاوز مدينة عكا ، المكان الذى تواجد فيه مندوب الامبراطور . ويبدو أن فيلانجرى أراد أن يستغل النزاع الذى قام بين الداوية والامبراطور لتحقيق أهدافه (٣) ، فانضم الى جانب الاسبتارية ، التى سارت على نهج سياسة فردريك ، وهى التحالف مع مصر ، وبذلك وقفت الداوية ضد هذا الحزب ذلك لأنها فضلت التحالف مع دمشق مخالفة بذلك سياسة الاسبتارية . وبهذا انقسم الصليبيون الى حزبين

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, P. 396.

(٢) Ibid. Vol. III, p. 397.

(٣) ا.د. سعيد عاشور . الحركة الصليبية ، ح ٢ ، ص ١٠٤١ .

يساند كل منهما احدى الهيئتين ، فقد انحازت الاسبتارية بقيادة مقدمها بيير فيبريد Pierre de Vieillebride الى ريكاردو فيلانجرى ، وانضمت الداوية الى حزب آل ايبلين وبارونات الشام القدامى •

وفى عكا ، حدث أن اجتمع فيلانجرى والاسبتارية وبعض الصليبيين لتنسيق العمل بينهم ضد الحزب الآخر ، ولكن فيليب مونفور علم بما يدور فى بيت الاسبتارية وكشف المؤامرة ، مما جعل موقف الاسبتارية يبدو فى شكل المتآمر على مصالح البارونات لصالح الامبراطور الألمانى ، مما جعل الاسبتارية فى وضع سىء ، ذلك لأن المؤامرة كانت على وشك الاكتمال • وازاء ذلك قام باليان ايبلين الثالث سيد صور ، بمحاصرة بيت الاسبتارية لمدة ستة أشهر ، وكان مقدم الهيئة غائبا فى حصن المرقب (١) ، ولكن بقدومه الى عكا ، علم بما جرى ، فعمل على معاقبة فرسانه وتسوية الخلاف بين الطرفين وانتهى الأمر بانسحاب مندوب الامبراطور الى صور •

وهكذا نجد أن الاسبتارية والداوية استمروا فى منازعتهم ، حتى فى تلك الأوقات التى كان الصليبيون يواجهون فيها خطر المسلمين المتزايد ، وحتى فى تلك الأوقات الحرجة ، لم تنس الهيئتان خلافاتهما بل تطورت الى حد المعارك بينهما ، ثم حرب شاملة انتصر فيها الاسبتارية عام ١٢٥٩ ، حتى أن عددا كبيرا من الداوية لاقوا مصرعهم فى هذه المعركة ، كما أن مراكز الداوية بأوروبا كانت ترسل الرجال المحاربين لاحلال محل هؤلاء الذين قتلوا فى المعارك مع الاسبتارية (٢) •

(ج) علاقة الرهبان الفرسان بالقوى اسلامية :

تميزت العلاقة بين الرهبان الفرسان والمسلمين بالكراهية والعداء الشديد ، وكيف لا يكون ذلك ، وقد قامت هيئتا الاسبتارية والداوية أساسا لمحاربة المسلمين فى كل مكان ، واحتلوا بقاعا عزيزة وهامة من الأراضى الاسلامية العربية ، وبذلك فان الكراهية والعداء بين الطرفين انما كان شعورا متبادلا ظهر بوضوح فى مجالات عديدة خاصة فى بداية

---

(١) R.H.C., Rome II, Doc. Arm., P. 728.

(٢) Mills, op. cit., Vol. II, P. 309.

عهد الصليبيين بالشام ، حيث تميزت العلاقات بالعداء الشديد . وعندما استقر الصليبيون بالشــام ، لم يطمعوا فى أكثر من الاحتفاظ بما تبقى لديهم من الأراضى والاقطاعات خاصة بعد هزيمتهم فى حطين (١) ، ولذلك فقد بدأوا ينهجون منهج سياسة الدفاع عما بقى فى أيديهم ، كما راحوا يتعاملون مع المسلمين بأســلوب أكثر ودية وتعقلا (٢) ، فيما عدا بعض المواقف العدائية ظهرت من شخصيات صليبية عرفت بالتهور والاندفاع ، مثال ذلك الشخصية المتهورة لمقدم الداوية جيرار ريدفورت .

ورغم تلك الكراهية الشــديدة التى أحاطت العلاقات بين الرهبــان الفرسان بالقوى الاسلامية خلال تلك الحقبة الأولى من الوجود الصليبى ببلاد الشــام ، الا أنه كانت توجــد بعض العلاقات الودية الفردية بين الطرفين ، مثال ذلك تلك العلاقة الودية التى قامت بين الأمير أســامة ابن منقذ من سادات شيزر وفرسانها وأدبائها ، وبين فرسان الداوية ببيت المقدس . كما ذكرت بعض المراجع الأجنبية أن كثيرا من مقدمى الداوية والاسبتارية الذين عاشوا فى الشرق اتقنوا اللغة العربية مما جعلهم على صلة حسنة بجيرانهم المسلمين ، هذا أيضا جعل أفراد الهيئات يشتركون أحيانا فى التحكيم فى المعاهدات التى كانت تتم بين المسلمين والصليبيين ، بوصفهم محل ثقة الطرف الاسلامى . فقد نظر المسلمون أحيانا للرهبان الفرسان على أنهم رجال يوفون بعهودهم ، وعلى حد قول ابن الأثير « ان المسلمين كانوا يثقون بعهود الديوية وذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء » (٣) ، كما أن الباحث يرى أن بعض مقدمى الهيئات كانوا على علاقة طيبة بسلاطين المسلمين ، مثال ذلك تلك العلاقة الودية التى ربطت بين مقدم الداوية جيوم دى سوناك والسلطان الصالح نجم الدين أيوب أيام حملة لويس التاسع على مصر (٤) .

ويذكر المؤرخ كاهن Cahen (٥) ، أن بعض الكتاب الشرقيين ومنهم ميخائيل السريانى ، قد أحاطوا رجال الداوية بالقصص والأســاطير ،

---

(١) William of Tyre, op. cit., Vol. II, P. 447.

(٢) Longnon, op .cit., P. 115.

(٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢١٤ .

(٤) Ponsoye op. cit., P. 122.

(٥) Cahen, op. cit., P. 562.

كما راح ميخائيل السريانى يذكر أن الفاطميين فى مصر قد عجبوا بفرسان الداوية لدرجة أنهم فكروا فى انشاء فرقة من الشباب يدرب تدريبا عسكريا ممتازا مثل الداوية .

ويجدر بنا فى هذا المجال أن نذكر قصة الصداقة التى ربطت بين أسامة بن منقذ وفرسان الداوية ، فقد أظهر أسامة اعجابه الشديد بشجاعة فرسان الفرنج فى كتابه « كتاب الاعتبار » ، فقال : « الافرنج ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم منزلة عالية الا للفرسان ولا عندهم ناس الا الفرسان فهم أصحاب الرأى وهم أصحاب القضاء والحكم » (١) . وقد أعجب أسامة بفئة الفرسان وأبدى هذا الرأى فيهم ، خاصة بعد أن قام بتقديم شكواه للملك فولك ملك بيت المقدس سنة ١١٣١ ضد رينيه Renier صاحب بانياس ، الذى استولى على أغنام المسلمين ، ناقضا بذلك المعاهدة المعقودة بين الصليبيين والمسلمين وقتذاك ، وعندئذ أمر الملك فرسانه بالتشاور والحكم على صاحب بانياس ، فحكم عليه بالغرامة ، دفعها ذلك الاقطاعى الصليبى لأسامة بن منقذ . وقد أثر هذا الحادث فى نفس أسامة حتى أنه أعجب بالفرسان ، وصار صديقا لبعض فئات منهم وخاصة فرسان الداوية ، فقد ذكرهم فى كتابه بكلمة « أصدقائى » (٢) ، كما أن بعضا منهم كان يدعوه بكلمة « أخى » . ويذكر أسامة قصة ذلك الفارس الصليبى الذى ربطته صلة مودة وصداقة به لدرجة أن هذا الفارس الصليبى ، الذى لم يوضح ان كان داويا أم لا ، قد طلب من أسامة أن يصطحب معه ابنه الى الغرب ولكن أسامة لم يوافق واعتذر بلباقة وأدب (٣) . كما أورد أسامة فى كتابه ، أنه عندما زار بيت المقدس ، دخل المسجد الأقصى حيث اتخذت الداوية مقرها الأول فيه ، وقد جعلت الداوية لصديقهم أسامة مسجدا صغيرا بجوار المسجد الأقصى حتى يصلى فيه عندما يحضر للمدينة المقدسة ، ويستكمل أسامة قوله فيذكر أنه عندما كان يصلى ، هجم عليه أحد الفرنج ليرد وجهه نحو الشرق ، ولكن الداوية أبعدوه عن أسامة واعتذروا له ، وقد كرر الفرنجى مهاجمته لأسامة أثناء صلاته أكثر من مرة

---

(١) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

وكانت الداوية ترده فى كل من هذه المرات ، وقد اعتذر رجال الهيئة لأسامة عن تصرف هذا الرجل ، بأنه قد وفد حديثا من الغرب ولا يعرف كيف يصلى المسلمون .

وقد وردت هذه القصة فى معظم المراجع العربية والأجنبية بشكل مطابق فى التفاصيل والوقائع ، ولكن من الواضح أن تلك العلاقة الودية لم تكن سائدة بين الهيئات والمسلمين ، وانما تعتبر علاقة أسامة بن منقذ بالداوية علاقة شاذة الى حد ما وسط علاقة يسودها العداء والكراهية الشديدة بين الطرفين . مثال ذلك أن العلاقة بين الهيئتين وبين أمراء حماه وحمص وحلب ، كانت علاقات غير ودية على الاطلاق ، فقد دارت الحروب الطاحنة بين الاسبتارية والداوية وبين المدن الاسلامية الثلاث . فيذكر لنا ابن واصل (١) أمثلة عديدة لمعارك دارت بين الملك المنصور صاحب حماه وفرسان حصن الأكراد والاسبتارية سنة ٥٩٩ هـ — ١٢٠٤ م ، حتى أن الاسبتارية طلبت من الداوية أن تتوسط لها لدى الملك المنصور لاقامة الصلح بينه وبين الاسبتارية ولكن المنصور رفض ، وكان مقدم الاسبتارية حينذاك هو جيرين Guèrin ، الذى عمل على تسوية العلاقات بين الهيئة وصاحب حماه ، ذلك لأنه منذ أن امتلكت الهيئة حصن الأكراد عام ١١٤٢ فان الاسبتارية أجبرت حاكم حماه على دفع اتاوة مقابل عدم الاغارة على أراضية (٢) . ولكنه حدث فى عام ١٢٢٩ خلاف حول تحصيل الاتاوة ، خاصة عندما أغار قائد حصن المرقب الاسبتارى على بعرين ونهب المدينة ، وازاء هذا الاعتداء ، رفض أمير حماه المظفر محمود عام ١٢٣٠ دفع الاتاوة للاسبتارية ، فقامت الداوية بالتعاون مع الاسبتارية بحملة ضد حماه ، ولكن المسلمين أحرزوا نصرا رائعا ، وعاد أفراد الهيئات الى قلاعهم فى أسوأ حال .

وبعد ثلاث سنوات (سنة ١٢٣٣ م) قام مقدم الاسبتارية جيرين بحملة جديدة ضد حماه ، ساعده فيها الداوية وفرسان قبرص وانطاكية ، وانتصر

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٣ — ١٦٢ .

(٢) Grousset, op. cit., Vol. III, P. 180.
King, op. cit., P. 214.

الصليبيون بعد حرب استمرت ثمانية أيام ورضخ المظفر محمود الى دفع الاتاوة ، خاصة وأن السلطان الكامل الأيوبى فى مصر والملك الأشرف موسى فى دمشق فضلا مهادنة الصليبيين ، ليتفرغا لمحاربة سلاجقة الروم ، فقد أرسل الكامل ابن أخيه ملك حماه لدفع الاتاوة للاسبتارية ، فى حين صارت قواته شمالا الى قونيه (١) •

أما علاقة الرهبان الفرسان بمدينة حمص الاسلامية فانها لم تكن أحسن ، فقد هاجمت الاسبتارية حمص عدة مرات عام ١٢٠٧ (٦٠٣ هـ) من حصن الأكراد ، ورغم أن السلطان العادل قد رد على هذا الاعتداء بحملة تأديبية استولى فيها على قلعة اعناز Anas (٢ كم جنوب حصن الاكراد) وأسر حاميتها ، الا أن العداء ظل مستمرا بين الاسبتارية وحمص ، فقد أورد أبو شامة ذكر حملتين ضد حمص : جرت الحملة الأولى عام ١٢٠٦ م (٦٠٣ هـ) والثانية عام ١٢٠٨ م (٦٠٥ هـ) ، ولكن يبدو أن أميرها الأيوبى مجاهد الدين شيركوه استطاع الدفاع عن مدينة حمص ضد اغارات الاسبتارية •

ولم تختلف العلاقة بين الهيئات ومدينة حلب عن تلك العلاقة التى ربطت بينهم وبين حمص وحماه ، فقد أراد مقدم الداوية برتراند دى كومب أن يعمل على استرداد قلعة دربساك من الحلبيين ، منتهزا فرصة وفاة الملك العزيز حاكم حلب ، تلك القلعة التى كانت تسد الطريق بين انطاكية وقلعة الداوية المشهورة بغراس • وعندما هاجم الداوية التركمان على بحيرة انطاكية ، قام الحلبيون بمحاصرة بغراس ، فجاء لنجدتها بوهيموند الخامس وقام برسبتور الداوية انطاكية واسمه وليم مونفرات بحملة مفاجئة على قلعة دربساك (٢) • ولكن الحلبيين كانوا مستعدين لهذا القتال ، فانتصروا على الداوية انتصارا كاملا وكبدوهم خسائر فادحة ، ولذلك يقول أبو الفدا « وعاد عسكر حلب بالأسرى ورءوس الفرنج وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع » (٣) • ورغم هذا النصر

---

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 180.

(٢) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 208.

(٣) أبو الفدا ، تاريخ أبو الفدا ، أحداث سنة ٦٣٤ هـ •

الذى أحرزه المسلمون ، الا أنهم قبلوا تجديد المعاهدة مع الداوية كذلك قبلوا تسليم أسراهم فى مقابل أموال ضخمة .

وبجانب تلك العلاقة الغير ودية مع المدن الاسلامية الثلاث : حماة وحمص وحلب ، فان علاقة الهيئات بكل من القاهرة ودمشق اتخذت طريقا مخالفا ، فقد تميزت السياسة الخارجية للداوية والاسبتارية نحو تلك المدينتين بالسلم ، خاصـة فى أواخر القرن الثالث عشر ، فى حين كانت العلاقات تتسم بالعداء الشديد فى القرن الثانى عشر ، على نحو ما رأينا فى الفصل الثانى من هذه الرسالة عند دراسة دور الفرسـان الرهبان فى حصار دمشق سنة ١١٤٨ ، ودورهم فى حروب الصليبيين ضد مصر .

أما فترات السلم بين هيئات الفرسـان وكل من دمشق والقاهرة فى القرن الثالث عشر ، فكان مرجعه فى معظم الأحوال الى أحداث ، أو النزاع بين القاهرة ودمشق ، وفى هذه الأحوال ، انحازت كل هيئة الى احدى المدينتين الاسلاميتين الكبيرتين فى بعض الأحيان . ومما يدل على ذلك ، أنه عندما حدث نزاع بين السلطان الصالح نجم الدين أيوب وعمه الصالح اسماعيل سلطان دمشق ، عمل على الدخول فى مفاوضات مع الصليبيين ضد مصر (١) ، ولكن الصـليبيين فى تلك الفترة لم تكن لديهم الزعامة التى يمكنها تمثيلهم فى التفاوض مع الصالح اسماعيل ، ولذلك فقـد انتهزت الداوية الفرصة وأبرمت اتفاقها مع الصالح اسماعيل (٢) ، فقـام بتسلم الشقيف أرنون وصفد . أما هيئة الاسبتارية فى تلك الأثناء فقد كانت بقيادة ولم دى سنليس William de Senlis (٣) ، فرفض هذا المقدم الاسبتارى التحالف مع دمشق ، بل راح يعمل الترتيبات للتحالف مع الصالح أيوب سلطان مصر ، ذلك لأن الاسبتارية كانت تعتقـد أن سلطان مصر سوف يستولى على دمشق ، وبذلك يتم لها استرداد أسرى الاسبتارية ، ومن بينهم مقدم هيئتهم ، والذين وقعوا فى قبضة المسلمين فى موقعة غزة . ويبدو أن المباحثات بين الاسبتارية والسلطان الصالح نجم

(١) أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٣٧ .
(٢) Conder, op. cit., p. 315.
(٣) King, op. cit., p. 223.

الدين أيوب دارت فى سرية تامة (١) ، وساند الاسبتارية فى تحالفها مع مصر ملك نافار وأغلبية الجيش الصليبى . وسرعان ما وصل الى الشام أحد الأمراء الانجليز الأقوياء ، وهو ريتشارد أوف كورنول Richard of Cornwall (أخو هنرى الثالث ملك انجلترا وصهر فردريك الثانى) (٢) ، وقد عملت كل من الهيئتين على اكتساب الأمير الى جانب أحدهم فى مسألة التحالف مع المدينتين الاسلاميتين الكبيرتين . ولكن الأمير الانجليزى رفض الدخول فى هذه الخلافات ، ووجه جهوده الى اعادة تحصين عسقلان ، وهذا كان فى مصلحة التحالف بين الداوية ودمشق ، لأنه بذلك أمن الصليبيين فى الشام من أى هجوم مصرى .

وجدير بالذكر أن الأمير الانجليزى ، أقام أثناء وجوده بالشرق فى بيت الاسبتارية بعكا (٣) ، ولم يفت ريتشارد أوف كورنول أن يبعث برسالة الى الغرب يذكر فيها تلك الفوضى التى عمت الشام الصليبى ، كما ذكر أن هيئات الرهبان الفرسان ، التى تأسست أصلا للدفاع عن الأراضى المقدسة ، أصبحت هى الأخرى فى حالة فوضى ، بسبب تلك العجرفة التى انتابت أفرادها والثروات الضخمة التى أحرزوها (٤) .

وفى ٨ فبراير ١٢٤١ ، عقدت معاهدة بين ريتشارد أوف كورنول وسلطان مصر الصالح أيوب ، اعترف فيها السلطان الأيوبى بحق الصليبيين فى شقيف أرنون والجليل وبيت المقدس وبيت لحم ومجدل يابا وعسقلان ، كما تم تسليم أسرى معركة غزة وبذلك تحقق لكل من الداوية والاسبتارية ما أرادوه من المسلمين ، رغم وجود خلافات كبيرة فى سياستهم الخارجية نحو مصر ودمشق . ورغم تلك المعاهدة التى شملت الصليبيين جميعا ، الا أن الداوية أصرت على الحفاظ بتحالفها مع دمشق ، رغم عداء الصالح اسماعيل للسلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وقد كان معنى ذلك أن الداوية كانت تعتبر نفسها فى حالة حرب مع مصر ، فى حين كانت الاسبتارية تحترم معاهدة السلام مع مصر . وتسلمت الاسبتارية أسراها

---

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 390.

(٢) Bréhier, op. cit., p. 207.

(٣) R.H.C., Tome II, Chiprois, p. 728.

(٤) Grousset, op. cit, Vol. III, p. 393.

ومنهم مقدمها بيرفيبريد ، أما الداوية فانه بسبب موقفها العدائى هذا ، فانه لم يعهد اليها بحماية عسقلان ، بل تم تسليمها الى مندوب الامبراطور ، الذى سلمها بدوره الى هيئة الاسبتارية بعد ذلك بعامين .

وبعد أن اطمأن ريتشارد أوف كورنول الى أن الطرف الاسلامى قد نفذ شروط المعاهدة ، رحل الى بلاده وأعقب سفره عداء سافر بين الهيئتين وصل الى حد أن الداوية قامت بحصار بيت الاسبتارية فى عكا ، كما منعت دخول المؤن اليه . ولم تقف الداوية عند هذا الحد ، بل عاملت هيئة التيوتون بنفس الطريقة العدائية السافرة . وعملت الداوية على افساد الاتفاقية المبرمة مع مصر (١) ، فاعتدوا على المسلمين فى منطقة الجليل ، ولما أراد الناصر داوود صاحب الكرك التضييق عليهم ، قامت الداوية بالانتقام من أهل نابلس عام ١٢٤٢ ، وعندئذ أرسل سلطان مصر جيشا لمعاونة قوات الناصر داوود فى الهجوم على يافا ، ولكن الصليبيين تراجعوا وعادت قوات السلطان الأيوبى الى مصر (٢) .

وعندما تحالف الصالح اسماعيل مع صاحب الكرك الناصر داوود ضد سلطان مصر ، أدخل الصالح اسماعيل الصليبيين فى ذلك الحلف مقابل شروط مغرية منها الاستيلاء على الحرم الشريف وقبة الصخرة ، وانتهت بذلك سياسة التحالف التى طالما اتبعتها الاسبتارية مع مصر ، وانتصرت الداوية فى سياستها ، خاصة عندما استولت الهيئة على المسجد الأقصى ، مما أزعج الصالح أيوب ، الذى أرسل فى طلب الخوارزمية سنة ١٢٤٤ (٣) . وقدمت جحافل الخوارزمية نحو الشام ، فدمروا ما وجدوه فى طريقهم حتى بيت المقدس ، ثم ساروا بعد ذلك للانضمام لحلفائهم المصريين .

وعند غزة ، دارت معركة طاحنة فى ١٧ أكتوبر ١٢٤٤ (٤) ، بين جيوش دمشق والكرك والصليبيين من جهة وبين جيوش الخوارزمية والمصريين

---

(١) King, op. cit., p. 224.
(٢) أ.د سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٤١ .
(٣) Conder, op. cit., p. 315.
(٤) Archer, op. cit., p. 389.

من جهة أخرى • واقتصر الصالح أيوب والخوارزمية على أعدائهم ، ولم ينج من المعركة سوى عدد قليل من الداوية والاسبتارية • واسترد الصالح أيوب طبرية ثم عسقلان التى دافع عنها الاسبتارية بقوة حتى سلمت فى ١٥ أكتوبر ١٢٤٧ ، ثم استولى على صفد من الداوية ، كما استرد الصالح أيوب بيت المقدس (١) •

(د) العلاقة بين الرهبان الفرسان والاسماعيلية :

امتلكت طائفة الاسماعيلية عدة قلاع هامة بالشام ، تركز معظمها على حدود امارتى طرابلس وانطاكية فى الشمال ، وقد فصل بين قلاع الاسماعيلية وقلاع الصليبيين شريط ضيق ضم قلاع الداوية والاسبتارية ، وأهم تلك القلاع : المرقب وبانياس وجبله ، وهى قلاع تميزت بالصلابة والقوة ، حتى استطاع أصحابها من فرسان الهيئتين أن يسيطروا على المنطقة المحيطة كلها • وقد أراد شيخ الجبل رشيد الدين سنان زعيم الاسماعيلية ، أن يتقرب الى الصليبيين ضد الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر ، فقام تحالف بين الصليبيين والاسماعيلية حيث اتفق على أن تدفع الاسماعيلية للداوية مبلغ ٢٠٠٠ بيزنت سنويا ضمانا لهذا التحالف •

وتذكر لنا المراجع الأجنبية ذلك الاستقبال الطيب الذى استقبله الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس لرسل الاسماعيلية ، حيث تم الاتفاق على التحالف المذكور ، ذلك لأن عمورى أيضا حرص على ايجاد علاقة حسنة بهؤلاء المسلمين ، فوجد فيهم سندا قويا فى سياسته ضد مصر ، وخاصة بعد أن علم ما لدى الاسماعيلية من امكانيات ضخمة فى الرجال ذوى الكفاءات العالية (٢) • ورغم ما عرف عن عمورى من بخل شديد ، الا أنه أبدى استعدادا لدفع الاتارة السنوية التى اتفق على أن يدفعها الاسماعيلية لطائفة الداوية • ولكن يبدو أن الداوية من جانبها لم ترض عن ذلك ، خوفا أن ينقص ذلك من دخل الداوية •

ويذكر لنا المؤرخ وليم الصورى ، أن شيخ الجبل الذى حرص على التقرب من الصليبيين كان قد أرسل أحد رجاله واسمه عبد الله أى Boaldelle ، محملا بعروض سرية أهمها أنه لو تنازلت الداوية عن ذلك

---

(١) King, op. cit., p. 240.

(٢) Grousset, op. cit., Vol. II, p. 599.

المبلغ الذى تتقاضاه من الطائفة ، فان الاسماعيلية على استعداد تام لاعتناق الديانة المسيحية (١) • ورغم هذا العرض السخى الغريب ، الا أن الداوية عملت على افساد مشروع التحالف الذى سوف يحرمها من دخلها السنوى الضخم ، فقام أحد أفراد الهيئة واسمه جويته دى مسنيل ، بقتل رسول الاسماعيلية ، أثناء عودته الى بلاده محملا برد الملك الصليبى فيما يخص العلاقات بين الطرفين (٢) • وعندما علم عمورى ملك بيت المقدس بما حدث ، استاء أشد الاستياء وعقد مجلسا مع باروناته لبحث هذه المشكلة ، فانتهى المجلس الي اختيار مندوبين لارسالهما الى مقدم الداوية ، لكي يقدم للملك تفسيرا لما حدث ، ولطلب احضار القاتل فى الحال • ولكن مقدم الداوية أود دى سانت آمون رفض تقديم القاتل ، وأعلن أمام الملك والبارونات أنه سوف يقوم بمعاقبة القاتل بنفسه (٣) ، وأن الحادث سوف يبلغ للبابوية فى روما حيث يقدم القاتل للمحاكمة ، كما طلب المقدم من المجلس ألا يتعرض أحد للداوى المذنب • ولم يحتمل عموري الأول ذلك السلوك الاستقلالى الجرىء من جانب الداوية ومقدمها ، فخرج علي الفور الى صيدا حيث مقر مقدم الداوية ، وقام مع فرسانه بمهاجمة المكان ، وتم اعتقال القاتل بالقوة وأمر الملك بالقائه فى سجن صور • وهكذا استطاع عمورى أن يسيطر علي الموقف ، ويبرهن لشيخ الجبل حسن نواياه تجاهه ، ويظهر له أنه اتخذ موقفا جازما تجاه قاتل رسول الاسماعيلية • ومن هذا الحادث تظهر لنا عدة نواحى ، يهمنا منها ، أن الاسماعيلية كانت تخضع للداوية وتدفع لها أتاوة سنوية رفضت الهيئة التنازل عنها ، حتى في مقابل ايجاد علاقات سياسية طيبة بين ملك بيت المقدس والمسلمين ، كما يتبين لنا من هذا الحادث الاستقلال الذي أصبحت فيه الهيئات ، ولكن بعض ملوك بيت المقدس استطاعوا أن يسيطروا علي جماح هؤلاء الفرسان كما يتضح من رد فعل الملك عمورى واتخاذه ذلك الاجراء الحازم تجاه الهيئة ومقدمها (٤) •

---

(١) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 391.

(٢) Grousset, op. cit., Vol. II, p. 599.

Dumesil, op. cit., col. 971.

(٣) Archer, op. cit., p. 246.

(٤) Michaud, op. cit., Vol. II, p. 261.

ورغم أن الاسماعيلية تقاضت الأتاوات من مختلف الجوانب الاسلامية والصليبية ، الا أن هذه الطائفة القوية خضعت للداوية والاسبتارية ودفعت لها اتاوة سنوية ، وقد حدث سنة ١٢٣٧ ، أن داعي دعاة الاسماعيلية مجد الدين ، استقبل سفراء الامبراطور فردريك الثاني الذي وفد بالهدايا الى شيخ الجبل ، وطالبت الاسبتارية والداوية بالأتاوة المفروضة على الاسماعيلية بعد رحيل بعثة الامبراطور فردريك الثاني ، ولكن الاسماعيلية رفضت هذه المرة دفع المبلغ ، بحجة أن الامبراطور نفسه دفع الاتاوة وقدم الهدايا للاسماعيلية ، فكيف تدفع الاسماعيلية الاتاوة للداوية والاسبتارية • وازاء هذا الرفض ، قامت الاسبتارية بشن هجوم على مناطق الاسماعيلية وغنمت غنائم ضخمة • ويستفسر المؤرخ برنارد لويس (١) ، عما اذا كانت الاتاوة على الاسماعيلية قد فرضت منذ هذا التاريخ أم أنها كانت موجودة من قبل ، ولكن من الثابت أن تلك الجزية كانت مفروضة على الطائفة منذ عهد عمورى الأول بدليل قصة اعتداء الداوية على رسول الاسماعيلية التى وردت بالتفصيل فى كتابات المؤرخ وليم الصوري •

ويبدو أن فرسان الداوية والاسبتارية الذين أحكموا السيطرة على قلاع الاسماعيلية ، قد أرادوا طوال عهدهم بالشام الاحتفاظ بذلك المصدر المالى المتمثل فى الأتاوة السنوية ، حتى أنه حدث أثناء وجود الملك لويس التاسع فى عكا ، أن جاء رسول من جانب الاسماعيلية ، يوجه فيه تهديد الاسماعيلية للصليبيين ، ويطلب من الملك لويس دفع الاتاوة للاسماعيلية كما يدفعها امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك المجر وسلطان مصر ، وقدم الرسول عرضا آخر على الملك الفرنسى ، وهو أنه فى حالة عدم قبول دفع الاتاوة ، فعليه أن يطلب من الداوية والاسبتارية التنازل عن المال الذي تتقاضاه الهيئتان من الاسماعيلية سنويا (٢) •

ويبدو أن شيخ الجبل كان يخشى فرسان الداوية والاسبتارية ، وكان يعلم تماما أنه اذا عمل على قتل أحد مقدميهم ، فان آخرا سوف

---

(١) برنارد لويس ، الدعوة الاسماعيلية ، ترجمة سهيل زكار ، ص ١٣٧ •

(٢) Joinville, op. cit., p. 248.

يحل محله ، ولذلك لم يفكر شيخ الجبل فى اضاعة مجهوداته ، وأخذ يتقرب للملك الفرنسى لويس التاسع • وكان مقدم الداوية حينذاك هو رينو دى فيشيه ، أما مقدم الاسبتارية فكان جيوم دى شاتونوف (١) ، اللذان كانا فى صحبة الملك عند قدوم رسول الاسماعيلية للمرة الثانية ، فطلب الملك من الرسول أن يكرر رسالته فى حضور المقدمين • وعندئذ طلب منه المقدمين باللغة العربية ، أن يحضر اليهما فى اليوم التالى بمقر هيئة الاسبتارية ، ولما حضر الاسماعيلى ، عنفه الاسبتارية على أسلوبه فى مخاطبة الملك ، وتهديده له ، وطلبوا منه أن يعود بعد أسبوعين ومعه بعض الهدايا للملك لويس • وبالفعل قام الرسول بما طلب منه مقدمى الداوية والاسبتارية ، اذ عاد بعد المدة المحددة بالهدايا ، وقد رد لويس التاسع على شيخ الجبل بالهدايا القيمة ، أرسلها مع أحد فرسانه الذين يجيدون اللغة العربية (٢) • وهكذا نجح مقدموا الداوية والاسبتارية فى تهديد رسل الاسماعيلية واقناعهم بتقديم الهدايا للملك ، والرغبة الصادقة فى التعاون مع الاسماعيلية ضد المماليك •

وقد حرصت بعض المراجع الأجنبية الحديثة (٣) ، على بحث أوجه التشابه بين هيئة الداوية الصليبية وطائفة الاسماعيلية ، فقد ذكرت هذه المراجع أن الجماعتين ، رغم انتماء كل منهما الى ديانة مختلفة ، الا أن كليهما قام لتنفيذ أهداف معينة لها طابع جرىء ، كما أن كل منهما اتخذت اسما وهو « حماة الأراضى المقدسة » ، وكان هدف كل منهما الجهاد الدينى ، مع فارق الهدف والاختلاف فى الوسائل • كذلك فان كلا من الداوية والاسماعيلية كانت لها تنظيمات عسكرية دقيقة فتأثرت كل منهما بالأخرى فى النواحى التنظيمية وربما العقائدية (٤) •

ولا نستطيع أن نجزم بصحة أو خطأ آراء هؤلاء الكتاب الغربيين ، رغم وجود بعض التشابه فى نظم الاسماعيلية وهيئات الرهبان ، وربما حدث هذا عن طريق المصادفة ، لأننا نعلم أن كلا من الاسماعيلية والرهبان

---

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 517.

(٢) Joinville, op. cit., p. 249

برنارد لويس ، الدعوة الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ •

(٣) Ponsoye, op. cit., p. 125.

(٤) Ollivier, op. cit., p. 63.

الفرسان نشئوا فى ظروف تختلف تماما عن الأخرى ، وعلى أساس عقائدى مختلف ، كما قامت كل طائفة فى أماكن تبعد الواحدة عن الأخرى آلاف الأميال .

(هـ) علاقة الرهبان الفرسان بملوك بيت المقدس وملوك الغرب :

تطورت العلاقة بين الاسبتارية والداوية وبين ملوك بيت المقدس على طول تاريخهم ببلاد الشام ، ففى عهد ملوك بيت المقدس الأوائل ، خضع الرهبان الفرسان لسلطة الملك ، بسبب ضعف تلك الهيئات كقوة اقطاعية وعسكرية أولا ، وثانيا نتيجة قوة وسيطرة هؤلاء الملوك الأوائل على أفصالهم وعلى أفراد الهيئات العسكرية جميعا . وعلى سبيل المثال ، عندما عانى الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس من عصيان هيئة الداوية فى عهد مقدمها برتراند دى بلانكفورت ، عندما قامت الداوية بتسليم قلعة La grotte لأسد الدين شيركوه سنة ١١٦٧ ، فأمر الملك بشنق اثنى عشر من فرسان الداوية بتهمة الاهمال فى الدفاع عن تلك القلعة المنيعة (١) . وعندما قتل أحد أفراد الداوية رسول الاسماعيلية عام ١١٧٣ ، هرع الملك عمورى الأول الى صيدا حيث ألقى القبض على القاتل وزج به فى أحد السجون بها ، رغم معارضة مقدم الداوية الذى أراد محاكمة القاتل بنفسه أو ارساله الى روما ليحاكم هناك (٢) .

ويبدو أن الملك عمورى الأول استطاع السيطرة على هيئة الداوية ، رغم عصيانها الذى أظهرته فى عهده فى بعض الأحيان . أما علاقة عمورى الأول بهيئة الاسبتارية ، فقد تميزت بالود والتعاون ، وظهر ذلك واضحا فى تلك المساندة الفعالة التى ساندتها الاسبتارية لهذا الملك فى حملاته المتتالية على مصر (٣) ، رغم أنه كان واضحا أن الاسبتارية كانت هى الأخرى لها أطماع اقليمية ورغبة حقيقية فى الفوز بالغنائم من ثروات مصر .

وعندما ضعف شأن ملوك بيت المقدس وأصبحت الهيئات العسكرية قوة عسكرية واقطاعية لها وزن فى المجتمع الصليبى ، راحت فرق الرهبان

---

(١) Michaud, op. cit., Vol. II, p. 261.
(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 394.
(٣) Richard, op. cit., p. 110.

الفرسان فى ممارسة الضغط على ملوك بيت المقدس ، بدأ هذا الضغط فى عهد الملك بلدوين الرابع (١١٧٣ — ١١٨٥) ، فقد ساعدت الظروف الداوية والاسبتارية فى اخضاع هذا الملك لرغباتهم نتيجة مرضه (١) ، وهجمات صلاح الدين المتتالية ضد الصليبيين فى بلاد الشام (٢) • فقد نجحت هيئة لداوية فى اقناع بلدوين الرابع واخضاعه لرغبتها فى بناء قلعة جسر بنات يعقوب ، منافيا الهدنة التى بين الصليبيين والمسلمين ، مما كان له أسوأ الأثر على الصليبيين (٣) •

وفى أواخر عهد بلدوين الرابع ، لعبت الهيئتان الاسبتارية والداوية ، دورا واضحا فى ذلك الانقسام الذى ظهر بين مختلف فئات الصليبيين (٤) • وقد انقسم الصليبيون أواخر عهد بلدوين الرابع الى حزبين كبيرين : الأول مكون من البارونات الأوروبيين الوافدين حديثا من الغرب والداوية ، وقد ساند هذا الحزب جاى لوزجنان زوج الأميرة سيبل ، أخت الملك بلدوين الرابع ووريثة مملكة بيت المقدس ، أما الحزب الثانى فقد شمل البارونات المخليين بزعامة ريموند الثالث أمير طرابلس • وقد أظهر الحزب الثانى اعتدالا فى سياسته تجاه المسلمين ، والرغبة فى الاحتفاظ بما للصليبيين من أملاك وأراضى بالشام • وقد انضم الى هذا الحزب المعتدل ، هيئة الاسبتارية ، التى كان يكفيها أن تنضم لأى حزب معاد لهيئة الداوية (٥) ، كذلك أدرك هذا الحزب تماما قلة الموارد البشرية والمالية لدى الصليبيين بالمقارنة لتلك الموارد البشرية والمادية الهائلة التى كانت للمسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى • وقد أبدى الحزب بزعامة ريموند الثالث رأيه ،ويتلخص فى أنه على الصليبيين التريث فى مهاجمة المسلمين على الأقل لحين وصول الامدادات من الغرب • وقد عقد مجلسا فى عكا عام ١١٨٤ بحضور الملك بلدوين الرابع (٦) ، قام فيه مقدم الاسبتارية روجيه مولين ، ومقدم الداوية أرنولد دى توروج بالتوسط لدى الملك ، لفض النزاع الذى بينه وبين زوج أخته جاى لوزجنان ، ولكن الملك رفض

(١) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 446.
(٢) Prawer, op. cit., Vol. I, p. 563.
(٣) Richard, op. cit., p. 110.
(٤) King, op. cit., p. 113.
(٥) Duggan, The Story of the Crusades, p. 139.
(٦) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 446.

الصلح ، وأعلن ريموند الثالث أمير طرابلس وصيا على الملك الطفل بلدوين الخامس (١) • كما عهد الى الداوية والاسبتارية بحراسة جميع القلاع والقصور الملكية ، كما اتفق فى المجلس ذاته على ارسال البطريرك ومقدمى الداوية والاسبتارية الى بلاط هنرى الثانى ملك انجلترا لطلب المعونة (٢) • وقد توفى مقدم الداوية وهو فى طريقه الى انجلترا ، وانتخب مقدما للهيئة ، فارسا فلمنكيا اسمه جيرار ريدفورت ، ذلك الفارس الذى تسبب فى أكبر كارثة لاقاها الصليبيون على يد صلاح الدين (٣) •

وبوفاة بلدوين الرابع سنة ١١٨٦ ، تولى بلدوين الخامس العرش بوصاية ريموند الثالث ، ولكن سرعان ما توفى بلدوين الخامس ، وظهرت مشكلة شغل عرش بيت المقدس ، فظهر النزاع بين الحزبين الصليبيين الكبيرين ، وقد عمل جيرار مقدم الداوية على تحريك هذه القلاقل بسبب الكراهية الشديدة التى حملها لريموند الثالث أمير طرابلس ، لذلك عمل جيرار بمساعدة بطريرك بيت المقدس على تتويج سيبل ملكة على بيت المقدس وزوجها جاى لوزجنان ملكا عليه ، افسادا لخطة ريموند (٤) • وجدير بالذكر أن مقدم الاسبتارية روجيه مولين كان معارضا لموقف جيرار تماما •

وبدأ جيرار يسيطر على جاى لوزجنان ملك بيت المقدس الجديد ، الذى كان يشعر دائما بأنه يدين بعرشه لمساندة الداوية ، كما أن هدف جيرار الأول كان التخلص من ريموند أمير طرابلس واظهاره فى ثوب الخائن للصليبيين المتضامن مع المسلمين وسلطانهم صلاح الدين الأيوبى ، كما سبق شرحه فى الفصل الثانى من هذه الرسالة •

وكيفما كان الأمر ، فحتى بعد واقعة حطين ، استمرت العلاقة بين الهيئات وملوك بيت المقدس تختلف من ملك لآخر ، ومن مقدم هيئة لآخر ، فتارة تساند هيئة منهما الملك وتارة تعصاه ، أو ربما تساند

---

(١) Runciman, op. cit., Vol. II, p. 443.

(٢) King, op. cit., p. 116
Dumesil, op. cit., ool. 971.

(٣) Pernoud, The Crusades, p. 151.

(٤) Brehier, op. cit., p. 112,

الهيئة ملكا على حساب آخر أو لمجرد اظهار العداء للهيئة الأخرى ، ومثال ذلك موقف الهيئتين فى ذلك الصراع بين جاى لوزجنان وكونراد مونفرات أمام عكا ، أثناء حصار الصليبيين لها (١) • وقد تصارعت الشخصيتان الصليبيتان على عرش بيت المقدس ، فانقسم الصليبيون حزبين يساند كل منهما أحدى الشخصيتين ، كما قامت كل هيئة تساند احداهما • ومما زاد الأمور تعقيدا بخصوص مسألة توليه العرش ، أن الملكة سيبل ، توفيت أمام عكا مما جعل جاى لوزجنان يفقد أحقيته فى العرش • وبوصول ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس الى الشام ، قام كل منهما بمساندة أحد المتصارعين على عرش بيت المقدس فساند ريتشارد حزب جاى لوزجنان ذلك لأن عائلة لوزجنان من أفصال البيت الحاكم الانجليزى ، أما الداوية وقد مات مقدمها جيرار أمام عكا سنة ١١٨٩ (٢) ، وتولى منصب المقدم داوى باسم روبرت سابليه (٣) ، كان فصلا لريتشارد قلب الأسد ، لذلك تبعت هيئة الداوية مقدمها فى مساندة جاى لوزجنان • أما كونراد فقد سانده بارونات الشام القدامى وطبقة الأفراخ ، فقد رأوا فيه الرجل الكفء الذى أظهر براعة أثناء حصار صور ، مما جعلهم يفضلونه عن جاى لوزجنان بعد أن ثبت فشله فى قيادة الصليبيين ، وساند فيليب أغسطس حزب كونراد ، وبذلك نرى أن حصار عكا بدأ فى ظروف سيئة للغاية للصليبيين ، بالاضافة الى سوء الأحوال الجوية والمجاعات والأوبئة التى انتشرت فى معسكراتهم • ولكن باستيلاء الصليبيين على عكا ، عمل هؤلاء على فض النزاع بين جاى وكونراد ، واتفق على وضع المتحصلات المالية الملكية من ميناء وسوق عكا فى حوزة الاسبتارية والداوية ، كما اتفق على أن يظل جاى لوزجنان ملكا مدى حياته على أن يتولى العرش بعده كونراد لتكون له بالنظام الوراثى (٤) •

وهكذا لعبت الاسبتارية والداوية دورا هاما فى تلك الأحداث السياسية ، التى مرت بالصليبيين فى تلك الفترة الحرجة من تاريخهم ،

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٠ .

(٢) Ollivier, op. cit., p. 81

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 57.

(٤) King, op. cit., p. 148.

أما علاقة الرهبان الفرسان بملوك الغرب الذين وفدوا الى الشرق على رأس حملات صليبية ، فقد اختلفت هـذه العلاقة من ملك لآخر ، وقد تحكم فى ذلك عدة عوامل منها : أنه ربما كان مقدم الداوية أو الاسبتارية فصلا لأحد الملوك ، وبالتالى دان له بالولاء وتبعه فى ذلك باقى أفراد هيئته ، أو ربما لدواعى المصلحة نجد احدى الهيئات ترتبط بملك دون آخر ، أو أن يقرب الملك اليه طائفة دون أخرى •

وكان من أبرز العلاقات بين الرهبان الفرسان وبين ملوك الغرب ، تلك العلاقة التى ربطت بين الهيئات وريتشارد قلب الأسد ، والامبراطور فردريك الثانى والملك لويس التاسع • أما علاقة الاسـبتارية والداوية ريتشارد قلب الأسـد ، فقد اتسمت هـذه العلاقة بالود والتعاون بين الطرفين ، فقد اشتركت قوات الداوية والاسبتارية فى صـفوف جيش ريتشارد ، خاصة فى موقعة أرسوف الشـهيرة ، التى دارت بين قوات ريتشارد وقوات صلاح الدين فى ٧ سبتمبر ١١٩١ (١) ، والتى سـبق ذكر تفاصيلها فى الفصل الثانى من الرسالة • ويذكر المؤرخ الصـليبى امبرواز الذى رافق حملة ريتشارد أن ريتشارد والصليبيين القادمين من الغرب كانوا يثقون فى رأى البارونات المحليين والداوية والاسبتارية ، بما لديهم من خبرة طويلة بأمور الشرق (٢) • ولكن باعطاء ريتشارد أمر الانسحاب الى الرملة ، أصيب الصليبيون بخيبة أمل وأسى بسبب عدم وصولهم الى بيت المقدس ، خاصة وانهم على مقربة منها ، ولذلك قـام الصليبيون الغربيون باتهام البارونات والداوية والاسبتارية بأنهم تسببوا فى احباط حماس الصليبيين وهبوط الروح المعنوية لديهم (٣) •

واذاء هذه الثقة التى تمتعت بها الهيئات عند الملك ريتشارد ، فانه منح هيئة الداوية قلعة باسم Castel des Plaines لحمايتها ، كما أنه قام بنفسه لنجدة بعض الداوية كانوا قد تعرضوا لمهاجمة المسـلمين فى ٦ نوفمبر ١١٩١ ، ويقول العماد عن هذه الوقعة « فى أول ذو القعـدة

---

(١) Lane Poole, op. cit., p. 314.

(٢) Ambroise, op. cit., p. 302.
Brehier, op. cit., p. 134.

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 80.

خرج ريتشارد فى خيالته متنكرا ليكون لحشاشه لهم وحطابة مخفرا ، فخرج عليه كمين ، وجرى قتال عظيم وكاد الملك يؤخذ » (١) .

كما أن ريتشارد ببداية فتح المفاوضات مع العادل بغرض عقد الصلح ، فان ريتشارد اشترط لعقد هذا الصلح أن « يرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاسبتارية ببعض القرى » (٢) . مما يدل على أن الملك الانجليزى كان يبحث عن ارضاء الهيئات الاسبتارية والداوية على السواء .

وأثناء المفاوضات التى جرت بين ريتشارد والعادل ، علم الملك أن قواته فى قبرس تلاقى مقاومة شديدة من الأهالى ، فقرر بيع الجزيرة بعد أن أدرك صعوبة الدفاع عنها وحمايتها (٣) . وعندئذ عرضت الداوية على ريتشارد شراء الجزيرة بمبلغ ١٠٠٫٠٠٠ بيزنت ، على أن تدفع الهيئة مبلغ ٤٠٫٠٠٠ بيزنت مقدما ، ويدفع باقى المبلغ فيما بعد . وبالفعل تمت الصفقة بين الهيئة والملك ريتشارد ، ولكن سرعان ما وجدت الداوية صعوبة كبيرة فى حكم جزيرة قبرس ، اذ قام أهلها بمذبحة هائلة للداوية فى ينقوسيا فى ٥ أبريل ١١٩٢ (٤) . ولذلك طلب مقدم الداوية روبرت سابليه (١١٩١ — ١١٩٦) (٥) من الملك ريتشارد الرجوع فى صفقة بيع الجزيرة ، وطلب منه اعادة المبلغ الذى دفعته الداوية مقدما . وأراد ريتشارد فى تلك الأثناء تعويض جاى لوزجنان عن ملكه الضائع بوفاة زوجته ملكة بيت المقدس ، فوافق الملك على عرض الداوية ، وقام ببيع الجزيرة الى جاى لوزجنان (٦) ، بنفس شروط البيع المسبقة لهيئة الداوية ، على أن يدفع جاى للملك مبلغ ٦٠٠٫٠٠٠ بيزنت ويدفع للداوية ٤٠٫٠٠٠ بيزنت التى دفعتها الهيئة للملك مسبقا (٧) . وبالفعل

(١) العماد ، الفتح القسى ، ص ٣٩١ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣١٧ .
(٣) أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٨٧ .
(٤) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 97.
(٥) Dumesil, op. cit., col. 972.
(٦) Conder, op. cit., p. 285.
(٧) Ambroise, op. cit., p. 345.

امتلك لوزجنان جزيرة قبرص قبل أن يعود ريتشارد الى بلاده ، وقد قدر لهذا الملك أن يحكم الجزيرة وأسرته من بعده على مدى ٢٥٠ عاما (١) .

ورغم فشل مشروع بيع جزيرة قبرص للداوية ، الا أن العلاقة بين ريتشارد قلب الأسد وبين الداوية والاسبتارية استمرت على أحسن ما يرام ، وظل الملك يستشيرهم ويأخذ بمشورتهم فى الأمور الهامة ، حتى أنهم وافقوا الملك عند ابرامه صلح الرملة مع صلاح الدين فى ٢ سبتمبر ١١٢٩ (٢) ، فقد استرجعت الداوية والاسبتارية بموجب هذا الصلح كل رأضيهما (٣) .

أما عن علاقة الرهبان الفرسان بفردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فمن المعروف أن البابا هنوريوس الثالث أصدر قرار الحرمان Excommunication ضد الامبراطور فردريك الثانى ، ثم جدد البابا جريجورى التاسع هذا الحرمان لرفض الامبراطور الخروج لمحاربة المسلمين فى حملة صليبية (٤) ، ورغم ذلك قام فردريك بقيادة حملة صليبية ، متحديا بذلك البابوية . وعند وصول الامبراطور الى عكا ، قام باستقباله فرسان الداوية والاسبتارية ، ولكن البابا أرسل الى الشام بعض الرهبان الفرنسيسكان لابلاغ الهيئتين بعدم العمل تحت راية الامبراطور ، ولذلك فقد تغير سلوك الهيئات تجاه الامبراطور بعد وصول المندوبين البابويين . وكان مقدم الداوية حينذاك هو برتراند دى تيسى ، الذى قام بابلاغ الامبراطور بأنه لن يستطيع التعاون معه والعمل تحت رايته تبعا لأوامر البابا الصادرة له ، ثم قام مقدم الاسبتارية بيتر مونتاجو بتقديم نفس الاعتذار للامبراطور (٥) . ولم يجد فردريك الثانى الى جانبه فى الشام سوى أقصاله المخلصين المتمثلين فى فرسان هيئة التيوتون ومقدمها المخلص هرمان فون سالزا Herman Von Salza

---

(١) King, op. cit., p. 153.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٩٨ .

(٣) Conder, op. cit., p. 289.

(٤) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٦٢ .

(٥) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠١٣ .

King, op. cit., p. 206.

فقد سار التيوتون مع فردريك فى طريقه من عكا الى يافا ، أما الداوية والاسبتارية فقد رفضـوا السـير معه ، ولكن يبدو أن حبهم للمغامرة والحرب جعلهم يتبعون جيش الامبراطور من مسافة صغيرة (١) .

وبعد اتفاقية يافا ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) بين السلطان الكامل وفردريك الثـانى ، فانها لم تلق استحسـانا من أى من الأطراف المسـيحية أو الاسلامية (٢) ، وذلك رغم أن الصليبيين استولوا بمقتضاها على بيت المقدس ، وعلى قبر السـيد المسيح ، فيما عدا قبة الصـخرة الشريفة والمسـجد الأقصى وقلاع صـفد وتورون وغـزة والداروم التـابعين للداوية (٣) .

وعندئذ ، أظهرت الداوية عداءها السافر للامبراطور ، خاصة عندما علمت الهيئة أن فردريك ينوى الاسـتيلاء على قلعتهم ، قلعة الحـاج Chateau Pelerin وعندئذ قامت الداوية بتهديد الامبراطور باعتقاله ان لم يترك الأراضى المقدسة فورا (٤) . ويبدو أن الداوية لم يهمها أن تتحسن العلاقات بين الصـليبيين والمسـلمين بقدر اهتمامها باسـترداد ممتلكاتها القديمة فى بيت المقدس ، ذلك لأن كنيسة الداوية ظلت تحت سيطرة المسلمين ، مما حال دون جعل بيت المقدس عاصمة لمملكة بيت المقدس كما كانت قبل دخول صلاح الدين اليها ، وظلت عكا هى العاصمة مما جعل الهيئات لا تستطيع نقل أديرتها مرة ثانية الى بيت المقدس (٥) .

وجاء رد الفعل من جانب البابوية ، اذ أصدر البابا قرار التحريم الدينى Interdict على مدينة بيت المقدس كلها ، كما أمر البابا قواته باحراق ونهب مدن الامبراطور فى ايطاليا ، وتعذيب رعايا الامبراطور فى

---

(١) Mills, op. cit., Vol. II, p. 255.

(٢) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٣ .

Grousset, op. cit., Vol. III, p. 311.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

Archer, op. cit., p. 383.

(٤) Ollivier, op. cit., p. 98.

(٥) Kng, op. ct., p. 209.

تلك المدن (١) • أما الداوية فقد قامت بتهديد الامبراطور ورفضت دخوله الى قلعة الحاج مما جعل فردريك يهاجم بيت الداوية بعكا ، ومما يذكره سبط بن الجوزى أن الامبراطور « لم يقم بالقدس سوى ليلتين ، وعاد الى يافا من الداوية ، فانهم طلبوا قتله » (٢) •

وازاء هذا العداء من جانب البابوية والداوية ، عمل فردريك على وضع السلطة فى الأراضى المقدسة فى أيدى الفرسان التيوتون (٣) ، فقد أراد تغيير الطابع الفرنسى الذى تميزت به مملكة بيت المقدس ، الى الطابع الألمانى ، مما أثار العناصر الموجودة بالشام ومنها بطبيعة الحال الداوية والاسبتارية •

وتذكر بعض المراجع أن الداوية والاسبتارية أرسلوا الى السلطان الايوبى الكامل خطابا يعرضون عليه فيه قتل فردريك ، وقد أرسل الكامل هذا الخطاب الى حليفة فردريك مما جعل الأخير يعمل على الانتقام من الداوية بمهاجمة قلاعهم ومصادرة أملاكهم فى الغرب • كما أن فردريك الثانى بدخوله بيت المقدس ، فانه وجد المدينة خالية تماما من أى مراسم استقبال له ، فدخل كنيسة القيامة فوجدها خالية بعد أن أمر بطريرك بيت المقدس جيرولد دى لوزان Gerold de Lausanne قساوسته بعدم حضور مراسم التتويج • ورغم تلك الاهانات الا أن فردريك قام بمعاونة فرسانه التيوتون بتتويج نفسه ، ثم أمر مقدم الهيئة هرمان فون سالزا بقراءة خطاب الامبراطور باللغة الألمانية أولا ثم بالايطالية : ثم خرج فردريك بعد ذلك الى بيت الاسبتارية ، حيث أجرى حديثا وتشاور مع رجال الدين الانجليز الذين ساندوه ، والغريب أن مقدم الاسبتارية وبرسبتور الداوية حضرا هذا الاجتماع (٤) ، ثم رحل فردريك الثانى عائدا الى بلاده بعد يومين فقط من تتويج نفسه ملكا على بيت المقدس (٥) • وتدل الأحداث أن علاقة فردريك بفرسان الداوية كانت علاقة عدائية مما

---

(١) Mills, op. cit., Vol. II, p. 257.

(٢) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٧ •

(٣) Pernoud, op. cit., p. 231.

(٤) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 312.

(٥) Besant, op. cit., p. 570.

جعل فردريك يعمل على الانتقام من الهيئة بمصادرة أملاكها الواقعة داخل امبراطوريته الشاسعة (١) . أما علاقة الامبراطور بالاسبتارية فكانت أقل عداء ، والدليل على ذلك دخول الامبراطور بيت الاسبتارية بعد تتويجه ملكا ، رغم أن فردريك كان قد صدر ضده قرار الحرمان من جانب البابوية .

ومن الجدير بالذكر أن هيئة الداوية التى ناصبت فردريك الثانى العداء ، تمتعت بثقة الملك الفرنسى لويس التاسع ، ملك فرنسا الذى قدم فى حملة صليبية الى الشرق فاشتركت الهيئة بقواتها مع الملك الفرنسى فى حملته على مصر ، كما رافقت فرسان الداوية الكونت أرتوا أخو الملك لويس فى هجومه الفاشل على المنصورة ، حيث لاقى الجميع حتفهم (٢) . ومن الغريب أنه رغم مرافقة الهيئة للملك لويس التاسع فى حملته على مصر ، الا أن الهيئة ترددت فى دفع الفدية عن بعض الصليبيين المرافقين للملك والذين تم أسرهم . فقد اقترح جوانفيل — وكان يرافق الحملة — على الملك اقتراض باقى المبلغ الخاص بفدية الأسرى من خزانة الداوية ، وكانت الهيئة قد أحضرت معها كل أموالها الى مصر ، ولذلك طلب الملك من كبار رجال الداوية بعد مقتل مقدمهم فى المنصورة (٣) ، دفع المبلغ لفك أسرى الصليبيين ، ولكن هؤلاء الداوية رفضوا اعطاء الملك تلك الأموال بحجة أن الأموال التى لديهم كانت ملكا للهيئات الثلاث : الداوية والاسبتارية والتيوتون ، وأنه ليس من حق الداوية التصرف فيها . وقد بدا هذا التصرف غريبا من جانب الداوية ، خاصة وأن الصليبيين كانوا فى موقف المهزوم ، ولذلك فقد طلب الملك من فصلة جوانفيل ، أن يستولى على الأموال بالقوة ، وبالفعل تم له ذلك وتسلم الصليبيون أسراهم (٤) .

---

(١) Dumesil, op. cit., p. 973.

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٩ .

Brehier, op. cit., p. 223

مصطفى زياده ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، ص ٢٣٠ .

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 492.

مصطفى زياده ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، ص ١٤٥ .

(٤) Conder, op. cit., p. 355.

وقد حدث أثناء وجود لويس التاسع فى قيصرية ١٢٥١ — ١٢٥٢ م ، أن قام مقدم الداوية رينودى فيشيه Renaud de Vichier (١) بارسال مارشال الهيئة هيو أوف جوى الى دمشق (٢) ، لاجراء مباحثات منفردة مع الملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب دمشق ، فالداوية عرفت بميلها الشديد لمحالفة دمشق ، مخالفة بذلك اتجاه الملك فى تفضيله محالفة مماليك مصر (٣) . وكان المقدم قد أوفد المارشال للتباحث مع الناصر يوسف الأيوبى بشأن منطقة أراضى كانت للداوية وكان صاحب دمشق يرغب فى تقسيمها ، فعاد الراهب المارشال برد الناصر يوسف بهذا الشأن ، على أن تكون المنطقة مقسمة بين الداوية ودمشق ، على شرط موافقة الملك الفرنسى على ذلك . وعندما اطلع المقدم الملك على هذه الرسالة ، ذهل لويس التاسع لعدم علمه مسبقا بهذا الشأن ، ولأنه لم يأذن للمقدم بعقد معاهدة مع دمشق ، ذلك لأنه كان يسعى لابرام معاهدة مع مصر فى مقابل قطع علاقته مع دمشق (٤) . وقد عمل لويس التاسع ردا على ذلك على اهانة الداوية أمام الجميع ، فأمر المقدم أن يقول لرسول صاحب دمشق وفى حضرة الجميع أنه أخطأ فى ابرام معاهدة بدون اذن الملك وأنه يتنازل لصاحب دمشق عما سبق أن طلب للداوية ، فأطاع المقدم وفرسانه أوامر الملك (٥) ، كما أمر لويس التاسع بطرد الراهب هيودى جوى من مملكة بيت المقدس (٦) . أما مقدم الهيئة رينودى فيشيه ، فقد أثر أن يستقيل من منصبه ازاء هذه الاهانة والاذلال الذى لحق به وبالهيئة كلها .

وتبين مما سبق أن العلاقة بين لويس التاسع والداوية بدأت بداية حسنة ، ثم ما لبثت أن تطورت لدرجة أن الملك عمل على اذلال أفراد الهيئة ، ربما ساءه منها ذلك الاستقلال الذى أحرزته وتلك العجرفة التى انتابت أفرادها والسياسة المخالفة التى سارت عليها الهيئة ، مما أضر بسياسة لويس التاسع تجاه مصر .

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 510.

(٢) Joinville, op. cit., p. 263.

(٣) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 276.
انظر الرسالة ، ص ١٢٢ .

(٤) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 511.

(٥) Ollivier, op. cit., p. 117.

(٦) Joinville, op. cit., p. 263.

(و) العلاقة بين الرهبان الفرسان ومملكة أرمينيا الصغرى وامارتى انطاكية وطرابلس :

لعبت الهيئات الثلاث : الاسبتارية والداوية والتيوتون ، دورا هاما تجاه أرمينيا الصغرى ، خاصة وأن هذه الهيئات ، وخاصة الاسبتارية والداوية كان لهما نشاط وافر وسطوة قوية فى امارتى انطاكية وطرابلس الواقعتين على حدود مملكة أرمينيا الصغرى • يضاف الى ذلك أنه عند دراسة نشاط الهيئتين السياسى فى أرمينيا وانطاكية ، لم يكن هناك مناص من ربط العلاقة بين كل من الهيئتين وبين كل من امارة انطاكية ومملكة أرمينيا فى آن واحد ، وذلك الارتباط الوثيق الذى ربط امارة انطاكية — وهى الامارة الشمالية للصليبيين بالشام — بمملكة أرمينيا الصغرى ووجود صلات اقليمية بين المنطقتين (١) •

فمن المعروف أنه عندما توفى ثوروس الثانى الأرمنى ، ترك طفلا هو روبن الثانى تحت وصاية عم له اسمه توماس (٢) ، وكان لتوماس هذا أخ باسم مليح MLEH قد انضم لهيئة الداوية (٣) ، ثم انقلب ضد الهيئة الى جانب نور الدين محمود وأصبح يكن للداوية كراهية شديدة ، فتحالفت الهيئة مع أعدائه من البيزنطيين والصليبيين • وكانت الداوية فى ذلك الوقت تمتلك حصن بغراس الواقع على حدود بلاده ، ورغم هذا التحالف المكون ضده ، استطاع مليح — الذى أصبح وصيا على روبن الثانى — توطيد نفوذه فى قليقية وانتزاع أملاك الداوية فى المنطقة ، ولكن بموت نور الدين محمود سنة ١١٧٤ ، استطاع أعداء مليح قتله فى سيس سنة ١١٧٥ ، وتولى العرش روبن الثالث الذى تحالف بدوره على الصليبيين (٤) •

وبقدوم عهد ليون الثانى أمير أرمينية الصغرى ، فانه تسلم قلعة بغراس سنة ١١٩٠ بعد أن أخلاها فرسان الداوية بقدوم فردريك بربروسا الى الشرق • ولما أرادت الداوية استرجاع القلعة ، رفض ليون الثانى

(١) Cahen, op. cit., p. 413.
(٢) Grousset, op. cit., Vol. II, p. 566.
(٣) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 388.
(٤) Grousset, op. cit., Vol. II, p. 580.

هذا لادعاء ، وراح يحصن القلعة مما أزعج الصليبيين فى امارة انطاكية أشد الازعاج ، ذلك لأن قلعة بغراس كانت تعتبر مدخلا للامارة . وازاء هذا التصرف من جانب ليون الثانى ، فان الداوية عملت على التحالف ضـده مع عـدو اللدود أمير انطاكية بوهيموند الرابـع (الأعور) Raymond le Borgne (١) . ويبدو أن ليون الثانى فضل أن يقرب اليه فرسان الاسبتارية والتيوتون ، فالتحق بهيئة التيوتون كعضو علمانى ، ومنح ليون الثانى تلك الهيئة قلاعا هامة فى قليقية ، أما وهيموند الرابع فانه لم يعاد هيئة التيوتون ، بل أنه وهبهم بعض هبات فى امارته سـنة ١٢٠٩ (٢) .

وقد بدأت قصة العداء بين ليون الثانى وبوهيموند الرابع ، عندما ظهرت مشكلة توليه عرش انطاكية ، تلك المشكلة التى تدخلت فيها هيئات الرهبان الفرسان بشكل واضح . ذلك أنه عندما توفى ريموند الثانى أمير طرابلس سنة ١١٨٧ ، لم يترك وريثا لعرش سوى ابنا بالتبنى هوريموند أمير انطاكية وأكبر أبناء بوهيموند الثالث ، وقد تزوج هذا الابن عام ١١٩٤ من الأميرة الأرمنية اليكس Alix ابنـة ليون الثانى الأرمنى التى أنجبت له ولدا باسم ريموند روبن Raymond..Rupen (٣) ، فأصبح هذا الطفل هو الوريث الشرعى لامارة انطاكية ، ولكن هـذا الطفل تعرض لمرض البله ، فحكم الامارة باسمه أخوه الأصغر بوهيموند الرابع (الأعور) (٤) . وقد اعتبر الصليبيون حكم ريموند — روبن نوعا من الوصاية الأرمنية على امارة انطاكية ، ولكن بوهيموند الثالث أمير طرابلس اعترف فى سيس بأحقية ريموند — روبن فى عرش امارة انطاكية ، كما ساندت الداوية بوهيموند الثالث فى ذلك ، طمعا فى تسلمهم قلعة بغراس . أما بوهيموند الرابع فقد قام بطلب المسـاندة من هيئة الاسبتارية عـام ١١٩٨ (٥) فى نفس الوقت الذى عمل فيه على تحسين

---

(١) Cahen, op. cit., p. 618.

(٢) R.H.C., Tome I, Chronique de Gregoire le Prêtre, p. 171.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، أحداث سنة ٦٢٣ هـ .

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 246.

(٤) King, op. cit., p. 173.

(٥) Cahen, op. cit., p. 591.

علاقته مع هيئة الداوية ، فجعلهم يأملون فى تسوية قريبة بشأن بغراس . وتميزت الفترة بعد سنة ١١٩٩ م بفتور شديد بين بوهيموند الثالث أمير طرابلس وابنه بوهيموند الرابع أمير انطاكية ، فعارض الأب تصرف ابنه ، وأعلن ريموند — روبن وريثا شرعيا لانطاكية وحاكما لأرمينية بعد وفاة ملكها ليون الثانى (١) .

أما ليون الثانى الأرمنى ، فأرسل عام ١١٩٩ يسترضى البابا ويخبره بتعميد ريموند — روبن تبعا للمذهب الكاثوليكى ليكون خليفة لبوهيموند الثالث ، بينما ظلت الداوية تساند بوهيموند الرابع (٢) . وردا على ذلك أرسل البابا فى نفس العام (١١٩٩ م) الى انطاكية مندوبين بابويين للتحكيم، وطلب المندوبان من ليون الأرمنى اعادة بغراس للداوية ، ولكن يبدو أن ليون الأرمنى تمسك بهذه القلعة رغم طلب البابا مما أساء الى العلاقة بين مملكة أرمينية الصغرى وهيئة الداوية (٣) .

وفى عام ١٢٠٣ حاول ليون الأرمنى مهاجمة امارة انطاكية ، ولكن بوهيموند الرابع استطاع بمساعدة الداوية الذين كان قد منحهم مهمة الدفاع عن قلعة انطاكية فى نفس العام ، وعاود ليون التجربة مرة أخرى عام ١٢٠٤ فاستطاع بوهيموند رده مرة أخرى بمعاونة صاحب حلب .

وقد أرسل ليون للبابا يشكو له تصرفات الداوية مما جعله مضطرا الى طرد الداوية من بلاده ، وازاء هذا الاجراء ، كان رد البابوية على ليون أن فرضت عليه قرار لحرمان . ورغم ذلك فقد ظلت الاسبتارية تساند الوريث الشرعى لامارة انطاكية الأمير ريموند — روبن ، كما ظلت الداوية تساند بوهيموند الرابع وذلك رغم أن هذا الأمير أيضا كان قد صدر ضده قرار الحرمان من الكنيسة على يد البابا أنوسنت الثالث ، وهو نفس البابا الذى أصدر فيما بين سنتى ١١٩٨ و ١٢٠٥ عدة قرارات فى صالح هيئة الداوية فى صراعها مع رجال الدين بالشام (٤) .

---

(١) King, op. cit., p. 173.
(٢) Conder, op. cit., p. 302.
(٣) Cahen, op. cit., p. 600.
(٤) Ollivier, ap. cit., p. 89.

وانتقم ليون الثانى من الداوية بعد أن اتهمها بمسئوليتها عن سبب فشل حملته على انطاكية ، فاستولى ليون على بعض قلاع الداوية بقليقية ، ولم تنته سياسة العداء بين ليون الثانى والداوية الا سنة ١٢٢٠ م (٦١٢ هـ) عندما أقرت البابوية ريموند — روبن على عرش انطاكية وتوج ملكا على الامارة (١) • وبذلك الحقت انطاكية بعرش أرمينيا طوال فترة ولايته (١٢١٦ — ١٢١٩) تم خلالها الوفاق بين ليون والداوية ، فرد للهيئة قلعة بغراس ، ورفع البابا بالتالى قرار الحرمان عن الملك ليون الثانى (٢) • أما بوهيموند الرابع ، فقد انحصر فى امارة انطاكية حتى يحين الوقت المناسب لاسترداد ملكه •

وقد عمل ريموند — روبن بعد توليه عرش انطاكية ، على مكافأة مساندية وفى مقدمتهم هيئة الاسبتارية ، فمنح الهيئة قلعة انطاكية (٣) ، كما منح روبن للاسبتارية مدينة جبله وقلعة La Vieille (Castellum Vetulae

وبانشغال الاسبتارية فى الحرب مع ملك بيت المقدس حنا برين فى حملته على مصر ، قام بوهيموند الرابع بانتهاز هذه الفرصة واسترد امارة انطاكية وقام بالانتقام من مساندى خصمه متبعا أبشع وسائل العنف ضد الاسبتارية ، ولذلك أصدرت البابوية ضده وضد الامارة كلها قرار الحرمان سنة ١٢١٢ (٤) • ورفض بوهيموند الرابع أى تحكيم من جانب البابوية فى مسألة العرش الانطاكى ، على أساس أن تلك الامارة تابعة رسميا للدولة البيزنطية •

أما عن ليون الثانى الأرمنى ، فقد عوض هيئة الاسبتارية عن خسائرها فى انطاكية بمنح الهيئة بعض القلاع وامتيازات كثيرة ، منها حق عقد السلم أو شن الحرب ، والاحتفاظ بالغنائم التى تفوز بها الهيئة فى أى معركة تشترك فيها • وكان يتضح من هذه السياسة ، أن ليون الثانى أراد بذلك أن يجعل من فرسان الاسبتارية حراسا لحدوده الجنوبية المواجهة للاسماعيلية •

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ •
Grousset, op. cit., Vol. III, p. 256.
(٢) R.H.C., Tome I, Chronique de Gregoire le Prêtre, p. 171.
(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 262
(٤) King, op. cit., p. 198

وعادت امارة انطاكية مرة أخرى سنة ١٢١٦ الى الأمير ريموند — روبن الذى عينه ليون الأرمنى أيضا وريثا لعرش أرمينيا الصغرى ، وبعد ثلاث سنوات (١٢١٩) عاد بوهيموند الرابع مرة ثانية ليحكم انطاكية وينتقم من الاسبتارية أشد انتقام . فاستولى بوهيموند على أملاكهم فى انطاكية وطرابلس ، وأمر باعدام اثنين من رهبان الهيئة ، كما أمر بسلخ أحدهم حيا . وازاء هذا التصرف ، أصدرت البابوية قرار الحرمان ضد الأمير بوهيموند الرابع ، ولكنه لم يكن بالشخص الذى يعبأ بقرارات الكنيسة ، فراح يعمل على ترضية الداوية على حساب الاسبتارية ، مما جعل البابوية تعنف الداوية لاتصالها ومساندتها بوهيموند الرابع ، فقامت البابوية أولا بتحذير هيئة الداوية عام ١٢٢٤ بعدم الاتصال بالأمير المطرود ، كما أعطت البابوية الصليبيين حق رفع السلاح ضده عام ١٢٢٥ ومقاومته بكل الوسائل . ورغم ذلك ظلت الداوية تتصل ببوهيموند الرابع غير مكترثة بتهديدات الكنيسة بعد استردادها لقلعة بغراس (١) .

أما الاسبتارية فانها استنجدت بالبابوية ازاء مصادرة أملاكها فى امارة انطاكية — طرابلس ، فأصدرت البابوية مرسوما آخر بطرد بوهيموند الرابع من الكنيسة عام ١٢٣٠ ، وكان ذلك فى أواخر عهد الأمير الانطاكى ، الذى أراد استرضاء البابوية فعقد صلحا مع مقدم الاسبتارية جارين مونتاجو ، وعندئذ رفعت البابوية قرار الحرمان الذى كانت قد أصدرته ضد بوهيموند الرابع عام ١٢٣٣ وقد شاءت الظروف أن ينتهى عهد هذا الأمير بعد هذا التاريخ بعامين فقط (٢) .

وبوفاة بوهيموند الرابع ، اعتلى عرش انطاكية — طرابلس بوهيموند الخامس ، الذى لم ينس ما فعله الأرمن تجاه أبيه بوهيموند الرابع وأخيه فيليب ، كما أن الداوية ظلوا فى صراع مع الأرمن بشأن قلعة بغراس التى ظل الأرمن يطمعون فى الاحتفاظ بها . كذلك حدث أن هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى قام بأسر بعض أفراد الداوية وتعذيبهم على أبشع صورة ، مما جعل الداوية تتحالف مع بوهيموند الخامس الذى كان ينتظر الوقت المناسب للانتقام من الأرمن ، وقرر المتحالفان القيام بحملة مشتركة ضد

(١) Cahen, op. cit., p. 633
(٢) King, op. cit., p. 212

قليقية مما أقلق هيثوم ، فعقد معاهدة منفردة مع الداوية اتقاء لشرها ودفع لهم ثمن حيادها مبلغا كبيرا من المال • وازاء تخلى الداوية عن القيام بالحملة بجانب بوهيموند فان الأخير تخلى عن فكرة مهاجمة قليقية (١) • كما أن البابا جريجورى التاسع ، أصدر قرار منع فيه الهيئات العسكرية وبوهيموند الخامس من محاربة الأرمن ، مما وضع حدا للنزاع بين الداوية والأرمن (٢) •

ولم يكن بوهيموند الخامس بالحاكم القوى مثل أبيه بوهيموند الرابع ، ولذلك فان الهيئات العسكرية لم تكن خاضعة له خضوعا تاما ، كما أنه حدث فى عهد مقدم الاسبتارية جارين مونتاجو أن طالبت الهيئة من بوهيموند الخامس استرداد اقطاع مرقية بعد وفاة صاحبها (٣) ، وكانت الهيئة قد تنازلت عن حقها فى هذا الاقطاع عام ١١٩٩ الى صاحب الاقطاع الفعلى بيير رافنديل Pierre de Ravandel ، ولكن بموته قامت الهيئة بمطالبة بوهيموند الخامس باعادة الاقطاع الى الاسبتارية ، مما اعتبره الأمير بوهيموند تعديا على حقوقه ، لأنه كان يفضل أن يظل الاقطاع فى يد أفصاله •

واحتدم النزاع بين الأمير والاسبتارية حتى وصل الأمر الى ضرورة تحكيم البابوية فى هذه المسألة • فأرسل البابا مندوبا عام ١٢٣٤ وكان هذا المندوب هو أسقف بانياس الذى حكم فى صالح هيئة الاسبتارية كيدا فى بوهيموند الخامس ، فرفض الأمير حكم الأسقف ، كما أنه قدم شكواه للبابا ، وقد تضمنت الشكوى أن كلا من الاسبتارية والداوية تحالفتا مع الاسماعيلية المسلمين ، وكان ذلك قد حدث فعلا ، مما جعل البابوية ترسل فى ٣٠ أبريل ١٢٣٦ تحذيرا للهيئات وتهديدا بفرض عقوبة الحرمان عليهم أن لم تقطعا علاقتهما بالاسماعيلية المسلمين •

وظل النزاع مستمرا بين بوهيموند الخامس والاسبتارية ، حتى نجحت البابوية عام ١٢٤١ فى وضع حل للنزاع بشأن اقطاع مرقية ، وهو

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 363
(٢) Cahen, op. cit., p 652
(٣) King, op. cit., p. 216

أن يظل هذا الاقطاع فى يد الهيئة حتى يبلغ الوريث الشرعى سن الرشد . ويبدو أن البابوية أرادت وضع حل للمشكلة بأية طريقة ، حتى يستقر السلام فى المنطقة بعد أن أصبحت الامارة فى حالة سيئة من الفقر نتيجة الاضطرابات والمنازعات والحروب (١) .

وفى سنة ٢١٥١ توفى بوهيموند الخامس وتولى امارة انطاكية طرابلس ابنه بوهيموند السادس الذى سادت فى أيامه علاقات هادئة بين امارة انطاكية والهيئات العسكرية . ولعل من أسباب ذلك ظهور الخطر المغولى الذى اجتاح منطقة الشرق الأدنى فى منتصف القرن الثالث عشر . فعندما ظهر خطر المغول سنة ١٢٥٦ عقد بوهيموند السادس اتفاقا مع مقدم الاسبتارية وليم دى شاتونوف (٢) ، ويبدو أن شروط هذا الاتفاق لم تنفذ ، فقام بوهيموند السادس بمصادرة أملاك الهيئة ، ولكن سرعان ما تم الاتفاق بينهما مرة أخرى سنة ١٢٥٩ ، وفى هذا الاتفاق اعترف الأمير بوهيموند السادس بالحرية التجارية الكاملة للهيئة فى امارته ، كما قام عام ١٢٦٢ كل من بوهيموند السادس والمقدم الجديد للهيئة هيوريفيل بالاتفاق على تسوية بعض الأمور الخاصة بالهيئة فى امارة انطاكية — طرابلس ، كما أضاف هذا الأمير هبة جديدة للهيئة هى عبارة عن نصف منطقة اللاذقية (٣) .

هكذا لعبت هيئات الفرسان الداوية والاسبتارية أدوارا هامة على مسرح الأحداث السياسية فى بلاد الشام وأعالى الجزيرة مع القوى الاسلامية والصليبية المختلفة ، مما يوضح طبيعة هذه الهيئات وتطور نشأتها ومظاهر نشاطها .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٩١ .
Cahen, op. cit., p. 665

(٢) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 515

(٣) Cahen, op. cit., p. 666

... Library (GOAL)

الفصل الخامس

التنظيمات الادارية والحربية والديرية للداوية والاسبتارية فى بلاد الشام

اعترفت البابوية اعترافا رسميا بشرعية وجود منظمة الداوية فى مجمع تروى الدينى وذلك بمقتضى مرسوم Regula Pauperum Commilitonum أصدره البابا هنوريوس الثانى عام ١١٢٨ م • وقد حرر هـذا المرسـوم القديس برنارد أسقف كليرفو ، ولا تزال هـذه الوثيقة موجودة فى ٧٢ بندا ، أما قانون الداوية فقد وضع بمجرد الاعتراف بها رسميا فى ذلك العام • وكتب باللاتينية عند ظهوره ثم ترجم الى الفرنسية القديمة ، وهذه الترجمة تمثل أقدم ما وصل الينا وعرف باسم Regle Dou Temple أو قانون الداوية • ويتضمن هذا القانون مجموعة القواعد الديرية التى كان على أفراد هيئـة الداوية اتباعها وكانت على نمط قـانون القديس بندكت • غير أن الحياة الديرية التى اتبعها أفراد الداوية والتى أطلق عليها اسم Militaris أى القواعد الحربية ، فقد كانت معدلة عن الحياة الديرية المعروفة فى تلك العصور حتى تتلائم مع التغيرات الحربية التى حدثت داخل الهيئة (١) •

واستعان المقـدم الأول للهيئة هيودى باين باسقف كليرفو القديس برنارد فى وضع نظام الهيئة التى سارت عليه طوال عهدها •

ومن المعروف أن الأسـقف برنارد تحمس تحمسـا شـديدا للهيئة الجديدة ومدح ذلك النوع من الفروسية الجـديدة فيما عرف باسـم De Laude Novae Militiae التى أورد فيها الأسقف مقارنة واضـحة بين صفات ومناقب الفرسـان المعروفين فى ذلك الوقت وتلك الطائفة من الفرسـان الرهبان الشجعان ، والفارق بين كل من الفئتين ، فقـد أثنى الأسقف ثناء شديدا على هيئة الداوية وعمل على بث روح الحرب وشنها

---

(١) O'Taylor, The Mediaeval Mind, Vol. I, p. 550

على أعداء المسيحية ، كما أثنى ثناء خاصا على الهيئة الجديدة التى تبناها ووضع قانونها (١) . ويلاحظ أن هذا القانون الأصلى الذى حرره الراهب Jehan Michel زمن القديس برنارد ، أضيف اليه ما سمى بالـ Retrais وهى عبارة عن المراسيم البابوية التى نصت على منح هيئة الداوية امتيازات وحقوق أصبحت تدخل فى نطاق قانونها (٢) .

أما عن هيئة الاسبتارية فعلى الرغم من أنها تأسست فى وقت سابق لهيئة الداوية ، الا أن نشاطها كان مقصورا على رعاية مرضى وجرحى الحجاج وتقديم الخدمات الاجتماعية للمرضى والفقراء ، ولذلك فان القانون الأول لهيئة الاسبتارية فى عهد مقدمها الأول الراهب جيرار كان عبارة عن تطبيق للقانون الديرى للقديس أوغسطين . ولم يوضع قانون للهيئة بشكل رسمى الا فى عهد المقدم الثانى لها وهو ريموند دى بيو (٣). وبعد وفاة الراهب جيرار أصدر البابا بسكال الثانى مرسوما بابويا عام ١١١٣ أعطى فيه الحق للهيئة فى اختيار مقدمها ، فوقع الاختيار على الراهب ريموند دى بيو وهو الأول فى الهيئة الذى لقب بالمقدم Maître أو راعى المستشفى Père de l'Hôpital ومثل ذلك من الألقاب .

وكان ريموند دى بيو هو أول من عقد اجتماعا عاما Chapitre Génèrale قرأ فيه على أعضاء الهيئة قانونا مكتوبا اذ لم يكن لها قانون حتى ذلك الوقت ، ولم يتضمن هذا القانون أى مواد تتعلق بنشاط عسكرى أو حربى ، فلم تكن الهيئة قد تحولت الى الحياة العسكرية حتى ذلك الوقت . ووافق البابا ايوجينوس الثانى (١١٤٥ — ١١٥٣) على هذا القانون الذى لم يتعد معالجة بعض الأمور البسيطة (٤) ، فقد جعل هذا المقدم القسم الثلاثى القائم على الفقر والعفة والطاعة قسما اجباريا يلتزم به جميع أفراد الهيئة ، كما أنه قرر عقوبات لمن يخالف القانون ، وحدد زيا موحدا لأفراد الهيئة ينقش عليه الصليب . كما أنه قسم أفراد الهيئة الى فئتين ، فئة الرهبان وفئة الأعضاء والعلمانيين النبلاء منهم وغير النبلاء (٥) .

---

(١) Ollivier, op. cit., p .16
Ponsoye, op. cit., p. 104
(٢) Dict. Thèologique de la Foi Catholique, col. 754
(٣) King, op. cit., p. 29
(٤) Ibid., p. 324
(٥) Dumesil, op. cit., col. 591

وقد تطور قانون ريموند دى بيو ، فأصبح يضم عدة موادا من قانون الداوية وقد وافق على ذلك القانون يوجينوس الثالث وذلك بعد أن أصبحت الهيئة ذات نشاط حربى ، وبذلك يكون قانون القديس برنارد الذى وضع للداوية أصبح نموذجا سارت عليه كل من الاسبتارية وهيئة التيوتون الألمانية فيما بعد (١) ٠

ويذكر لنا الاسبتارى Guillaume de St. Esteve أن قانون ريموند دى بيو كان يتلخص فى خمس عشرة مادة تتعلق بأمور ديرية ، ولكن بتطور الهيئة ظهرت منذ القرن الثانى عشر متجددات سجلتها المجالس العامة للهيئة ووافق عليها المقدمون المختلفون ، وبذلك زاد حجم قانون الاسبتارية ٠ غير أن هذه المتجددات لم تكن منظمة تنظيما دقيقا ، كما كان يوجد بينها مواد يناقض بعضها الآخر ، ولذلك فانه أجريت عدة محاولات لتنظيمها وكان أحسنها ما تم فى عهد المقدم جيوم فيليريت Guillaume de Villaret الذى عهد بتنظيم مجموعة القوانين للفارس جيوم دى سانت استيف ، كما عهد اليه بجمع المستندات الخاصة بالهيئة فى مجموعة منظمة Receuil يسهل الرجوع اليها ٠ وانتهى جيوم دى سانت استيف من تنظيم هذه المجموعة فى سنة ١٢٨٧ ، وهذه المجموعة ما زالت حتى الآن فى كتبة الفاتيكان ونشرها المؤرخ Paoli ، فهى تشمل قانون ريموند دى بيو وقانون أصدره المقدم جوبرت Jobert سنة ١١٧٧ ، وهو خاص ببعض نظم المستشفى ، وكذلك مجموعة القوانين الخاصة بالواجبات والاحتفالات الدينية ، ومجموعة القوانين الصادرة فى عهد المقدم روجير دى مولين Roger de Moulin ثم القوانين الصادرة فى عهد المقدم الفونسو دى بورتجال Alphonso de Portugal وهى الصادرة فى أول اجتماع يعقد فى المرقب بعد تحول قيادة الهيئة لها بعد سقوط بيت المقدس (٢) ٠ وأخيرا أورد Paoli مجموعة القوانين الصادرة فى عهد المقدم هيوريفيل Hugh Revel ومجموعة قوانين صادرة فى عهد المقدم نيقولاس لورنى Nicolas Lorgne وجان فيلير Jean Villiers ، وتوجد مجموعة كتابات جيوم دى سانت استيف فى خمس مخطوطات محفوظة فى مكتبات باريس والفاتيكان وفيينا (٣) ٠

---

(١) Fliche et Martin, op. cit., p. 308

(٢) King, op. cit., p. 178

(٣) R.H.C. Tome V, Guillaume de St. Esteve, p.c. XXI

وهكذا يلاحظ مما سبق أن نظام الداوية الذى وضعه القديس برنارد أسقف كليرفو هو الأساس الذى سارت عليه الاسبتارية والتيوتون فيما بعد، مع اضافة كل هيئة لبعض المواد الخاصة بنشاطها الداخلى ، ويجدر بنا أن نستعرض ما جاء فى المراجع المختلفة فيما يخص نظام كل من الهيئتين الكبيرتين •

كانت هيئة الاسبتارية تنقسم منذ عهد مقدمها الثانى ريموند دى بيو الى فئتين : فئة الرهبان ، وفئة الأعضاء العلمانيين • ولكن بازدياد أفراد الهيئة أصبح لها سلك وظيفى محدد خاصة بعد تحول الهيئة الى المجال العسكرى ، وكان يرأس هذا النظام المقدم ثم مساعدوه والفرسان والرهبان الخدام ورهبان الدين • هذا بالاضافة الى التنظيم الادارى الذى كان ضروريا لادارة أملاك الهيئة المتسعة • واتصل كل أفراد الهيئة فيما عرف بالاجتماع العام الذى كان يعقد سنويا لبحث أمور الهيئة ومشاكلها واتخاذ القرارات الهامة ، ويجدر بنا أن نبحث كل من هذه الوظائف على حدة •

١ — المقدم : Master

المقدم أعلى منصب فى الهيئة على الاطلاق ، ويتم انتخابه فى احتفال وبطريقة معقدة عن طريق أثنى عشر راهبا يقومون باختياره — وهو العدد الذى يمثل عدد حوارى السيد المسيح (١) • وكان للمقدم سلطات واسعة ان لم تكن مطلقة ، وعلى الرغم أنه كان مقيدا فى قراراته الهامة بضرورة أخذ رأى المجلس العام General Chapter الا فى وقت لاحق عندما كانت سلطته قوية وأوامره مطاعة ، وكان ضمن سلطاته الواسعة قبول أعضاء جدد بالهيئة بعد أخذ رأى ممثليه فى المراكز الأوروبية للتأكد من صلاحية العضو الجديد (٢) • وكان المقدم على رأس التنظيم المركزى ، ولم يمنح لقب المقدم الأكبر Grand Master الا فى وقت لاحق عندما دمجت هيئة كنيسة القيامة Order of Saint Sépulohre الى هيئة الاسبتارية •

أما مقدم الداوية فقد أطلق عليه «Prince et Grand Maître par la grâce de Dieu» وهو لقب يضاهى ألقاب الأمراء الاقطاعيين وكبار

---

(١) Ponsoye, op. cit., p. 106
Ollivier, op. cit., p. 46
(٢) King, op. cit., p. 68

الصليبيين (١) • وكان يشترط فى المقدم أن يكون فارسا وابنا شرعيا لفارس •

وبعد أن يتم اختيار المقدم الجديد ــ الذى يلتزم بخدمة الهيئة مدى الحياة ويكون خاضعا لقوانين الهيئة ــ فان سلطته تكون شبه مطلقة فيما يختص بادارة الهيئة ورئاسة جميع أفرادها ، ولا تتعرض قراراته للنقد الا عن طريق المجلس العام الذى له حق طلب انعقاده • كما أن للمقدم سلطة تعيين ضباط أو مندوبين يباشرون السلطة أثناء غيابه • كما أن له حق تعيين وكلاء أو مندوبين Bailiffs وهم عبارة عن فئة من كبار القادة ، وكان يتم القرار النهائى فى تعيينهم عن طريق المجلس العام (٢) • وكان للمقدم الحق فى أن يكون له حاشية ترافقه وهى مكونة من أحد القادة واثنين أو ثلاثة من كبار فرسان الهيئة وحامل راية الهيئة (٣) •

وقد عاون المقدم فى أعماله عدد من الرهبان ومجلس ، كما أن مجموعة من الوكلاء الاداريين عاونوه فى الأمور الخاصة ببيع أو شراء الأراضى والاقطاعات • ويبدو أنه بتطور الهيئة أدت هذه الضرورة الى اصدار عدة قوانين تتمشى مع هذا النمو والتطور ، فأصبح للمقدم سلطة اصدار القوانين • مثال ذلك ما قام به المقدم ألفونسو أوف بورتجال الذى أصدر قوانين صارمة خاصة بسلوك الرهبان الفرسان ، كما أنه أجبر الهيئة على تغيير مقرها من عكا الى المرقب ، وذلك بعد استرداد المسلمين لبيت المقدس وكذلك تلك القوانين التى وضعها المقدم برتراند دى كومب وهى خاصة بنواحى عسكرية وتقضى بتمييز الرهبان العسكريين على الرهبان الديريين (٤) •

وأقام مقدم الاسبتارية فى مقر فخم يتلائم مع منصبه وهو غالبا الدير Convent وهو المصطلح الذى أطلق على مقر الهيئة وقيادتها ونفس المكان الذى أقام فيه المقدم وضباطه • وكان هذا المكان يضم مجموعة منشآت أخرى خاصة بالهيئة كالكنيسة والمستشفى ومكانا لاقامة رهبان

---

(١) Fliche et Martin, op. cit., p. 309
(٢) King, op. cit., p. 73
Archer, op. cit., p. 171
(٣) Ency. Univers., Vol. 15, p. 920
(٤) King, op. cit., p. 222

الهيئة • وكان دير الاسبتارية فى بيت المقدس يقع جنوب كنيسة القيامة وهو المكان الذى عرف بالبيمارستان ، وهو عبارة عن مكان فسيح يبلغ طوله مائة وستين ياردة وعرضه مائة وأربع وثلاثين ياردة ، ويقع وسط المدينة المقدسة • وكان يحيط بهذا المكان الأول للاسبتارية عدة كنائس منها الدير اليونانى القديم ، وهو دير القديس يوحنا المعمدانى وكنيسة القديس مارحنا وكنيسة سانت مارى لاتينا وكنيسة القديسة مريم المجدلية ، ويبدو أن دير الرهبان اليونانيين هو الذى أصبح مقرا لمقدم الاسبتارية فى أول الأمر (١) • ولكن بعد أن استرد المسلمون مدينة بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبى ، نقل الاسبتارية مقرهم وقيادتهم الى قلعة المرقب ، وهى قلعة حصينة (٢) • واضطرت الهيئة لاتخاذ مواقع حصينة بعد أن تحولت سياستهم الحربية من الهجوم الى الدفاع بعد ازدياد قوة المسلمين وغاراتهم ضد الصليبيين •

أما مقر مقدم الداوية فكان يقع هو الآخر فى مكان متعدد المنشآت فى المدينة المقدسة — وذلك منذ نشأة الهيئة الأولى — وتضمنت مجموعة مبانى الهيئة عند المسجد الأقصى ، القصر والكنيسة التابعين للهيئة ، وكان يوجد بينهما مطابخ الهيئة ومطاعمها وصوامع الغلال ومراكز المراقبة واسطبلات الخيول ، وكانت الأخيرة تتميز بالضخامة كما أن الفرسان اهتموا بها اهتماما بالغا • وأقام فى القصر مقدم الداوية وكبار فرسان الهيئة وعدد ضخم من الخدام والعمال من مختلف المهن والحرف ، كما لم يكن هناك مجال لوجود امرأة واحدة فى جميع منشآت الهيئة •

وكان للمقدم قاعة كبيرة خاصة به يباشر منها أعماله الادارية ، أما سلطته فكانت واسعة ، فالمقدم يستطيع اقراض مبالغ من المال أو منح بعض الهبات من مجوهرات أو أوانى ذهبية أو قطع سلاح ثمينة ، أما اذا أراد أن يبيع جزءا من اقطاعات الهيئة ، فكان لابد له من الرجوع الى المجلس العام ، كذلك فى حالة قبول عضو جديد ، على المقدم أن يرجع للمجلس أيضا • كما كان للمقدم حاشية تتكون من أحد الرهبان واثنين من الكتاب أحدهما للغة العربية ، ومساعد وبعض خدام الخيول ، كما

---

(١) King, op. cit., p. 64.
Benvenisti, op. cit., p. 62
(٢) King, op. cit., p. 159

قام على خدمة المقدم عدد كبير من الخدم (١) . كما كان من حق المقدم امتلاك ثلاثة خيول ، تمييزا له عن الفارس الذى يسمح له بجوادين فقط .

وكان المقدمون يستخدمون أختاما Seals خاصة بهم ، فكان خاتم مقدم الداوية منقوشا عليه معبد سليمان وهو مكان اقامة الهيئة الأول ، كما وجد خاتم خاص بالهيئة أيضا نقش عليه فارسـان يمتطيان جوادا واحـدا دليلا على الفقـر والتقشف (٢) . ويذكر لنـا ديلافيـل لروا Delaville le Roulx أن مجموعة أختام الاسبتارية عثر عليها شبه كاملة ، فقد حفظها أفراد الهيئة فى اسطوانات من الرصـاص مما جعلها عظيمة القيمة ، وهى لا تزال موجودة حتى الأن بجزيرة مالطة ، المقـر الأخير للهيئة (٣) . كما يذكر كنج أن مقدم الاسـبتارية بالشـام كان يستخدم ثلاثة أختام لكل منها غرض يختلف عن الآخر ، وبذلك يتضح أن مقدمى الهيئات استخدموا الأختام تماما كما كان متبعا لدى ملوك وبابوات الغرب الأوروبى .

كذلك استخدم ممثلو المقدم فى أقاليمهم أختاما خاصة بهم ، فمثلا خاتم مارشال الاسبتارية نقش عليه فارس بملابسه الحربية حاملا راية الهيئة ، أما قائد جزيرة قبرس فقد نقش على خاتمه سفينة بدون صارى .. وهـكذا (٤) .

وعندما يموت المقدم ، كانت تقام بهذه المناسبة صـلوات جنائزية تستمر سبعة أيام (٥) ، وكان مقدمو الهيئة يدفنون فى كنيسة الهيئة بعكا ،

---

(١) Bordonove, Il Rogo dei, Templari, p. 76

لوحظ من وثائق الهيئات ان الاسبتارية والتيوتون وامراء انطاكية استخدموا اللغة الفرنسية منذ عام ١٢٣٥ ، أما بعـد عام ١٢٥٠ فقـد استخدموا اللغة الفرنسية الدارجة بشكل عام ، كما اقتصر استخدام اللغة اللاتينية على الادارات الدينية ، هذا ومن المعروف ان الداوية والاسبتارية عرفوا اللغة العربية واهتموا بها .

انظر ٥

Le Roulx Delaville, Les Archives La Bibliothéque et le tresor de l'Ordre de Saint Jean de Jesus a Malthe, p. 12

(٢) Mills, op. cit., Vol. I, p. 352

(٣) Le Roulx, op. cit., p. 48

(٤) King, op. cit., p. 315

(٥) Ponsoye, op. cit., p. 106

والدليل على ذلك أنه تم العثور على قبر ، أغلب الظن أنه لمقدم الاسبتارية بيير فيلبريد ، وقد كتب عليه تاريخ ذلك المقدم كما نقش عليه الصليب رمز الهيئة وزهرة فرنسا المعروفة باسم Fleurs de Lys (١) .

وكان يعاون المقدم فى ادارة أملاك الهيئة بالشرق ، هيئة من كبـار الموظفين عرفوا باسم وكلاء الشام Bailiffs of Syria وقد تألفت هذه الهيئة من البرسبتور والمراقبين والقادة ، كذلك كان يوجد وكلاء فى كل من عكا وانطاكية وأرمينيا وقبرس ويافا وطرابلس وصور (٢) .

أما سلطة المقدم فكانت ، كما سبق القول ، مقيدة بقرارات المجلس العام وهى أعلى سلطة تشريعية فى الهيئة ، ويخضع المقدم لقرارات ذلك المجلس الذى يمثل أعلى سلطة تنفيذية فى الهيئة . وكان للمقدم حق عقد هذا الاجتماع الذى يضم الرؤساء الديريين ووكلاء الشام ووكلاء من الغرب وهم ممثلو المقدم فى شتى مراكز الهيئة سواء فى الشام أو فى الغرب . وكان من حق هؤلاء المندوبين أو الوكلاء ، ارسال مندوبين عنهم لحضور المجلس العام الذى قد يستمر انعقاده لمدة عشرة أيام ، ويفتتح عادة بمراسم دينية ثم يعلن المقدم أعمال المجلس وبرامجه ، ثم يقدم كل راهب تقريره ومقترحاته ومطالبه ، كل حسب أقدميته ، فكان المجلس يبدأ عادة ببحث مطالب وتقارير المندوبين الديريين ثم مندوبى الشام ثم مندوبى الغرب ، يلى ذلك سماع الشكاوى ثم يبت فيها ، وأخيرا تعلن القوانين المقترحة وتناقش عن طريق لجنة باستشارة المقدم .

كما يتم فى المجلس انتخاب الموظفين الجدد ثم تقـدم تقارير نهائية والمطالب والأسئلة ، ثم يلقى برايور الهيئة على المجلس الصلاة ، وبذلك ينهى المجلس انعقاده (٣) . وكان المجلس ينعقد مرة كل سنة واحدة على أن يحضره جميع أفراد الهيئة بالشام ، أما مندوبو الأقاليم بالغرب فكان لابد لهم حضور الاجتماع مرة كل خمس سنوات (٤) .

٢ — الفرسان من طبقة النبـلاء : Knights

وكان الفرســان أهم وأكبر فئات هيئة الداوية والاسـبتارية على

(١) Benvenisti, op. cit., p. 32
(٢) King, op. cit., p. 74
(٣) Ibid., p. 75
(٤) Ency. Univ., Vol. 15, Art. Templiers, p. 920

الاطلاق ، فقد تولت هـذه الطبقة أهم المناصـب الادارية والتنفيذية بالهيئة ، حتى أن السلطة الحقيقية كانت فى أيدى هذه الفئة ، كما أنهم تميزوا عن باقى أفراد الهيئة ، حتى أن تاريخ الهيئات لا يسمع فيه الا عن طبقة الفرسـان • وبتطوير الهيئات فى المجـال الحربى زادت أهميـة الفرسان ، فلم يقبل فى صفوف الهيئة الا أفراد من طبقة الفرسان أصلا ، وهى طبقة الارستقراطية الاقطاعية المعروفة فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى ، وهى الطبقة القادرة على تقديم الخدمة العسكرية •

وكان قانون هيئة الاسبتارية ينص على أن يكون العضـو الجديد قد نصب قبل التحاقه بالهيئة فارسا على يد أمير كاثوليكى ، وان لم يكن قد تم له ذلك فان الهيئة تمنحه هذا الشرف قبل قبوله عضـوا فيها • وحدث بعد عدة سنوات من تطور الهيئة ، أن بدأ فرسان أوروبا يضعون شعارات على دروعهم وأسلحتهم (١) ، ولذلك فان الهيئة بدأت تشـترط فى العضو الجديد أن يكون من النبلاء ، ولذلك هرع كثير من النبلاء والأمراء الى تقديم أطفالهم للالتحـاق بالهيئة حتى تقوم بتربيتهم تربية عسكرية فى مراكزها بالغرب ، وعندما يبلغ العضـو سن الرجال ، فانه ينصب فارسا بالهيئة دون أية صعوبة (٢) •

وكانت عملية قبول عضو جديد بهيئة الداوية تتم بحضور المجلس العام ، ويستشير المقدم ذلك المجلس فى قبول المتقدم ، فاذا قبل فان العضو توجه اليه عدة أسئلة ، كما يظل المقدم يذكره بالصعوبات التى سوف تواجهه ، فاذا وافق العضو على ذلك ، كان عليه أن يركع أمام المقدم معلنا رغبته فى الانتماء للهيئة ، ثم يعود المقدم مرة أخرى فيذكره بصعوبة مهمته ، وضرورة طاعة قوانين الهيئة مدى الحياة ، ثم يطلب من المتقدم الخروج خارج قاعة الاجتماعات لاعادة النظر فى قراره مرة ثانية، ثم يطلب المقدم من المجلس قراره بالنسبة للمتقدم الجديد ، فاذا تمت الموافقة عليه ، فان المقدم يطلب اقامة الصلاة ثم يقوم بوضع رداء الهيئة على كتفى المستجد Postulant ثم يقبله على فمه قبلة الاخاء — وهى

(١) King, op. cit., p. 319

(٢) Mills, op. cit., Vol. I, p. 246

عادة فرسان الداوية ــ وبذلك تنتهى مراسم الاحتفال بقبول العضو الجديد (١) •

وسنت عدة قوانين لتنظيم حياة الفارس ومعالجة جميع نواحى نشاطه بكل دقة ، فكان للفرسان نظام صارم ساروا عليه ، كما فرضت عليهم عقوبات شديدة اذا ما خالفوا هذا النظام ، وقد وصلت هذه العقوبات الى حد الطرد من الهيئة لمدة عام أو يوم أو السجن • أما العقوبات الخاصة بالجرائم الكبرى مثل التخلى عن قواعد الفروسية أو التمرد أو التآمر أو الهروب أمام العدو ، فقد عولجت هذه الجرائم بعقوبات كالتى توقع على المخالفين للدين والهرطقة (٢) • أما عقوبة طرد الفارس لمدة معينة ، فكانت توقع عليه فى حالة ارتكابه بعض الجرائم الصغرى كعصيان أمر القائد أن معاشرة النساء ، وفى حالة ارتكاب أمور أكثر بساطة فان العقوبة تقضى بطرد الفارس لمدة يومين أوثلاثة من الهيئة أو الصيام لمدة معينة (٣) • وفى حالة قيام راهب بضرب أخيه ، فانه يحكم عليه بالصيام أربعين يوما ، أما اذا تنازع راهبان فانه يحكم عليهما بتناول طعامهما معا على الأرض ، لمدة شهر كامل ، ولا يجوز لهما طرد الكلاب اذا ما اقتربت من طعامهم ، كنوع من الاذلال والمهانة • كما نص المرسوم البابوى الأول الخاص بالاعتراف بالهيئة Omne Datum Optimum على تحريم الفارس من التخلى عن عضوية الهيئة بهدف الانتماء الى هيئة أخرى الا بعد أن يأذن له المجلس العام بذلك •

٣ ــ الفرسان من غير طبقة النبلاء (السرجنت Serjens) (*)

كانت طبقة الفرسان تعرف فى العصور الوسطى باسم Knights أو Milites ، ولكن بقدوم القرن الثانى عشر ، كان لابد من التفرقة بين

(١) Ollivier, op. cit., p. 65
Mills, op. cit., Vol. I, p. 354
(٢) Ambroise, op. cit., p. 369
(٣) Ency. Univ., Vol. 15, Art. Templiers, p. 922

(*) كلمة Serjiens أو Serviens فى اللغة الفرنسية القديمة تعنى الشخص من الطبقة الدنيا وهى مرادفة لكلمة Servant الحديثة ، والمشتقة من كلمة Serviens اللاتينية حيث بتغير حرف V الى G فاصبحت سرجنت •
انظر : Mills, op. cit., Vol. I, p. 342

مختلف فئات الفرسان ، خاصة بين الفرسان من طبقة النبلاء والفرسان من غير طبقة النبلاء الذين حاربوا أيضا على ظهور الخيل وسموا Servientes loricate أو Serjens a Cheval (١) • وما أن نصل الى القرن الثالث عشر ، حتى أصبح اسم فارس أو Chevalier قاصرا على طبقة محدودة من الشخصيات البارزة من طبقة النبلاء ، وارتفعت طبقة السرجنت الى الطبقة التى تلى طبقة الفرسان النبلاء مباشرة (٢) •

وكان لكل فارس من طبقة النبلاء اثنان من السرجنت ، وتذكر بعض المراجع أنهما لم يكونا من الأتباع للفارس أثناء الحرب ، أما الذين كانوا يصحبون الفارس كأتباع الى ساحة القتال هم فئة سميت باسم Armigeri و Ecvyers ، وهذه الفئة تقوم بالعناية بأمتعة الفارس وأسلحته ولكنها لا تشترك معه أثناء الحرب ، فكان لكل داوى أو اسبتارى اثنان من الأتباع يقومان بخدمة الفارس وينسحبان عند ابتداء المعركة لافساح المكان للفارس •

وكان يشترط فى السرجنت أن يكون منحدرا من عائلة محترمة ، وأن لا يكون قد ارتكب أى عمل شائن ، كما حارب هؤلاء جنبا الى جنب مع الفرسان ، فكان لكل منهم جوادان • وكان السرجنت يمكنه تولية منصبين هامين فى الهيئة وهما : منصب قائد فرقة التركبولية ويسمى Turoopelier وهى فرق الخيالة الخفيفة المكونة من طبقة الأفراخ ، ومنصب قائد خدام أو أتباع الفرسان واسمه The Master Esquire

٤ — الرهبان الخدام Serving Brothers of Office :

وهؤلاء الرهبان كانوا يقومون بالأعمال المنزلية داخل الدير أو المستشفى ، وهى الأعمال الكادحة ، ولم ينتموا للهيئة بالعضوية فكانوا بمثابة خدم تقاضوا أجرا وتعرضوا للطرد • أما الأماكن الهامة التابعة للهيئة فقد قام على الخدمة فيها رهبان موثوق فيهم انتموا للهيئة بالعضوية •

---

(١) Smail, op. cit., p. 106

(٢) King, op. cit., p. 70

٥ — الأعضاء العلمانيون Confraters & Donats :

كان فى كل من هيئتى الداوية والاسبتارية أعضاء علمانيون انتسبوا للهيئتين وتمتعوا بالامتيازات الدينية فيهما ، حتى كان لهم حق الدفن فى مقابر الهيئتين . والتزم هؤلاء الأعضاء ببذل ما فى وسعهم لحماية مصالح الهيئة ومنحها الهبات الكثيرة ، خاصة فى يوم عيد القديس يوحنا المعمدانى ، ومثال ذلك أنه عندما انتمى ريموند الثانى كونت طرابلس لهيئة الاسبتارية كعضو علمانى ، فانه منح الهيئة عام ١١٤٢ منحة ضخمة تكونت من حصن الأكراد وحصون أخرى فى منطقة رفانية والبقاع وغيرهما (١) .

وكان يقبل عضوية هؤلاء الأعضاء العلمانيين رئيس أحد مراكز الهيئة بعد موافقة المقدم على ذلك . وكان من أهم طبقة الأعضاء العلمانيين فئة يطلق عليها اسم Donats وهم أعضاء من أصل نبيل ، تمتعوا بجميع امتيازات الهيئة وفرضت عليهم نفس الالتزامات التى فرضت على باقى الأعضاء العلمانيين ، كما كان لهؤلاء الحق فى الاقامة فى منشآت الهيئة دون مقابل ، فقد رحبت الهيئة بعضوية هؤلاء الأعضاء النبلاء ترحيبا شديدا ، فكان أغلب هؤلاء نبلاء جاءوا مع الحملات الصليبية منحوا الهيئة هبات قيمة فى مقابل التمتع بامتيازاتها (٢) .

وكان الأعضاء العلمانيون مثلهم مثل باقى أعضاء الهيئة ، يخضعون لسلطة المقدم .

أما التنظيم الادارى الذى كان يرأسه المقدم أيضا ، فكان يتألف من :

١ — البرايسور Prior :

وهو رئيس الرهبان الديريين بالهيئة ، ويمارس عليهم سلطة الأسقف فى أسقفيته .

٢ — البرسبتور Preceptor

وهو أكبر الموظفين الاداريين بعد المقدم ، ينوب عنه فى حالة غيابه أو مرضه ، وهو عادة يلازم المقدم وعرف باسم Preceptor of the Hospital

(١) Fliche et Martin, op. cit., P. 309.

(٢) King, op. cit., P. 71.

ولكن بعد استرداد المسلمين لبيت المقدس عرف هـذا الموظف باسـم Grand Prèceptor أو Grand Commandeur (١) وهو عبارة عن مراقب تمثلت وظيفته فى الاشراف الكامل على أملاك الهيئة ، فكان مسئولا عن جميع المواد الاستهلاكية للهيئة ، وهذه الوظيفة ربما تطابق وظيفة المفتش أو المراقب فى العصر الحديث (٢) .

وكان لكل اقليم مراقب أو قائد ، وكان أعلاهم فى المرتبة هو مراقب أو قائد منطقة بيت المقدس وهو بلقب Commander of Land & Kingdom of Jerusalem وكان هـذا الموظف يقـوم فى نفس الوقت بوظيفة مدير الخزانة Treasurer فى أوقات السلم ، كمـا كان مسئولا عن ميناء عكا حيث كان للهيئة سفن عديدة بها . كذلك كان يوجد قائد أو مراقب لكل من انطاكية وطرابلس ، هذا بالاضافة الى قادة مراكز الهيئة بالغرب (٣) .

٣ ــ المرشـــال Marchal :

ويسمى أيضا كندسطبل ، وهو منصب عسكرى ظهر فى وقت متأخر لتأسيس الهيئة . وكان المارشال أو الكند سـطبل مسئولا عن الادارة العسكرية للهيئة وتوفير الأسلحة والآلات الحربية ومؤن المحاربين (٤) . كما كان المارشال هو الذى يعطى اشارة بدء القتال وذلك برفع راية الهيئة Baussant ، واذا قتل المارشال فى المعركة يتولى القيادة بعده القائد أو البرسبتور .

٤ ــ الاسبتـــارى Hospitaller :

وهو موظف ادارى أيضا مسـئول عن المستشفى ومخازنها ، ويتبع الاسبتارى كل الأطباء والمساعدين العاملين بالمستشفى ، كما كان مسئولا عن توزيع الصدقات بالمستشفى ، ولذلك سمى أحيانا بالمحسن أو المتصدق Almoner

٥ ــ الخـــازن Drapier أو Grand Conservator

وهو المسئول عن جميع ملابس الهيئة ، وهو تابع لبرسبتور أو مراقب الهيئة .

---

(١) Fliche et Martin, op. cit., P. 310.

(٢) Bordonove, op. cit., p. 150.

(٣) Archer, op. cit., P. 171.

(٤) Encyc. Univ., Vol. 15, Art Templiers, P. 920.

٦ — مدير الخزانة او Treasurer

وهو المسئول عن أموال الهيئة وحساباتها (١) .

٧ — قائد الأسطول Admiral

وهو المسئول عن أسطول الهيئة ، وقد ظهر هذا المنصب بعد أن أصبح لكل من الداوية والاسبتارية أساطيل فى البحر المتوسط ، وذلك بظهور خطر القراصنة الذى هدد السفن الحربية ، فاقتضت الضرورة وجود سفن حربية لحماية أى سفينة تابعة للهيئة . كما كان يوجد للهيئات منارات فى اللاذقية وجبله وصور وعكا وموانى أخرى ، كما استخدمت الاشارات النارية والغطاسين (٢) .

أما قلاع الفرسان الرهبان فكانت هى الأخرى لها نظامها الخاص ، وكانت قلعة المرقب للاسبتارية نموذجا رائعا لحياة الرهبان داخل القلاع ، فهذه القلعة كانت بمثابة عاصمة عاش فيها مئات من الرهبان بصفة دائمة تحت قيادة عسكرية ، ويسمى مستحفظ القلعة Chatelain (*) يساعده Vice-Chatelain والمراقب العسكرى Praeceptor Militum ، ويتبع هؤلاء القادة مئات من الجنود الصليبيين والتركبولية (٣) . ومن الجدير بالذكر أن المحارب من التركبولية هو ذلك المحارب المنحدر من أب مسلم وأم مسيحية ، وهى طبقة الأفراخ التى ظهرت فى عصر الحروب الصليبية ، واستعان الصليبيون بطبقة الأفراخ هذه التى هى فى الأصل من أبناء البلاد الأصليين ، فأصبح هؤلاء بمرور الوقت يحاربون فى صفوف الجيش الصليبى بشكل ثابت ، بعد أن كان هؤلاء التركبولية يشكلون فرق القوات المساعدة .

واستخدمت كل من الداوية والاسبتارية جنود التركبولية فى صفوفهما ، حتى أن منصب قائد فرق التركبولية Le Grand Turcopolier كان من المناصب العسكرية الهامة بالهيئة . وكان التركبولية يحاربون

(١) King, op. cit., p. 73
(٢) Conder, op. cit., p. 212
(٣) Cahen, op. cit., p. 516
(*) وقد وردت كلمة « قسطلان » فى كتاب السلوك للمقريزى وهو معرب عن اللفظ اللاتينى Castellamis . ويقابله فى الفرنسية Chatelain بمعنى مستحفظ القلعة .
انظر : المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٤ .

بنفس أساليب القتال المعروفة فى الشرق وخاصة فيما يختص بحركة الرمى بالقوس والسهم من فوق ظهور الخيل (١) • وقد ورد ذكر التركبول فى بعض المصادر الاسلامية المعاصرة منها ابن القلانسى صاحب « ذيل تاريخ دمشق » ، كما أورد هذا المؤرخ المعاصر فى كتابه كلمة « السرجندية » دلالة على معرفة المسلمين ببعض نظم الفرسان الرهبان الداخلية (٢) • كذلك ذكر الأمير أسامة بن منقذ فى « كتاب الاعتبار » كلمتى « السرجنت » ، و « التركبول » ، كما تبين معرفته بأن هؤلاء الجند كانوا من آباء اتراك سلاجقة مسلمين وأمهات يونانيات (٣) • كما ذكر ابن واصل التركبولية الذين كانوا من جملة الخارجين من حصن الأكراد والمرقب فى حملتهم على بعرين فى عهد الملك المنصور صاحب حماة (٤) •

وكان أهم قادة حصون الاسبتارية هم قادة حصنى المرقب وحصن الأكراد ، أما قائد أرمينيا فكان فى العادة هو نفسه قائد حصن سلوقية • كذلك كان يوجد قسطلان لقلعة كوكب وبيت جبرين وغيرهما من الحصون الهامة (٥) •

أما التنظيم الادارى الاقليمى الخاص بادارة الأملاك الواسعة التى امتلكتها هيئات الفرسان فى كل من الشرق والغرب ، انما كان يربطها نظام ادارى محكم ، فقد اشتهرت كل من الداوية والاسبتارية بكفاءة الادارة والتنظيم (٦) • وانقسمت أملاك هيئة الاسبتارية فى الغرب الى عدة مقاطعات Commanderies وهذه المقاطعات كانت كل منها مستقلة بذاتها فى الادارة والتنظيم ، وكانت كل مجموعة من المقاطعات تمثل ما يسمى بالأقاليم أو Prieuries ، حيث نظمت كل مجموعة أقاليم منها بلاد Nations يرأس كل من هذه البلاد الكومندر أو القائد Commandeur (٧) •

وأطلقت كلمة Preceptories على أقاليم الداوية والاسبتارية بأوروبا ، ثم استخدمت كلمة Commandery للدلالة على أقاليم الاسبتارية

(١) Smail, op. cit., p. 112

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٢ •

(٣) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ٥٠ — ٧٠ •

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٦ •

(٥) King, op. cit., p. 74

(٦) Archer, op. cit., p. 175

(٧) Fliche et Martin, op. cit., p. 310

وحدها منذ عام ١٢٦٠ لتمييزها عن أقاليم الداوية (١) . وجدير بالذكر أن هيئة الاسبتارية كان لها العديد من الأقاليم والمقاطعات والبلدان فى الغرب الأوروبى ، حتى أن فرنسا كانت مقسمة الى ثلاثة أقسام أو أقاليم كبرى وهى اقليم فرنسا ويتكون من خمس وأربعين مقاطعة ، يرأس كلا منها قائد ، ثم اقليم أكويتين Priory of Aquitaine ويتكون من خمس وستين مقاطعة ، ثم اقليم شامبنى Priory of Champagne ويتكون من أربع وعشرين مقاطعة مما يدل على أهمية وكثرة أملاك الهيئة فى الغرب (٢) .

وكان المركز الاقليمى فى الشرق يرأسه اما قائد عسكرى أو علمانى ادارى وكانت هذه المراكز الادارية فى الغالب قلاعا أو حصونا تقع فى مناطق زراعية غنية مهمتها نقل عوائد الهيئة من المناطق المجاورة الى الخزانة العامة للهيئة ، وهى تلك الموارد الضخمة التى حققت للهيئة أموالا ضخمة ساعدتها على القتال فى جبهتى الشام والأندلس . وكان المركز الادارى لهيئة الداوية عبارة عن قعلة أو بيت اقطاعى على غرار البيوت الاقطاعية Manor House السائدة فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وكان يرفع على هذا المركز راية الهيئة ، أما بداخله فكان يقيم الفرسان ، كما كان يوجد مخازن للغلال وكنيسة وقاعة لاجتماعات الهيئة ، ولذلك فان المركز الاقليمى للهيئة كان عبارة عن مركز اقطاعى يتم بواسطته تحصيل الأموال والمتحصلات العينية من الاقطاعات المحيطة ، من حبوب وخمور وأخشاب ومواد غذائية ، كذلك فان الهيئات كانت تقوم ببيع الفائض من منتجات مزارعها (٣) .

كذلك كان يوجد موظف ادارى باسم Casalier وهو راهب من رهبان الهيئة يقوم بادارة المزرعة أو القرية التابعة للهيئة ، ومن المعروف أن كلا من الداوية والاسبتارية امتلكتا مئات من القرى والمزارع بالشام (٤) .

---

(١) Mills, op. cit., Vol. I, p. 346

(٢) وثيقة بتاريخ سنة ١٣٩٧م Peacock, on an Early French Deed

(٣) Bordonove, op. cit., p. 150

(٤) Fliche et Martin, op. cit., p. 309
Benvenisti, op. cit., p. 267
Le Roulx, op. cit., p. 25

وجاء فى قانون هيئة الداوية المنظم لحياة الفارس عدة مواد تتعلق بالمأكل والملبس والمعيشة والعقوبات ، وقد سارت كل من هيئة الاسبتارية والتيوتون على هـذا القانون ، ربما مع بعض الاختلافات البسيطة • ونصت المواد الخاصة بقانون الداوية بشأن مأكل الفرسان وسلوكهم على أن يتناول الرهبان الفرسان طعامهم فى شكل مجموعات ، وأن يشترك كل اثنين منهما فى الطعام من وعاءواحد ، وأن يتم ذلك فى سـكون تام حيث يقوم الرهبان الفرسـان بسماع قراءة من الانجيل أثناء تناولهم وجبتى الافطار والعشاء ، كذلك كان يقدم للفرسـان اللحم ثلاث مرات أسبوعيا ، بحجة أن كثرة اللحم تضر بالصحة ، على أن يقدم لهم وجبة مضاعفة يوم الأحد باستثناء الخدم والقائمين على الخدمة فى اسطبلات الهيئة • وكان للفرسـان حرية الاختيار بين ثلاثة أنواع من الخضر أيام الاثنين والأربعاء والسبت ، ذلك لأنه فرض عليهم الصـيام أيام الجمعة والأحد ، كذلك فى يوم الفصح وعيد جميع القديسين ، ما عدا من كان منهم مريضا أو جريحا (١) • ثم يقوم الرهبان الفرسان بالحمد والشـكر بعد كل وجبة داخل الكنيسة الملحقة بالمطعم ، أما الصدقات والفائض من طعام الرهبان ، فكانت توزع على الفقراء • وكان يسمح للرهبان الفرسان بقليل من الخمر قبل النوم •

وكان للاسبتارية فى بيت المقدس مبنى ضخم يسـمى La Vote أو مخزن الهيئة ، وكان يوجد بين هذا المخزن الضخم ومطعم الهيئة نفق يجرى تحت الأرض لتسهيل نقل الطعام ، كما كان للاسـبتارية فى عكا مطعم وفندق لاقامة الفرسان المحاربين والمارشال (٢) •

وعالجت قوانين الداوية جميع نواحى حياة الفارس الراهب ، فتناولت البنود من البند السابع عشر الى الثالث والعشرين ، ملبس الفارس بكل دقة ، فقد نص القانون علم : أن يكون الزى موحد اللون اما أبيض أو اسود أو رمادى ، وقد تم اختيار اللون الأبيض دليلا على الطهر الكامل الذى يساعد على التكامل الصحى ، كما نص أن يكون الزى بسيطا وغير مزين بالفراء الثمين فلم يسمح للفرسان الا بارتداء فراء الخراف والماعز • أما اذا أظهر أحد الفرسان أنه يشتهى ارتداء زيا أجود من ذلك ، فان

(١) Bordonove, op. cit., p. 23
(٢) Benvenisti, op. cit., p. 109

الهيئة تقدم له رداء من نوع ردىء كنوع من الاذلال ، كما كان على كل فارس أن يتصدق بردائه القديم للرهبان القائمين على خدمة الجياد أو على الخدم والفقراء ، ومنع الفرسان من ارتداء أحذية ثمينة أو ذلك الحذاء الذى يغطى معظم الساق كالذى ارتداه معظم فرسان العصور الوسطى (١) • علما بأنه كان يسمح للفرسان فى المواسم الحارة بارتداء الملابس القطنية •

وقد أصدر البابا انوسنت الرابع مرسوما بابويا سنة ١٢٤٨ حدد فيه شكل الرداء الخارجى لهيئة الاسبتارية وسمح فيه لأعضاء الهيئة بعدم ارتداء زى الهيئة Cappa Clausa أثناء القتال فوق الملابس الحربية لأنه يعوق حركة الفارس ، وأتاح لهم هذا البابا ارتداء رداء واسع يساعدهم على الحركة أثناءقيامهم بالواجبات الحربية (٢) • كما ارتدى فرسان الداوية والاسبتارية رداء حرب أو زردية وغطاء للرأس Casque وحملوا اسلحتهم المكونة من سيف وقوس وسكين وخنجر وعصاه سميكه (٣) •

وكان الفارس يمتلك رداءن فقط وسروالين وزوجين من الجوارب الطويلة ومعطف للشتاء وآخر للصيف وحرملة Cape لها غطاء للرأس • كما كان لكل فارس سرير خاص به ، وتسلم له الهيئة ثلاثة أغطية وكلة (ناموسية) ، وثلاث حقائب جلدية لوضع أمتعته ، وكان يصرف للفارس أيضا أوعية للطعام (٤) • وقد أطلق أفراد الداوية لحياهم متأثرين فى ذلك بالعرب المسلمين ، ولم يكن أعضاء الهيئات الأخرى يتبعون ذلك التقليد ، ولكن فرسان كل من الهيئتين كانوا يقصون شعورهم وذلك خلاف لما كان متبعا عند فرسان العصور الوسطى (٥) •

وكان للفارس سلطة محددة ، كاعطاء صدقة بسيطة ولكن لم يكن مسموحا له بقبول هبة من أحد العمانيين الا باذن من المقدم ، أو بتغيير أسلحته أو تعديلها ، أو الاستحمام أو تعاطى الأدوية أو الاختلاط بخدمة فى أى وقت يختاره ، كما لم يسمح له أيضا بتغيير مكان نومه أو مكان

---

(١) Bordonove, op. cit., p. 22
(٢) King, op. cit., p. 278
(٣) Ency. Univ., Vol. 15, Art. Templiers, p. 922
(٤) Bordonove, op. cit., p. 85
(٥) Mills, op. cit., Vol. I, p. 355

طعامه أو ترك خيمته الا فى أوقات محددة ، أو التجول بحرية ، خاصة فى ساحة القتال ، واذا فعل ذلك فانه يتعرض لأشد أنواع العقاب (١) .

ومن المعروف أن فارس الداوية أو الاسبتارية لم يكن تدفع له فدية اذا ما وقع فى الأسر ، وقد اتبع هذا التقليد فى بداية عهد الصليبيين بالشام ولكن بتسيير الظروف ، تغيرت قوانين الهيئة بخصوص هذا الموضوع ، والدليل على ذلك أن وفدا من الداوية والاسبتارية ذهب الى سلطان مصر الصالح أيوب لتقديم فدية أسراهم . فلم يكن الداوى أوالاسبتارى يملك شيئا من الناحية النظرية فقط ، علما بأن الهيئة كانت تمتلك الكثير ، حتى أصبح الفرسان فيها بمثابة أمراء أو سادة اقطاعيين ، يكونون دولة داخل الدولة الصليبية الكبيرة بالشام (٢) .

كذلك حرم على الفارس أقتناء أشياء خاصة فى خزانة مغلقة أو أن يكون له مراسلات خاصة ، كما لم يسمح للفرسان بالتباهى بعمل قاموا به أو مغامرات سابقة لدخولهم الهيئة ، كما حرم على الفرسان أيضا امتلاك الأسلحة المزينة بالذهب والفضة ، أما اذا أهديت للهيئة أسلحة مزينة أو سروج قيمة فان الهيئة تقوم بطلائها لتغطية الذهب أو الفضة . كذلك حرم على الفرسان صيد الحيوانات أو اقامة مباريات للصقور أو معاشرة النساء ، أو ممارسة لعبة الشطرنج التى كانت منتشرة انتشارا واسعا بين فرسان العصور الوسطى (٣) .

وقد التزمت الهيئة بتكريم الراهب الذى يبلغ سن الكبر أو الذى يتعرض لمرض خطير ، أما اذا مات أحد الأعضاء فان الهيئة تقيم مراسم دينية تستمر لمدة سبعة أيام وتوزع الصدقات للفقراء لمدة أربعين يوما . أما اذا توفى فارس علمانى ، كان يقوم بخدمة الهيئة تكتفى باطعام الفقراء لمدة سبعة أيام فقط . وجدير بالذكر أنه سمح للمتزوج أن ينتسب لهيئة الداوية ، على أن ترثه الهيئة مع زوجته مناصفة ، ولكن لم يسمح للفرسان الرهبان أن يكونوا آباء روحيين أو أن يكون لهم آباء روحانيون . وقد

---

(١) Bordonove, op. cit., p. 85

(٢) Mills, op. cit., Vol. I, p. 282

Fliche et Martin, op. cit., p. 313

Lamb, op. cit., p. 296

Archer, op. cit., p. 287

منع قانون الداوية الفرسان معاشرة النساء منعا باتا بحجة أن الشيطـان هو أقدم أصدقاء النساء ، كما حرم على الفارس تقبيل أمه أو أخته أو أى من قريباته (١) .

وبالاضافة الى هذه القوانين والتنظيمات الدقيقة التى ميزت كل من هيئتى الداوية والاسبتارية ، كانت هيئة الاسبتارية تتميز بملكية عـدد كبير من المستشفيات لرعاية المرضى والجرحى ، وانتشرت مستشفيـات الاسبتارية فى الشام الصليبى كله وكان المستشفى الرئيسى لها يقع داخل الدير أو القيادة العامة للهيئة فى مدينة بيت المقدس بجانب قصر المقـدم فى المدينة المقدسة (٢) .

وكان الاسبتـارى هـو الذى يرأس المستشفى ويتبعـه الأطبـاء ومساعدوهم والقائم على توزيع الصدقات من داخل المستشفى . وقـد أصبح المستشفى القديم فى أواخر القرن الحادى عشر لا يستوعب ذلك العدد الكبير من المرضى الحجاج ، ولذلك أنشأت كنيسة القديسة مريم المجدلية St. Mary Majora ثم كنيسة القديس يوحنا العمـدانى التى أشرف عليها الراهب جيرار قبل مجىء الصليبيين الى الشام . وقد جاء عن الرحالة الألمانى جون فورزبرج John of Wurzburg أن مبنى المستشفى جميل وضخم وبه حجرات عديدة بكل حجرة ستة أسرة ، كما شهد هذه الرحالة أن المستشفى استوعبت عددا كبيرا من الحجاج حتى وصل عـدد الأسرة فيها الى ألف سرير ، كما استوعبت المستشفى ــ خلال زيـارة هذا الرحالة للمدينة المقدسة ــ أكثر من الفين من المرضى والجـرحى . وكانت المستشفى تقدم الخدمات للمرضى خارجها وتعطى الصدقات للفقراء حتى أن مصروفات المستشفى اليومية كانت كثيرة بحيث يصعب حصرها، كما كان لكل من النساء والرجال حجرات Wards خاصة بكل منهم ، ويقوم على خدمة كل من هذه الحجرات تسعة من الرهبان وعدد كبيرا من الأطباء . وكان لهيئة الاسبتارية عدة قوانين تتعلق بطعام ونوع وملابس المرضى ، كما نصت القوانين على واجبات والتزامات كل من الرهبـان والأطباء نحو المرضى (٣) .

(١) Bordonove, op. cit., p. 26

(٢) King, op. cit., p. 67

(٣) Benvenisti, op. cit., p. 62

وقد نال صليبى الشرق رعاية طبية أكثر من تلك التى نالها اخوانهم فى الغرب ، فقد وجد بالشام وحدها مستشفيات عديدة على درجة كبيرة من الرقى . ويرجع تقدم المستشفيات فى الشرق الصليبى الى تأثير تلك المؤسسات بالبيمارستانات الاسلامية التى وصلت الى درجة كبيرة من التقدم فى تلك العصور ، كما كانت مستشفيات الشرق الصليبى نموذجا اقتدى به الغرب الأوروبى (١) .

وذكر المؤرخ وليم الصورى فى كتابه أنه فى بداية عهد الصليبيين بالشام كان ينظر للاطباء المسلمين واليهود والشرقيين بعين الثقة لتقدمهم علميا ، كما يذكر لنا أسامة بن منقذ عن مدى تأخر الطب عند الصليبيين وتقدمه عند المسلمين (٢) .

---

(١) Benvenisti, op. cit., p. 381

(٢) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

الفصل السادس

هيئة الفرسان التيوتون فى بلاد الشام

فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر

لعب الفرسان التيوتون دورا ثانويا فى المجال الحربى والسياسى للصليبيين فى بلاد الشام اذا ما قورن بنشاط الداوية والاسبتارية . ويبدو مما ذكر فى المصادر والمراجع المختلفة أن عدد الفرسان التيوتون لم يكن كبيرا ، كما لم يهتم أفرادها كثيرا بأمور الشرق الصليبى . ولا ريب فى أن وجود الاسبتارية والداوية لفترة طويلة فى الشرق كقوة عسكرية وسياسية مستقلة قبل استقلال التيوتون بوقت طويل جعل للهيئتين كيان عسكرى وسياسى طغى على وجود أى هيئة رهبانية عسكرية أخرى سواء كانت الهيئة التيوتونية أو غيرها . وتذكر المصادر الصليبية والمراجع المختلفة اشارات مقتضبة عن هيئة التيوتون يجعل القارىء يدرك أن هذه الهيئة كانت قليلة التأثير فى أمور الشرق الصليبى . ويبدو أن الهيئة نفسها أدركت ذلك الدور الثانوى الذى لعبته فى الشرق وطغيان الهيئتين الكبيرتين على وجودها وجهودها فى الشام مما جعلها تغير مجال نشاطها من الشام الصليبى المنهار الى نشر المسيحية ومحاربة الوثنية فى منطقة أوروبا الشرقية .

وكما سبق أن ذكرنا أن المصادر الأصلية التى تتعلق بتاريخ هيئة التيوتون غير موجودة فى الشرق الاسلامى أو الغرب الأوروبى . وربما وجدت بعض المصادر الضئيلة عن تاريخ هذه الهيئة فى مكتبات بعض الجامعات الأوروبية وفى الاتحاد السوفيتى .

وكان على الباحث فى تاريخ هيئة الفرسان التيوتون أن يجمع عنهم شذرات بسيطة من مصادر تاريخ الحروب الصليبية وبعض المراجع الأوروبية . أما المصادر والمراجع العربية فقد ذكرت هيئة التيوتون بشكل عابر مثل اشتراكهم فى صفوف الصليبيين أثناء قدوم فردريك الثانى الى

بلاد الشام . وكثيرا ما ورد لفظ « الألمان » بشكل عام فى المصادر العربية مما جعله من الصعب معرفة ما اذا كان المقصود بهذا اللفظ الفرسان التيوتون أم الألمان عامة . ورغم هذا القصور فى المصادر والمراجع الا أنه يمكن اعطاء صورة واضحة لنشاط التيوتون فى الشرق وكيف أن فترة مكوثهم فيه لم تكن طويلة بالمقارنة الى تلك المدة التى مكثتها الهيئتان الكبيرتان .

نشاة هيئة الفرسان التيوتون ونشاطها فى بلاد الشام :

ان أقدم المؤرخين لهيئة الفرسان التيوتون هو الراهب بييردى دوسبرج Pierre de Dusbourg الذى كان أحد أعضاء هذه الهيئة . ويذكر هذا المؤرخ أن الهيئة نشأت سنة ١١٩٠ على يد بعض الحجاج الألمان الذين وجدوا فى المعسكر الصليبى أثناء حصار عكا ، بهدف تقديم العلاج والعون للجرحى الألمان ، الذين عجزوا عن التفاهم بلغة الصليبيين السائدة حينذاك وهى الفرنسية . ويذكر بيير أيضا أن هؤلاء الحجاج الألمان أقاموا مستشفى داخل عكا المحاصرة من قلاع السفن حيث استقبلوا فيها جرحاهم من الألمان واهتموا بهم اهتماما بالغا لفت نظر الأمراء ورجال الدين (١) .

وهناك اشارات فى بعض المصادر المعاصرة تبرهن على أن الهيئة تأسست فعلا سنة ١١٩٠ بعكا (٢) . ولكن بعض المؤرخين المعاصرين ومنهم جاك دى فيترى يذكرون أن هذه المؤسسة الخيرية كانت موجودة قبل حصار عكا كما اثبت المؤرخون المحدثون هذا الرأى فيؤكد المؤرخ كاهن Cahen أن هيئة الفرسان التيوتون كانت موجودة منذ الاحتلال الصليبى بالشام باسم Ordre de Sainte-Marie des Teutoniques (٣) . ويقال أيضا انه فى سنة ١١٢٧ تأسست هيئة ألمانية خالصة لخدمة الحجاج الالمان الذين لم يعرفوا لغة البلاد السائدة (٤) ، فقام أحد الحجاج الألمان وزوجته عند زيارتهما للأراضى المقدسة بانشاء مستشفى باسم السيدة العذراء Hospital aof St. Mary of the Germans لخدمة الحجاج الألمان ،

---

(١) Dumesil, op. cit., col. 977

(٢) R.H.C. Tome I , Doc. Arm. Hethoum, p. 478

(٣) Cahen, op. cit., p. 667

(٤) Prawer, op. cit., p. 497

وقام على خدمتهم رهبان عملوا تحت اشراف هيئة الاسبتارية وساروا تبعا لنظام القديس أوغسطين (١) • وفى سنة ١١٤٣ منح البابا كلستين الثانى هيئة التيوتون استقلالا جزئيا ، ويذكر كنج أن ثمة خلاف حدث بين هيئة الاسبتارية وهيئة التيوتون وأن سبب هذا الخلاف غير معروف ويبدو أن الهيئة الألمانية طالبت باستقلالها عن هيئة الاسبتارية ، وقد توسط لانهاء هذا النزاع مقدم الاسبتارية ريموند دى بيسو ، فأصدر البابا كلستين الثانى ذلك المرسوم سنة ١١٤٣ جعل فيه هيئة التيوتون هيئة مستقلة جزئيا على أن يظل الاشراف الاسمى عليها من الاسبتارية (٢) •

وقد ظلت هيئة التيوتون تباشر مهامها الخيرية والانسانية فى مدينة بيت المقدس عن طريق مستشفاها وكنيستها حتى تم للمسلمين استرداد المدينة المقدسة على يد صلاح الدين الأيوبى بعد ستين عاما من انشاء هيئة التيوتون (٣) •

ولقد حدث فى سنة ١١٩٠ أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا أن قام بعض تجار مدينة برمن Bremen ولوبك Lübeck الألمانيين بانشاء هذه المستشفى التى ذكرها المؤرخ الراهب بيير من قلاع السفن لخدمة المرضى الألمان الذين شاركوا فى حصار عكا ولاقوا كثيرا من المصاعب مثل باقى الصليبيين ، أما من قام على خدمة هؤلاء المرضى والجرحى فهم هؤلاء الرهبان الألمان الذين كانوا يعملون فى المؤسسة الخيرية الأولى فى بيت المقدس • وبالتالى يمكن القول أن انشاء مستشفى الألمان أثناء حصار عكا ، ما هو الا استمرار لتلك المؤسسة الخيرية الألمانية التى كانت موجودة منذ بداية الوجود الصليبى بالشام • الا أن حماس الألمان وتعاطف المرافقين لحملة فردريك بربروسا جعل كثيرا من النبلاء الألمان يتطوعون لخدمة المرضى والجرحى من بنى جنسهم ، كما أن كبار الصليبيين اهتموا بتلك المؤسسة الجديدة ، خاصة عندما قام البابا سلستن الثالث بالاعتراف بالمؤسسة فى شكل هيئة أو Order وتحويلها الى هيئة رسمية لرعاية المرضى •

---

(١) King, op. cit., p. 42

(٢) Prawer, op. cit., p. 495

(٣) Archer, op. cit., p. 182

واتبعت الهيئة الجديدة — بتوجيه من البابوية — قوانين كل من الاسبتارية والداوية ، ذلك أنه فيما يختص بالنواحى الاجتماعية والخيرية فان هيئة التيوتون كان عليها أن تتبع نظام الاسبتارية ، وفيما يختص بالنواحى العسكرية وأمور الحرب ، فان الهيئة التيوتونية كان عليها أن تسير على القوانين الخاصة بالداوية (١) • كذلك تقرر للهيئة الألمانية زيا موحدا ، عبارة عن رداء أبيض نقش عليه الصليب باللون الأسود ، وكان ذلك فى عهد البابا أنوسنت الثالث سنة ١١٩٩ (٢) • كذلك منحت البابوية هيئة التيوتون نفس الامتيازات والاعفاءات التى كانت للاسبتارية والداوية ، وسرعان ما تحولت هذه الهيئة الجديدة من هيئة خيرية ترعى المرضى ، الى هيئة عسكرة لمحاربة المسلمين فى الشام ، وسارت على نفس المنهج الذى سارت عليه الاسبتارية والداوية من قبل • وقد تم هذا التحول الى هيئة عسكرية معترف بها فى مارس سنة ١١٩٨ حيث أصبحت هيئة التيوتون تمثل فرعا ألمانيا لهيئة الاسبتارية والداوية اللتين كان لهما الطابع اللاتينى البحت (٣) • ولكن يبدو أن هيئة التيوتون رغم اعتراف البابوة بها رسميا ، الا أنها أنشئت منذ البداية لتحقيق أهداف الامبراطورية على نحو ما سوف يتبين لنا من سير الأحداث (٤) •

وجدير بالذكر أن هيئة التيوتون ، لم تكن الهيئة الوحيدة الغير لاتينية التى تكونت فى ذلك الوقت ، اذ أن هناك جنسيات أخرى غير المانية واجهت بدورها صعوبات شديدة ، فكونت هيئات لها ، والدليل على ذلك أن الانجليز أسسوا هيئة انلجيزية باسم Order of St. Thomas of Acon وانشأها راهب انجليزى عندما قام ببناء كنيسة ومدافن الموتى من بنى جنسه من الذين لاقوا حتفهم أثناء الحصار الطويل لمدينة عكا ، وقد انضم لهذا الراهب بعض الانجليز بهدف ايجاد مثوى لبنى جنسهم وللدفاع عن الدين المسيحى(٥) •

وتدل ظاهرة تكوين هيئات لها طابع وطنى مثال هيئة التيوتون وهيئة القديس ثوماس ، على ذلك التفكك الذى انتاب الصليبيين فى تلك الآونة

(١) Dumesil, op. cit., col. 978
(٢) Brehier, op. cit., p. 142
(٣) King, op. cit., p. 304
(٤) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 98
(٥) King, op. cit., p. 144, App. A.

ورغبة كل طائفة منهم فى تكوين هيئة منفصلة ترعى أبناء جنسها • ولذلك تشددت هيئة التيوتون فى عدم قبول غير الألمان النبلاء بين صفوفها • ومن الواضح أن شعور صليبى القرن الثالث عشر كان قد تغير عن ذلك الشعور الذى انتابهم عند بداية قدومهم الى الشرق فى نهاية القرن الحادى عشر ، عندما كانوا لا يفرقون حينئذ بين طائفة وأخرى وورد الجميع تحت اسم الفرنج Francs ، ولكن بقدوم القرن الثالث عشر أصبحت كل طائفة تفضل الانتماء الى هيئة تضم أبناء جنسها فقط ، وبذلك بدأت الهيئات الغير لاتينية فى الظهور ، وكان أهمها هيئة الفرسان التيوتون الألمانية وهيئة القديس توماس الانجليزية وهى أقل أهمية (١) •

والمعروف أن أعضاء هيئة الداوية كان أغلبهم من الفرنسيين ، فى حين كان معظم الاسبتارية من الانجليز والايطاليين ، أى أن الهيئتين الكبار لم تقتصرا على قبول أعضاء من جنسية واحدة ، أما هيئة التيوتون فقد اختلفت فى هذه الناحية ، ذلك أنها كانت هيئة وطنية بحتة ، فلم يسمح لغير الألمان بالانتماء اليها • وما أن قامت البابوية بالاعتراف رسميا بهيئة التيوتون حتى التحق بها على الفور أربعون من النبلاء الألمان ، وأصبحت الهيئة أيضا قاصرة على الأعضاء الألمان النبلاء (٢) • ثم تم الاحتفال رسميا بالهيئة الجديدة والأعضاء النبلاء الجدد ، وحضر هذا الاحتفال عدد كبير من الأمراء والنبلاء وعلى رأسهم ملك بيت المقدس • وقام الفرسان التيوتون باختيار أول مقدم لهم وهو أحدهم باسم هنرى دى فالبوت Henry Valpot von Bassenheim (٣) •

وقام المقدم الأول للهيئة عام ١١٩١ أى بعد عام واحد من الاعتراف رسميا بها ، بالبحث عن مقر للهيئة بعكا ، فوقع اختياره على مكان يقع خارج أسوار المدينة ، فأسس هذا المقدم كنيسة ومستشفى أصبحتا مقر الهيئة الرئيسى بالشام وذلك بعد ضياع المقر الأول الذى كان للهيئة قبل الاعتراف بها رسميا فى بيت المقدس • وفى سنة ١١٩٣ وضع البابا سلستن الثالث شعارا للهيئة ودرعا لها وملبسا حربيا خاصا بفرسانها والمحاربين بها • وقد قامت هيئة التيوتون بدور حربى ضد المسلمين ، فاشتركت مع

---

(١) Richard, op. cit., p. 229

(٢) Michaud, op. cit., Vol. II, p. 403

(٣) King, op. cit., p. 169

باقى الصليبيين وذلك حتى وفاة مقدمها الأول فى ٢٤ نوفمبر ١٢٠٠ ، ودفن هذا المقدم فى كنيسة الهيئة بعكا (١) .

وتولى قيادة هيئة التيوتون بعد وفاة مقدمها الأول ، فارس من سكان مدينة برمن هو أوتون دى كاربن Othon von Kaerpen الذى كان عمره اذ ذاك قرابة الثمانين عاما ، كما اشتهر بالحكمة والتريث ، ولكنه توفى بعد فترة قصيرة من توليه منصبه أى فى ٢ يونيو ١٢٠٦ .

وكان المقدم الثالث لهيئة التيوتون هو هرمان دى بارد Hermann von Bard ، الذى قدمت الهيئة فى عهده عدة خدمات للصليبيين حتى أن أحد ملوك بيمت المقدس سمح للهيئة باستخدام شعار الملك الى جانب شعارها ، ولا يعرف تماما اسم هذا الملك ولكن أغلب الظن أنه الملك عمورى الثانى (١١٩٧ — ١٢٠٥) اذ توفى المقدم هرمان فى ٢٠ مارس ١٢١٠ أثر جراح أصيب بها أثناء حصار الصليبيين لطرابلس ، ودفن هذا المقدم مثل أسلافه فى مستشفى الهيئة بعكا (٢) .

وتعتبر هذه الفترة بالنسبة لهيئة التيوتون فترة محدودة النشاط ، ذلك لأن عدد أفراد الهيئة حتى عهد هذا المقدم كانت قليلة للغاية ، ولكن بتولية المقدم الرابع قيادة الهيئة ، تغيرت أحوالها وزاد نشاطها وبرز دورها نسبيا . وكان هذا المقدم الرابع هو هرمان فون سالزا Hermann Von Salza ، الذى أرسل فى نهاية شهر مارس من عام ١٢٢٤ للبابا هنوريوس ليشرح له الصعوبات التى تواجه الصليبيين فى الشام ، ويطلب منه وضع أسلوب يعمل به الصليبيون فى الشرق ، ثم ذهب هذا المقدم الى ألمانيا للتفاوض مع الامبراطور هنرى السادس ، الذى اهتم بدوره بهيئة التيوتون وطلب من البابا كليمنت الثالث مساعدة مقدم الهيئة (٣) .

وسرعان ما زاد نشاط هرمان فون سالزا عندما تولى عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة الامبراطور فردريك الثانى ، ذلك الامبراطور الذى اهتم اهتماما خاصا بالهيئة الألمانية الجديدة ، فكان

---

(١) Dumesil, op. cit., col. 979
(٢) Ibid., col. 979
(٣) Rohricht, R. Beitrager zur Geschiechte der Kreuzzuge, p. 12
Cahen, op. cit., Vol. II, p. 667

هذا حافزا لازدياد رخاء الهيئة الذى لم يبدأ الا باعتلاء فردريك الثانى العرش • ثم عمل فردريك بعد اتخاذه القسم الصليبى على الانتفاع بهيئة التيوتون فاتصل بأفرادها ، وكان معروفا أن هذا الامبراطور اهتم بهيئات الرهبان عامة (١) •

وقد أغدق فردريك على الهيئة التيوتونية الكثير من الهبات والامتيازات لأنه أراد أن ينتفع بأفراد الهيئة لتحقيق هدفه الصليبى وأهدافه السياسية الأخرى • فنجح الامبراطور فى جعل هذه الفئة فئة ممتازة ، فأعفى أفرادها من الالتزامات الاقطاعية ، كما جعلها هيئة مستقلة ، تابعة اسميا للبابا فى روما ، أما فى حقيقة الأمر فانها كانت خاضعة له مباشرة ومنفذه لسياسة الدولة ، حتى أن هيئة التيوتون أصبحت الآداة السياسية الأولى لأسرة الهوهنشتاوفن الحاكمة فيما بعد (٢) •

وقد عمل فردريك الثانى على تشجيع صغار النبلاء الألمان على الالتحاق بالهيئة الجديدة ، حتى أنه نجح فى الحاق ثلاثة أخوة من أسرة Hohenlohe الألمانية فى صفوف الهيئة ، كما أن فردريك انتفع بأفراد الهيئة الموجودين بالغرب فاستعان بهم فى تنفيذ أعمال البناء وبناء السفن ومجال الزراعة وغير ذلك من نواحى التعمير المختلفة • أما فى الشرق فانه لم يستخدم فى تنفيذ سياسته فى الشام غير الفرسان التيوتون وقرب اليه افراد تلك الهيئة حتى انه ضم بعض الرهبان التيوتون الى حاشيته ، كما قرب اليه مقدم الهيئة ، وكان كثيرا ما يذكر ويتفاخر بأنه هو صاحب الفضل فى تأسيس هيئة الفرسان التيوتون •

أما مقدم التيوتون هرمان فون سالزا فقد نعم برضاء الامبراطور ، ويبدو أن ذلك هو السبب الذى جعل اسمه يرد فى كثير من المراجع ، فبرزت شخصيته ، نتيجة ذلك الدور الهام الذى لعبه بجانب سيده فى كل من الشرق والغرب • ومن المعروف أن هرمان قام بدور هام فى انهاء النزاع القائم بين الامبراطور فردريك الثانى والبابوية ، فكان هرمان

---

(١) Kantarowicz (E), Fredrick the Second, 1194-1250, p. 88

(٢) Richard, op. cit., p. 213

يدين بالولاء لكل من الامبراطور والبابا ، فعمل بكل السبل على تحسين العلاقة بين الطرفين • كما تتضح مدى المساعدة التى قدمها الفرسان التيوتون للامبراطور فردريك الثانى عندما قامت الدواية والاسبتارية بعدم معاونة فردريك الثانى تبعا لأوامر البابوية لهما ، بل اتخذت الهيئتان موقفا عدائيا ضده (١) •

وانضمت الداوية الى بارونات الشام بزعامة آل ايبلين ضد سياسة فردريك الثانى ، حتى أن الامبراطور قام بمحاصرة بيت الداوية فى عكا ومهاجمة قلعتهم عثليث ، كما أنه قام بمصادرة أملاك الهيئة التى تقع ضمن امبراطوريته الواسعة فى الغرب ، بالاضافة الى ذلك فان فردريك الثانى قام بالانتقام من الاسبتارية لموقفهم السلبى تجاه الأزمة (٢) •

أما هيئة التيوتون فقد أراد فردريك الثانى أن يجعلها أداة لخدمة حكومته فى مملكته الجديدة بالشرق ، فعمل على أن تكون الهيئة خاضعة رأسا لشخصه ، كما أنه بمقتضى مرسوم ريمينى Rimini الصادر سنة ١٢٦٦ وضع الامبراطور برنامجا محددا للهيئة أظهر فيه امتيازات عديدة لها ، كما أنه سمح لهرمان فون سالزا بتكوين دولة مستقلة يكون هو فيها صاحب السلطة ، على أن تكون هذه الدولة فى داخل اطار الامبراطورية (٣) •

وقد أراد فردريك بتمييزه هذا للهيئة الألمانية ازالة الطابع اللاتينى السائد فى الشرق الصليبى وفرض الطابع الألمانى فى ملكه الجديد بالشرق • ولم تلق هذه السياسة قبولا لدى بارونات الشام القدامى اللاتينيين ، ومما زاد من حنقهم على فردريك أنه منح القلاع والاقطاعات والامتيازات للتيوتون الألمان مما أدى أخيرا الى اشتعال نار الحرب بين الامبراطور وبارونات الشام سنة ١٢٣٢ فيما عرف بحرب اللمبارد وهى حرب دامت بين الطرفين على مدى عشرين عاما(٤) •

---

(١) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 183
Rohricht, op. cit., Vol. I, p. 36
Brehier, op. cit., p. 215

(٢) Richard, op. cit., p. 215

(٣) Ibid., p. 237

(٤) King, op. cit., p. 210

ومما يوضح مدى التعاون والتآزر بين فردريك الثانى وهيئة التيوتون أنه ـ كما سبق أن ذكر ـ حدث بعد أن تم عقد المعاهدة بين السلطان الكامل وفردريك الثاني سنة ١٢٢٩ ، أن نصح مقدم التيوتون سيده بدخول بيت المقدس على رأس الحجاج ، وقد حاول البطريرك جيرولد منع الامبراطور من دخول المدينة المقدسة ، ولكنه فشل ، واستطاع فردريك دخولها بمساعدة الهيئة الألمانية ، ثم قام الامبراطور بتتويج نفسه ملكا على مملكة بيت المقدس بحضور فرسانه ، ثم قرأ هرمان فون سالزا منشورا امبراطوريا لاظهار سياسة الامبراطور الجديدة (١) . ومنح فردريك الثانى للفرسان التيوتون القلعة القديمة المسماه « قلعة الملك » وتقع جنوب برج داوود .

وظل هرمان فون سالزا السند الأكبر للامبراطور طوال وجوده بالشرق رغم مقاومة البابوية لفردريك الثانى ، لذلك أظهر فردريك بعد رحيله الى بلاده تقديره لمقدم التيوتون فأنعم عليه بلقب أمير Prince of the Empire ، كما سمح لأفراد الهيئة بحمل شعار الامبراطور ، وهو عبارة عن صقر رسمه الفرسان التيوتون على دروعهم وأسلحتهم ، كما أهدى فردريك للمقدم المخلص خاتما ثمينا ، أصبح تقليدا للهيئة أن يتوارثه مقدموها أو قادتها (٢) .

وسرعان ما عاد هرمان الى البندقية مع بعض رجاله ، حيث عمل على تحسين العلاقات بين فردريك الثانى والبابا هنوريوس الثالث ، وقد اجتهد المقدم التيوتونى فى هذا المجال بشكل واضح(٣) .

وفى تلك السنوات وصلت الهيئة هبات ضخمة من المانيا وصقلية والمجر ورومانيا ، كما ظهر فى هذه السنوات خطر الوثنيين الذين هددوا منطقة بروسيا ، فقاموا بأعمال السلب والنهب فى منطقة كولم Culm ومناطق فى بولندا ، حتى أن هذه النواحى أصبحت غير آمنة فهجرها أهلها . واقتضى الأمر قيام عدة هيئات عسكرية لمحاربة الوثنيين ، فقام بهذه لمنطقة هيئة فرسان السيد المسيح Chevaliers d'Obrin ، ولكن

(١) Rohricht, op. cit., Vol. I, p. 43
Grousset, op. cit., Vol. III, p. 312
(٢) King, op. cit., p. 304
(٣) Dumesil, op. cit., col., 979

هؤلاء عجزوا عن مواجهة الوثنيين وصدهم ، فأرسل كونراد دوق مازوفيا رسالة الى هرمان فوق سالزا بالشرق يطلب منه المعونة (١) ، ويقدم له مقابل ذلك الاعتراف بملكية الهيئة لمنطقة كولم والمنطقة التى يسكنها الوثنيون ، كما طلب البابا جريجورى التاسع من التيوتون التوجه لمحاربة الوثنيين أعداء المسيحية ، ولذلك قام هرمان فون سالزا بارسال بعض فرسانه سنة ١٢٢٧ بقيادة أحد رؤساء الأقاليم وهو هرمان دى بالك الى بروسيا لاخضاع الوثنيين .

ومنذ ذلك التاريخ لم يعد يذكر المراجع دور هام للتيوتون فى الشام الصليبى ، اذ أصبح تاريخهم منذ ذلك الوقت يرتبط بالتاريخ الأوروبى . وجدير بالذكر أن التيوتون استطاعوا الاستيلاء منذ عام ١٢٣٨ على أراضى واسعة حول نهر الفستولا واستقروا بها (٢) ، كما أن الهيئة قامت بدور هام فى محاربة التتار فى بولندا وذلك فى خريف ١٢٤٠ عندما قاد باتو الجيش المغولى عبر شرق أوروبا وأوكرانيا ، وخرجت فرق من جيوشه شمالا الى بولندا ، فراحت تدمر وتنهب ، وعندئذ طلب ملك بولندا النجدة من الفرسان التيوتون فجاءوا لنجدته ، وكانوا قد استقروا فى تلك السنوات على ساحل بحر البلطيق (٣) . كذلك أصبح للهيئة التيوتونية مقاطعات واسعة فى منطقة ليفونيا وكولم وبروسيا ، وقد قدر لها أن تصبح هيئة لوثرية فى فترة الاصلاح الدينى فى المانيا وتتحول عن الكاثوليكية (٤) .

قلاع هيئة الفرسان التيوتون وأملاكهم المختلفة فى الشام :

كانت قلعة مونفور هى أهم قلاع هيئة التيوتون فى بلاد الشام ، وجاءت هذه القلعة بعدة أسماء فى المراجع الأجنبية منها Montfort وهى أكثر شيوعا ، Starkenberg و Franc Chateau (٥) ، أما المصادر العربية فقد ذكرت هذا القلعة باسم قلعة القرين (٦) . وكانت هذه القلعة

---

(١) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٦٢٠ .

(٢) Lacroix, op. cit., p. 206

(٣) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 251

(٤) Conder, op. cit., p. 342

(٥) Richard, op. cit., p. 213

(٦) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٣ .

مشيدة على نمط قلاع أوروبا العصور الوسطى ، كما أنها شيدت على مرحلتين ، ففى القرن الثانى عشر كانت عبارة عن قلعة صغيرة ، ثم قامت بعض فرق الجيش الذى صاحب فردريك الثانى بتقوية القلعة سنة ١٢٢٧ • وكانت قلعة مونفور أو القرين تقع على الضفة الغربية لنهر الجليل وعلى الجبال الواقعة شمال شرق عكا ، أى أنها تقع بين مدينتى صور وعكا (١) •

ورغم أن قلعة القرين هى أهم قلعة للتيوتون الا أن أهميتها الاستراتيجية محدودة ، لوقوعها فى منطقة نائية تبعد عن أى طريق عام ، كما أن الطرق التى ربطت القلعة بالقرى المجاورة لم تكن سوى طرق ثانوية ، ويبدو أن الألمان اختاروا هذا المكان النائى حتى تكون قاعتهم فى مأمن من أى غزو • وجدير بالذكر أن القلعة كانت فى القرن الثانى عشر تقوم بعمل ادارى ، فقامت بحماية وادارة أملاك الهيئة واقطاعاتها • ولكن ببداية القرن الثالث عشر أقام فرسان التيوتون بتوسيع قلعة القرين فجعلوها مركزا لقيادة هيئتهم وحفظوا فيها أرشيفهم وخزائنهم ، معتمدين فى ذلك على بعد المكان وانعزاله التام وتمتعه بموانع طبيعية هائلة (٢) •

وكانت القرين قبل انتقالها الى هيئة التيوتون ، ملكا للكونت جوسلين كورتناى ، وتقع ضمن اقطاعه ، وبوفاة هذا الكونت ورث الاقطاع بناته فكانت احداهن زوجة لفارس يدعى أوتودى هنبرج Otto de Henneberg ، ورث نصف الاقطاع ثم وهبه الى هيئة التيوتون ، كما قام الوريث الثانى لجوسلين كورتناى واسمه جاك منديليه Jacques de la Mandelee ببيع نصيبه فى اقطاع القرين لهيئة التيوتون سنة ١٢٢٨ (٣) • وكانت القلعة القديمة الواقعة فى ذلك الاقطاع هى التى قام التيوتون بتوسيعها وهى التى ذكرت فى المعاهدة التى تمت بين السلطان الكامل وفردريك الثانى سنة ١٢٢٩ وعرفت بقلعة مونفور ، ثم أطلق عليها الألمان اسم ستار كنبرج • وقد طالب المقدم هرمان فون سالزا بتوسيع القلعة من البابا جريجورى التاسع الذى أصدر مرسوما بابويا يطلب فيه التبرعات لاتمام العمل فى القلعة التيوتونية • وبفضل أموال التبرع هذه استطاع الفرسان التيوتون بمعاونة الحجاج الألمان بناء

(١) Conder, op. cit., p. 341

(٢) Benvenisti, op. cit., p. 331
King, op. cit., p. 203

(٣) Richard, op. cit., p. 213

القلعة • وبالتدريج أصبح التيوتون يمتلكون مساحات واسعة من الأراضى الواقعة فى غرب ووسط منطقة الجليل حتى بلغ ما امتلكوه قرابة خمسين قرية (١) •

وسقطت قلعة القرين فى أيدى المسلمين فى عهد السلطان بيبرس ، وقد حاول السلطان الاستيلاء عليها عام ١٣٦٠ ، فقام ، فقام بمحاصرتها ولكن فرسان التيوتون دافعوا عنها دفاعا مريرا ، فرفع بيبرس الحصار ، ليعاود التجربة مرة أخرى بعد خمس سنوات ، وذلك بعد أن استولى على قلعة صفد للداوية سنة ١٢٦٦ ، فاستطاع بذلك لسيطرة على منطقة الجليل سيطرة تامة (٢) • ولكن يبدو أن القرين استعصت عليه مرة أخرى ، فرفع هذا الحصار • وأخيرا استطاع الظاهر بيبرس الاستيلاء على تلك القلعة المنيعة فى ١٢ يونيو ١٢٧١ (٦٦٩ هـ) بعد حصار دام أسبوعين ، وقام بتسليم القلعة للسطان بيبرس آخر قادتها وهو جون فون ساشن John von Sachen ثم خرج على رأس فرسانه الى عكا (٣) •

وباستيلاء بيبرس على قلعة القرين ، أمر السلطان بتدمير الأجزاء المبنية بالخشب منها وتدمير كمية كبيرة من الأسلحة كانت بها • ويذكر المقريزى أن السلطان نازل القلعة فى ٢ ذو العقدة ٦٦٩ هـ وأمر بهدمها فى ١٤ ذو القعدة من نفس العام (٤) •

كما ذكر لنا ابن أيبك أن ذلك الحصن كان صعب المرام وأنه كان مبنيا من الحجر الأصسم ، بين كل حجرين منه عمود من الحديد وهما متصلان بالرصاص ، حتى أن المسلمين احتاجوا لهدمه اثنى عشر يوما • وعلى أثر خروج التيوتون من قلعة القرين فانهم قاموا بنقل خزائنهم وأرشيفهم الى عكا ومنها الى أوروبا ، كما أن قلعة القرين لم يجدد بناؤها بعد تدميرها على يد بيبرس •

---

(١) Benvenisti, op. cit., p. 334

(٢) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 321

(٣) ابن ايبك ، كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٦٢ •
أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٥٢ •
Benvenisti, op. cit., p. 334

(٤) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٣ •

وبجانب قلعة القرين ، كان لهيئة الفرسان التيوتون عددا من القلاع ولكنها لم تكن بنفس أهمية قلعتهم الرئيسية ، ويذكر كاهن أن من هذه القلاع قلعة صغيرة قوية أعطيت لهيئة التيوتون فى القرن الثالث عشر تعرف باسم قلعة Amoudain أو Hematye ، وقد وردت فى كتاب السلوك للمقريزى باسم العامدين ، وافترض المقريزى أنها كانت لفرسان الداوية وأنها تقع فى مملكة أرمينيا الصغرى . ويذكر كاهن أيضا أن هذه القلعة لم تكن معروفة قبل امتلاك التيوتون لها (١) .

كذلك كانت هيئة التيوتون تمتلك بالقرب من قلعة القرين قلعة أخرى قديمة عرفت باسم قلعة الملك Chateau de Roi أو Castellum Regis ولا يعرف تماما تاريخ انشاء هذه القلعة (٢) . وكانت قلعة الملك تابعة لاقطاع عكا فى بداية عهد الصليبيين بالشام ، ثم وهبها الملك سنة ١١٦٠ الى رجل يدعى جون John of Haifa ، ثم انتقل هذا الاقطاع الى حوزة أحد النبلاء باسم هنرى دى ميلى Henry de Milly وشمل هذا الاقطاع حوالى ست وثلاثين قرية وقعت كلها فى منطقة الجليل الشرقى والأوسط ، كما شمل هذا الاقطاع قلعة القرين التى سبق ذكرها . وفى سنة ١١٧٠ عندما تزوج جوسلين كورتناى من وريثة اقطاع « قلعة الملك » فانه نال هذا الاقطاع بزواجه منها ، ثم أضاف جوسلين لهذا الاقطاع مساحات أخرى واسعة حتى أصبح من أكبر اقطاعات المملكة . وباستيلاء صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٨٧ على الاقطاع ، فانه ظل فى حوزة المسلمين حتى أعيد مرة أخرى لآل كورتناى سنة ١١٩٣ ، وبتقسيم الاقطاع على بنات جوسلين بعد وفاته ، فان أوتو هنبرج زوج احدى الوريثات قام ببيع نصيبه الى هيئة التيوتون سنة ١٢٢٠ ، ثم تحول الاقطاع كله بما يتضمنه من قلاع وأراضى بأكمله الى هيئة التيوتون (٣) .

وبجانب هذه الحصون والأراضى ، فان فردريك الثانى عندما قدم الى الشرق فانه وهب الهيئة كثيرا من الأراضى التابعة لهذه الحصون ، فأصبح

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥١ .
Feddan, op. cit., p. 36
Cahen, op. cit., p. 148
(٢) Conder, op. cit., p. 341
(٣) Benvenisti, op. cit., p. 198

للتيوتون أراضى واسعة شمالى بيروت وفى منطقة الجليل ، وفى وادى الأردن ، كما امتلكت الهيئة فى تلك النواحى حـوالى مائة قرية (١) • بالاضافة الى ذلك قامت الهيئة بشراء القرى الرئيسية الواقعة فيما بين عكا وصفد ، وبحضور فردريك الى الشام فانه وافق على تلك الصفقة ، كما منح الهيئة اقطاع Maron عائدا يقدر بمبلغ سبعة آلاف بيزنت من عوائد مدينة عكا (٢) • ويذكر لنا المؤرخ امبرواز أن اقطاعية Maron المجاورة لنابلس ، كانت تابعة لمملكة بيت المقدس ، وكانت ملكا لفيليب دى ميلى ، الذى تنازل عنها للتاج سنة ١١٦١ ، ثم منحها ملك بيت المقدس الى جوسلين كورتناى سنة ١١٨٢ ، ثم عاد واسترجعها الملك بعد ذلك بعام واحد ضمن عملية تبادل أملاك تمت بينه وبين جوسلين ، وفى عام ١١٨٦ قام جاى لوزجنان ملك بيت المقدس بمنح اقطاعية مارون لجوسلين مرة أخرى ، وبمجىء فردريك الثانى الى الشرق قام سنة ١٢٢٩ ، بمنح هذا الاقطاع الى فرسان التيوتون الذين كانوا قد اشـتروه من ورثة الكونت جوسلين كورتناى (٣) •

بالاضافة الى تلك المنح السابق ذكرها ، فان فردريك الثانى أغدق على الهيئة الألمانية عدة امتيازات واعفاءات ، فقام سـنة ١٢٢٦ باعفـاء الهيئة من الضرائب وخاصة تلك الضريبة التى كانت تجبى على عقـود البيع والمسماة Plateaticum • كذلك منح الامبراطـور الهيئة بعض القلاع والأملاك ، على حساب البارونات المحليين بالشام • ونتج عن ذلك بعض المشاكل فى بعض الأحيان ، وعلى سبيل المثال أنه عندما أراد منح هيئة التيوتون قلعة تورون سنة ١٢٢٩ اعترضت على ذلك الأميرة اليكسى الأرمنية والدة الأمير ريموند ـ روبن ، وطالبت بحصتها فى القلعة • وقامت عقب ذلك بعض الاضطرابات ، خاصة عندما أراد باليان صاحب صـيدا تنفيذ ما أمر به فردريك بخصوص تلك المنحة ومنح أخرى وهبها للفرسان التيوتون (٤) •

وبجانب تلك المنـح التى انهالت على الهيئة من جانب الامبراطور فردريك الثانى ، فان الأمراء والملوك الصـليبيين منحوا التيوتون بعض

(١) Conder, op. cit., p. 340
(٢) Richard, op. cit., p. 238
(٣) Ambroise, op. cit., p. 281
(٤) Richard, op. cit., p. 238

الهبات جاء ذكرها فى المراجع الأجنبية بطريقـة مختصرة للغاية ، فيذكر كاهن أنه فى عـام ١٢٢٠ قام بوهيموند الثالث أمير انطاكية بمنح الهيئة الألمانية نفس الامتيازات التى كانت لهيئتى الداوية والاسبتارية فى امارته ، كما منحهم حرية التجارة كاملة فى امارته . كما أن ريموند ـ روبن منافس بوهيموند الرابع على عرش انطاكية ـ طرابلس ، أقر للهيئة الألمانية هذه الامتيازات ، كذلك رحب بوهيموند الرابع بالهيئة فى طرابلس وقـام بمنحها طاحونته الرئيسية بانطاكية . ورغم ذلك يبدو أن هيئة التيوتون لم يزداد نفوذها فى امارة انطاكية ، ربما بسبب فقر الامارة التى كانت فترة طويلة من نزاع الأمـراء ، ولكن زاد نفوذهم فى قليقيـة وقبرص وعـكا (١) .

أما ملوك بيت المقدس فقد منحوا هيئة التيوتون عدة منح خاصـة أثناء قيام تلك الهيئة بأنشطة خيرية وحربية واسعة أثناء حصـار عكا . فقام الملك جاى لوزجنان على سبيل المثال ، ببيع حى كامل فى مدينة عكا الى فرسـان التيوتون ، كما عهد اليهم سـنة ١١٩٣ بحمـاية البربقان Barbacane (وهو برج كبير يبنى على مسافة من الحصن أو من القنطرة المقامة على الخندق المحيط بالقلعة) وحماية باب القديس نقولا عـام ١١٩٨ (٢) . وكان الملك جاى قد وعد الهيئة بمنح أخرى أثناء حصار عكا أيضا ، كما منحهم هنرى دى شامبنى نفس الحقوق والامتيازات التى كانت للدواية والاسبتارية ، كما منحهم أراضى واسعة قرب يافا وعكا ، كما ذكرت المراجع أن الهيئة التيوتونية امتلكت بيتا فى مدينة صور وبعض الحدائق فى صيدا (٣) .

كذلك قام أصـحاب بيروت وصيدا من النبلاء بمنح هيئة التيوتون عام ١٢٥٦ بعض القرى الزراعية فى سهول عكا الشمالية وتلال صـيدا ، كما قامت الهيئة باستئجار عدد كبير من القرى قرب صـيدا . وتذكر المراجع نزاعا عام بين التيوتون وأسقف الجليل حول بعض الأملاك فى عكا ، وان هذا النزاع استمر عشرين عاما حتى سنة ١٢٣٧ عندما أصدر

(١) Cahen, op. cit., p. 668

(٢) عبد الرحمن زكى ، مقال ، « المجلة التاريخية المصرية ، مجلد رقم ١٥ ، ص ٧٤ .

Richard, op. cit., p. 213

(٣) Conder, op. cit., p. 341

لبابا قرار الحرمان ضد الهيئة فى صالح أسقف الجليل (١) . كما تذكر المراجع أيضا خبرا آخر عن الفرسان التيوتون أثناء حصار عكا ، وهو أن الصليبيين عجزوا عن استخدام الطواحين الموجودة لطحن حبوبهم أثناء الحصار ، فاستطاع الألمان أثناء ذلك من بناء أول طاحونه هواء Windmill عرفها الشام فى ذلك الوقت ، ذلك لأن الطواحين المعروفة حينذاك كانت طواحين تعمل بدفع قوة المياه ، مثال طواحين الداوية والاسبتارية فى منطقة داعوق وكردانى (٢) .

وجدير بالذكر ، أن الفرسان التيوتون امتلكوا حيا خاصا بهم فى مدينة بيت المقدس قبل استرداد المسلمين لها ، فكان لهم تلك الكنيسة الأولى التى نشأت فى بداية عهد الصليبيين بالشام على يد الحاج الألمانى وزوجته ، وقد ذكر الرحالة الألمانى جون فورزبرج تلك الكنيسة فقال أن الكنيسة والمستشفى سميتا باسم السيدة العذراء ، كما كان المستشفى يسمى باسم « بيت الألمان » ذلك لأنها لم تضم سوى الألمان فقط ، كذلك كان يوجد بالمدينة المقدسة شارع باسم « شارع الألمان Rue des Alemans ويوجد هذا الشارع حتى الآن فى الجانب الشرقى بالمدينة المقدسة ، كما توجد آثار للمستشفى والكنيسة الألمانية حتى اليوم (٣) . كذلك فى مدينة عكا ، كان يوجد لهيئة التيوتون مستشفى لرعاية مرضاها وجرحاها الألمان ، كما كان للهيئة سلسلة من المستشفيات فى الغرب الأوروبى خاصة على الساحل الجنوبى الشرقى لبحر البلطيق ، بالاضافة الى عدد كبير من المصحات للعناية بالمرضى العاجزين (٤) .

وحوالى عام ١١٢٨ أدركت هيئة التيوتون أن واجبها الأصلى هو محاربة أعداء المسيحية على الحدود الشرقية لألمانيا وليس فى بلاد الشام (٥) ، فنقلوا ديرهم بعد سقوط عكا الى مدينة البندقية ، حيث ظل هناك عدة سنوات ، ثم قاموا بنقل الدير سنة ١٣٠٩ الى مدينة مارينبرج Marienburg على نهر الفستولا ، حيث قامت الهيئة بنشر المسيحية ومحاربة الوثنيين (٦) .

---

(١) Conder. op. cit. p. 342
(٢) Benvenisti, op. cit., p. 247
(٣) Ibid., p. 63
(٤) Ency. Brit, Vol. 21, p. 975
(٥) Heer, op. cit., p. 66
(٦) King, op. cit., p. 304

الدور الحربى والسياسى الذى لعبته الهيئة التيوتونية فى بلاد الشام

قامت هيئة الفرسان التيوتون على المسرح الحربى والسياسى للصليبيين فى بلاد الشام بدور يعتبر ثانويا وضئيلا ، اذا ما قورن بذلك الدور الكبير الذى قامت به هيئتا الداوية والاسبتارية فى كل من المجالين •

فقد كان للهيئتين الكبيرتين أسبقية الوجود فى بلاد الشام كقوة عسكرية معترف بها من قبل البابوية والملوك ، وهذا جعل الهيئتين يحوزان على ذلك النفوذ السياسى الضخم وذلك النشاط الحربى الواسع • كما أن الداوية والاسبتارية امتلكتا الحصون العديدة والقلاع الضخمة والجيوش مما جعلهما تبدوان فى شكل أكبر شمولا وقوة من هيئة التيوتون ، التى امتلكت بعض القلاع والحصون والفرق ولكن بنسبة أقل بكثير من الهيئتين الكبيرتين •

ويبدو أن هيئة التيوتون أدركت منذ البداية ذلك الدور الثانوى الذى انحصر نشاطها فيه ، كما أدركت أن استقرار الداوية والاسبتارية بالشام واستتباب موقفهما طغى على وجود الهيئة الألمانية ، مما جعلها تعمل على نقل نشاطها الى مجال آخر يظهر كفاءتها ، فنقلت الهيئة بذلك نشاطها الى المجال الأوروبى بعيدا عن الشام الصليبى المنهار ، الذى تصارعت فيه القوى الصليبية جميعا ، بطريقة غير منظمة •

وكان النشاط السياسى لهيئة التيوتون عبارة عن مساندة لحزب ضد الآخر فى ذلك الصراع الذى اجتاح الطوائف الصليبية المختلفة فى القرن الثالث عشر ، مثال ذلك : أنه حدث أثناء حصار عكا أن واجه الصليبيين عدة مشاكل متشابكة ، ورغم ذلك راح كونراد دى مونفرات وجاى لوزجنان ملك بيت المقدس يتنازعان على عرش المملكة الضائع ، غير مدركين أن هذا الملك قد ولى وأن ما تبقى للصليبيين بالشام كان قد أوشك الرجوع الى أصحابه المسلمين ، فانقسم بذلك الصليبيون ، ليساند كل منهما أحد المتنازعين •وكان دور التيوتون فى هذا المجال أنهم راحوا يساندون حزب كونراد دى مونفرات ضد منافسه الملك جاى لوزجنان (١)•

ثم حدث عام ١٢٥٨ عندما اشتعلت الحرب الأهلية بين الصليبيين فى عكا ورعايا المدن الايطالية المختلفة ، وحاربت كل طائفة الأخرى ، ودخلت

---

(١) Michaud, op. cit., Vol. II, p. 389

الهيئات ضمن هذا الصراع ، فساندت هيئة الاسبتارية الجنوية ، فى حين ساندت الداوية والتيوتون البيازنة (١) • وأخيرا عقدت الهيئات الثلاث الاسبتارية والداوية والتيوتون فيما بينهم اتفاقا على أن تتعاون الهيئات الثلاث فيما يتعلق بذلك الصراع القائم بين القوى الصليبية ببلاد الشام ، على أن تسمح كل هيئة لأفراد الهيئات الأخرى بالمرور فى أراضيها ، أثناء القيام بحملات حربية • كما نصت الاتفاقية على أن يكون للفرسان التيوتون الذين يذهبون للحرب فى امارة انطاكية الحق فى الحصول على الامدادات ، مما يدل على أن الهيئة لم يكن لها منشآت كافية فى الامارة ، كما أن الاتفاق بين الهيئات الثلاث ضم عدة بنود أخرى نظمت التعامل بينهم (٢) •

أما مساندة هيئة التيوتون للامبراطور فردريك الثانى فكانت أبرز عمل سياسى قامت به الهيئة فى بلاد الشام ، فقد عملت الهيئة ومقدمها بمساندة الامبراطور فى تلك الظروف الصعبة التى تواجهها بسبب موقف البابوية منه فى كل من الشرق والغرب ، ومعاداة الهيئات العسكرية والبطريرك وطوائف الصليبيين المختلفة ، مما جعله يقف بلا سند حقيقى فى الشام سوى رعاياه الألمان وفرسانه التيوتون • وبذلك كانت هيئة الفرسان التيوتون وعلى رأسها هرمان فون سالزا السند الوحيد للامبراطور ، فقد ساعدوه فى تنفيذ سياسته التى أراد فرضها فى الشام ومقاومة البطريرك وكل من الداوية والاسبتارية (٣) • وبعد عودة فردريك الى بلاده ، قام الفرسان التيوتون بمساندة المارشال ريتشارد فيلانجرى نائب الامبراطور فردريك ضد البارونات القدامى بزعامة حنا ايبلين ، وذلك فى الصراع الذى نشب بينهما عندما حاول المارشال فرض سيادة الامبراطور وسياسته على بارونات الشام ، مما أدى الى قيام حرب بين الطرفين امتدت حتى وصل مداها الى جزيرة قبرص بين أنصار الطرفين فيما عرف بحرب اللمبارد (٤) •

---

(١) Cahen, op. cit., p. 707

(٢) Ibid., p. 668

(٣) Rohricht, op. cit., Vol. I, p. 43
Kantarowics, op. cit., p. 182

(٤) أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٢٠ •
King, op. cit., p. 210

ثم ظهر ذلك الدور لهيئة التيوتون فى الحرب التى دارت فى عكا بين البنادقة والجنوية والتى عرفت باسم حرب القديس سابا War of Saint Sabas وسببها تنازع الطائفتان على ملكية دير قديم عرف باسم دير القديس سابا ويقع بين حى الجنوية وحى البنادقة بمدينة عكا ، ودارت الحرب بينهما فيما بين ١٢٥٦ و ١٢٥٨ فادعت كل طائفة ملكية الدير ، ثم عمل الجنوية على الاستيلاء عليه بالقوة ، فاعترض البنادقة على ذلك وانضم اليهم البيازنة • وتطور الأمر بين تلك القوة الايطالية فاعتدت كل طائفة على حى الآخرى ثم قامت كل منهم بتدمير سفن الطوائف الأخرى • وأخيرا اتسعت دائرة الحرب لتشمل الصليبيين جميعا والهيئات العسكرية، فساندت الداوية والتيوتون البنادقة ، فى حين ساندت الاسبتارية الجنوية ، وبالتدريج ويتدخل جميع الطوائف اتخذ النزاع شكل حرب أهلية شاملة ، كانت خسائر الصليبيين فيها فادحة (١) •

وقد قام الفرسان التيوتون بعد هذا الحادث بالاتجاه الى نقل نشاطهم الى الغرب الأوروبى ، بعد أن يأسوا من تأمين مواقعهم فى الشام ، وبذلك أصبح تاريخ الهيئة منذ عام ١٢٥٦ ينتمى بشكل أوسع الى التاريخ الأوروبى حيث بدأت الهيئة توجه نشاطها الى محاربة الوثنيين من البروسيين وأهل ليفونيا (٢) •

أما بخصوص علاقة التيوتون بالمسلمين ، فانها كانت تبدو أكثر اعتدالا وتعقلا عن سياسة الداوية التى امتازت بالتهور والعداء الشديد ، والدليل على اعتدل سياسة لتيوتون نحو المسلمين أنه فى عهد المقدم هرمان بارد (١٢٠٨ — ١٢١٠) أظهرت الهيئة ميلا شديدا لقبول سياسة المهادنة ، وذلك عندما وافقت هيئة التيوتون على قبول عرض السلطان العادل الأيوبى الخاص بتجديد الهدنة بين المسلمين والصليبيين سنة ١٢١٠ ، والتى تنازل بمقتضاها السلطان العادل عن عشرة من القرى المحيطة بعكا ، وقد اجتمع الصليبيون لبحث هذا العرض ، كما اجتمع البارونات المحليون بزعامة حنا ايبلين والاسبتارية بقيادة مقدمهم جارين مونتاجو (١٢٠٧ — ١٢٢٧) والفرسان التيوتون بقيادة مقدمهم هرمان

(١) أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٠٨ .
Dodu, op. cit., p. 81

(٢) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 288

بارد ، ووافق معظم هؤلاء على عرض السلطان العادل . أما الداوية بقيادة مقدمهم فيليب بليس Philippe de Plessiez وبعض الصليبيين رفضوا مبدأ الهدنة واختاروا متابعة الحرب ضد المسلمين (١) . وانتصر الرأى المنادى بالحرب ، ولم يكن ذلك فى صالح الصليبيين ، ذلك لأن الملك المعظم ابن العادل قام حينذاك بانزال خسائر فادحة بأملاك الصليبيين حول عكا (٢) .

ثم كان أن ظهرت سياسة الود واضحة بقدوم فردريك الثانى الى الشام وقيام تلك المعاهدة بينه وبين السلطان الكامل سنة ١٢٢٩ (٣) ، ومن الطبيعى أن تكون هيئة التيوتون السند الوحيد لفردريك الثانى ، كما ذكرنا ، متفقة معه تماما فى هذه السياسة ، بل أنها كانت مساندة له فى سياسته كاملة .

وجدير بالذكر فى هذا المجال ، أن نستعرض علاقة الفرسان التيوتون بمملكة أرمينيا الصغرى ، وخاصة فى عهد ليون الثانى ، عندما أراد هذا الملك أن يستعين بقوة منافسه ضد أعدائه التقليديين من أفراد هيئة الداوية ، فاستعان هذا الملك الأرمنى بكل من الاسبتارية والتيوتون ومنحهما كثير من المنح والهبات داخل مملكته . كذلك أراد ليون الثانى أن يوطد علاقته بالامبراطور الألمانى الجديد أوتو ، فتبادل الملكان السفارات والهدايا ، فأرسل الامبراطور أوتو سفارة الى سيس برئاسة ويلبراند أولدنبرج ، كذلك التحق ليون الثانى بهيئة التيوتون كعضو علمانى فيها ، ولذلك منح الهيئة عام ١٢١٢ قلعة العامدين وهى قلعة تتحكم فى منطقة هامة (٤) ، كذلك منح الهيئة قلعة أخرى باسم Cumbethfort ومراكز أخرى فى سهل قليقية (٥) . بالاضافة الى ذلك ، منح ليون الفرسان التيوتون حرية التجارة بشكل مطلق فى امارة انطاكية فى عهد ريموند — روبن . وتذكر المصادر الأرمينية أنه فى عهد ليون

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 189

(٢) أ.د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٥١ .
المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، أحداث سنة ٦٠٧ .

(٣) أ.د. سعيد عاشور ، مقال « الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد رقم ١١ ، سنة ١٩٦٣ ، ص ٢٠٩ .

(٤) Feddan, op. cit., p. 45

(٥) Cahen, op. cit., p. 617

الثانى كانت القلاع الأرمينية تتمتع بوسائل دفاع محكمة بفضل عدد كبير من رعايا الملك من النبلاء والأمراء ، بالاضافة الى من استعان به من العنصر اللاتينى الذى دخل فى خدمته ، خاصة أعضاء هيئتى الاسبتارية والتيوتون (١) •

وكان النشاط الحربى للفرسان التيوتون محدودا للغاية أيضا ، ورغم اشتراك هؤلاء الفرسان جنبا الى جنب مع الصليبيين ولكن ذلك كان بنصيب محدود ، وربما يرجع ذلك الى قلة عدد أفراد الهيئة بالنسبة للعدد الضخم الذى اشتركت به كل من الداوية والاسبتارية فى المجال الحربى • فتذكر المراجع أن هيئة التيوتون اشتركت فى حملة حنا برين على مصر عام ١٢١٨ ، فأقام الألمان فى المعسكر الصليبى الأول للقيام بواجب الدفاع والحماية (٢) ، فى حين تحرك باقى الصليبيين جنوبا الى دمياط ، وذلك عندما ترك الكامل جيشه ليخرج الى معسكره فى العادلية • وجدير بالذكر أن هيئة التيوتون أظهرت موافقتها على شروط السلطان الكامل التى قدمها للصليبيين فى السنة التالية سنة ١١٢٩ ، لأن الصليبيين كانوا قد فقدوا عددا كبيرا من رجالهم عند خروجهم لمواجهة المسلمين عند فرسكور ، لذلك كان التيوتون ضمن المحبذين لعقد الصلح ، أما الحزب الذى اختار استمرار الحرب والذى تزعمه مندوب البابوية بيلا جيوس ، فقد ساندته كل من الداوية والاسبتارية ، ثم حدث أن عرض الكامل على الصليبيين المفاوضات للمرة الثانية والثالثة (٣) • ولكن ظل الحزب المعارض على حاله حتى وصلت قوات المانية سنة ١٢١٢ بقيادة لويس الأول البافارى ومقدم التيوتون هرمان فون سالزا ، وبذلك تشجع الحزب المناصر للحرب ، وقرر مهاجمة مصر فى حين انسحب ملك بيت المقدس حنا برين الى الشام ولكنه عاد مرة أخرى الى مهاجمة مصر خوفا من سخط البابوية عليه (٤) • كذلك اشتركت هيئة التيوتون فى المعركة الخاسرة التى خاضها الصليبيون ضد الخوارزمية والأيوبيين عام

---

(١) Cahen. op. cit. p. 629
R.H.C., Tome I, Doc. Arm., p. xxx1

(٢) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 219

(٣) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٢ حوادث سنة ٦١٨ هـ •

(٤) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 236
Runciman, op. cit., Vol. III, p. 227

٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) قرب غزة ، عندما اشترك الطرفان فى معركة لم ينج منها سوى ٣٣ داويا و ٢٦ اسبتاريا وثلاثة من التيوتون (١) •

من تلك المقتطفات التى جاءت فى شتى المراجع الصليبية ، يتضح لنا أن الفرسان التيوتون كانوا يشتركون فى الحرب ضد المسلمين بشكل محدود وعلى نطاق ضيق ، ويرجع ذلك غالبا ، كما سبق ذكره ، الى قلة عدد أفراد الهيئة فى الشام ، ورغبة تلك الهيئة فى نقل نشاطها الى الغرب الأوروبى •

التنظيمات الداخلية لهيئة فرسان التيوتون :

تذكر لنا المراجع الحديثة بعض ملامح عن النظم التى سار عليها الرهبان الفرسان الألمان ، ورغم أن تلك النظم لم ترد فى أى من هذه المراجع بشكل واضح منتظم ، الا أننا نستطيع أن نتعرف على الشكل العام للتنظيمات الداخلية للهيئة الى حد ما •

ونظرا لأن هيئة الفرسان التيوتون تبلورت فى شكلها المعروف فى وقت متأخر عن هيئتى الاسبتارية والداوية ، فانها لم تحظ بمساندة القديس برنارد أسقف كليرفو ، ذلك الأسقف الذى تبنى هيئة الداوية منذ نشأتها ووضع قانونها ، ومدحها ، وراح يبث لها الدعاية الضخمة حتى نسجت حولها الأساطير ، تلك الدعاية التى لم تنلها هيئة التيوتون ، ربما يكون ذلك هو السبب فى أن الهيئة الألمانية لم تكن لها تلك القوة والثروة التى كانت للهيئتين الكبيرتين ، كما أن أفرادها لم ينعموا بحياة الترف والثراء الذى نعم به الداوية والاسبتارية • كذلك فان تاريخ هيئة فرسان التيوتون يتميز بالبساطة والوضوح ، بالاضافة الى أن المعارك الهامة التى خاضها أفراد الهيئة ، وظهرت فيها براعتهم الحربية ، لم تكن فى بلاد الشام بل بالقرب من بلادهم الأصلية (٢) •

ورغم أن هيئة التيوتون نشأت دون دعاية أو أساطير ، الا أنها سارت على قانون صارم ، صار عليه أفرادها بكل دقة ، فانه فيما يتعلق بأمور الحرب والقتال ، فان الهيئة سارت على قوانين الداوية الصارمة ، أما فيما

---

(١) ابن ايبك ، كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٥٣ •
R.H.C. Tome II, Doc. Arm. Chiprois, p. 726

(٢) Kantarowics, op. cit., p. 88

يتعلق بالنواحى الخيرية والاجتماعية ، فان التيوتون ساروا على قوانين الاسبتارية (١) • والدليل على ذلك أن تكوين الفرسان داخل الهيئة كان يشبه تكوين هيئتى الدوية والاسبتارية ، فقد تكونت صفوف هيئة الفرسان التيوتون من عدة مراتب من الفرسان والخدام والرهبان الذين يقومون على خدمة أفراد الهيئة من الناحية الروحية (٢) • ويذكر المؤرخ الألمانى روهرخت Rohricht أن البابوية هى التى فرضت النظام الحربى للداوية والنظام المدنى للاسبتارية على هيئة التيوتون (٣) •

وكان سلم الوظائف داخل هيئة التيوتون يرأسه المقدم ، وكان أهم تلك الوظائف هى :

١ — المقدم Magister Hospitalis Alamanorum Quodestin Accon أو Magister أى مقدم المستشفى الألمانية بعكا •

٢ — القائد الأعلى Commandator أو Praeceptor Magnus المراقب الأكبر ، وهو فارس راهب يقوم بدور القائد الأعلى ويتولى النواحى الحربية •

٣ — مساعد القائد الأعلى Praeceptor Minor

٤ — البرايور Prior وهو يباشر سلطة دينية توازى سلطة الأسقف •

٥ — القسطلان أو قائد القلعة Capellanus

٦ — المرشال أو القائد الحربى Marescalus

٧ — الرهبان القائمين على خدمة المرضى وعرفوا باسم Hospitarius

٨ — المسئول عن ملابس الهيئة Drapparius

يضاف الى ذلك عدد كبير من الرهبان القائمين على الواجبات الدينية داخل الدير أو القلعة (٤) • وقد سار جميع هؤلاء الموظفين من فرسان ورهبان وخدام على نظام القديس أوغسطين الديرى ، كما ظلت هيئة التيوتون تابعة لهيئة الاسبتارية ، كما سبق ذكره ، حتى تم استقلالها عام

(١) Lacroix, op. cit., p. 206
(٢) Archer, op. cit., p. 182
(٣) Rohricht, op. cit., Vol. II, p. 383
(٤) Ibid., p. 388

١١٤٣ م بقرار من البابا كلستين الثانى وكان هذا الاستقلال جزئيا ، حتى تم استقلالها التام سنة ١١٩٨ عندما تم الاعتراف رسميا بالهيئة كهيئة حربية مستقلة وأصبح اسمها منذ ذلك الوقت Teutonic Knights of the Hospital of the Virgin Mary of Jerusalem (١) •

وكان الالتحاق بهيئة التيوتون له شروط محددة واضحة ، فلم تقبل الهيئة أيا من الصليبيين ، بل كان شرطا أساسيا أن يكون العضو من الجنس الألمانى وأن يكون من النبلاء ، وقد أوردت بعض المراجع الحديثة انه ربما يرجع هذا التشدد الى رغبة الهيئة فى مقاومة تأثير الداوية والاسبتارية فى الشرق ، أى مقاومة الشخصية اللاتينية وفرض الشخصية الألمانية (٢) • ومما يدل على صحة هذا الرأى ، ما قام به الامبراطور فردريك الثانى عند قدومه الى الشرق ، عندما حاول محو الطابع اللاتينى واظهار الطابع الألمانى وفرض رعاياه الألمان وهيئة التيوتون على المجتمع اللاتينى بالشرق (٣) •

وبالاضافة الى ضرورة كون العضو من أصل المانى ، فكان لابد له أيضا أن يكون من النبلاء وألا يكون قد سبق له الزواج ، كما كان السن الأدنى لقبول العضو هو خمسة عشر عاما بشرط أن يكون العضو الجديد شديد البنية ، قادرا على تحمل مشاق الحرب • وبقبول العضو داخل الهيئة ، كان يحرم عليه معاشرة النساء أو حتى اظهار المحبة لأمه أو أخته أو احدى قريباته (٤) •

كما فرضت على الفرسان حياة الطهر والعفة مدى الحياة ، كذلك الطاعة المطلقة تجاه مقدم الهيئة وقوانينها • وكان الفارس يهب نفسه لخدمة الله والمرضى والمساكين ويقسم على الدفاع عن الأراضى المقدسة طيلة حياته ، وفى مقابل ذلك تقدم له الهيئة الخبز والماء فى أبسط أشكالها وأكثرها تواضعا (٥) • وقد سار الفرسان التوتون الأوائل على

---

(١) أ.د. سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٧٠١ •
King, op. cit., p. 42 & 169

(٢) Bordonove, op. cit., p. 244

(٣) Richard, op. cit., p. 231

(٤) Lacroix, op. cit., p. 206

(٥) Dumesil, op. cit., col. 978

هذا النظام الصارم ، حتى أن الفارس كان ينـام على فراش من القش ، ذلك لأن قوانين الهيئة نصت على الا يمتلك الفارس شيئا خاصا ، كما أنها فرضت على الأفراد ترك صوامعهم مفتوحة بصـفة مستمرة حتى يتمكن أى شـخص من رؤية الراهب فى أى وقت من أوقـات الليل والنهار • كذلك حرم على الفارس التيوتونى اقتناء الأسـلحة المحلاة بالذهب والفضة ، فعاش هؤلاء الفرسان من النبلاء فى تقشف شديد فى ظل قانون الهيئة الصارم (١) •

ويذكر لنا ابن شداد فى كتابه « النوادر السـلطانية والمحاسـن اليوسفية » لمحـة عن الألمان دون تحديد لفئـة معينة منهم ، فذكرهم ببعض عبارات تدل على شدتهم وصرامتهم فيقول « من جنى منهم جناية فليس له جزاء الا أن يذبح مثل الشاة » • ثم يقول أيضا « وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك كان حزنا على بيت المقدس » (٢) •

وكان الفرسان التيوتون يقيمون اجتماعا سنويا General Chapter يحضره جميع رهبان الهيئة المقيمون فى جميع مراكز الهيئة المنتشرة من السويد شمالا حتى الشام شرقا • وكان هذا الاجتماع تقليدا سـارت عليه الداوية والاسبتارية ، وهو السـلطة الوحيدة المتميزة على سـلطة المقـدم •

أما عن نهاية الفرسان التيوتون فى بلاد الشام ، فسوف نتعرض له فى الفصل التالى عند الحديث عن نهاية الرهبان الفرسان فى بلاد الشام •

---

(١) Lacroix, op. cit., p. 206

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩٥ •

الفصل السابع

نهاية الرهبان الفرسان فى بلاد الشام

أدرك سلاطين وحكام المسلمين خطورة وأهمية الرهبان الفرسان ومدى تهديدهم عن طريق قلاعهم الهامة القوية وجيوشهم المنظمة للمدن الاسلامية الهامة ، ومنذ أيام عماد الدين زنكى أدرك المسلمون خطورة قلاع الداوية والاسبتارية ومدى تهديدها للمدن الاسلامية فى الشمال وهى دمشق وحمص وحلب وحماه ، وتهديدها للمدن الاسلامية فى الجنوب خاصة مدن مصر وفلسطين ، لذلك حاول المسلمون منذ أيام نور الدين محمود فصاعدا الحد من نشاط الداوية والاسبتارية وتدمير حصونهم وتذكر لنا المصادر العربية محاولات كثيرة من جانب سلاطين وحكام المسلمين للاستيلاء على حصون وقلاع الداوية والاسبتارية ، كما تذكر لنا هذه المصادر أن ضرب الرقاب كان عقاب كل داوى واسبتارى وقع فى أيدى المسلمين بعد المعركة ، وذلك لما علمه المسلمون عن الرهبان الفرسان من شدة كراهيتهم للمسلمين . وهناك بعض أمثلة لذلك ، فقد ذكر لنا أبو شامة فى كتابه الروضتين عن حادث مهاجمة نصرة الدين أخو نور الدين محمود لقافلة الاسبتارية المتجهة لتقوية حامية بانياس سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م ، فقد تم أسر عدد كبير منهم وأرسل نصرة الدين لأخيه نور الدين فى بعلبك جماعة من أسرى الاسبتارية فأمر بضرب أعناقهم جميعا (١) . ومن المعروف أن هذا الحادث وقع عندما حاول الاسبتارية امتلاك منطقة بانياس لكى يهددوا مدينة دمشق منها ، ويبدو أن نور الدين أدرك ذلك فعمل على القضاء عليهم قبل وصولهم مما جعل المؤرخ وليم الصورى (٢) يذكر أنه بعد هذا الحادث نقضت الاسبتارية اتفاقها مع أصحاب اقطاع بانياس خوفا من تكرار المأساة ، مما جعل العالم الاسلامى تسوده فرحة كبيرة ، كذلك يذكر لنا المؤرخ

---

(١) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 257.

ابن الأثير عن محاولة نور الدين محمود فى الاستيلاء على حصن الأكراد التابع للاسبتارية وهى تلك المحاولة التى فشل فيها نور الدين وكاد يقتل وتسمى وقعة « البقيعة » (١) . وقد تمت هذه المحاولة من جانب نور الدين فى نفس السنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٤ م التى أرسل فيها الحملة بقيادة أسد الدين شيركوة على مصر لانقاذها من أيدى الصليبيين . ولما فشل نور الدين محمود فى الاستيلاء على حصن الأكراد عمل على الاستيلاء على حارم وبانياس عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م (٢) ، كذلك فانه أثناء حملة عمورى الثانية على مصر عام ١١٦٧ ، فان نور الدين عمل على الاستيلاء على صافيتا والعريمة وهاجم المنيطرة (٣) ودمر الأرض التى حول حصن عرقة ثم سار جنوبا يهدد هونين . واذا دققنا النظر فى خطة نور الدين محمود نجد أن معظم هذه المناطق والحصون ، انما كانت تابعة للداوية أو الاسبتارية ، صحيح أن نور الدين محمود ومن بعده من جميع سلاطين وحكام المسلمين عملوا على استئصال جميع الصليبيين من بلاد الشام ، ولكن يبدو أن جميعهم كان يدرك تماما خطورة الرهبان الفرسان مما جعل كثيرا منهم يعمل على الاستيلاء على حصونهم وقلاعهم قبل تصفية المدن والمراكز الصليبية الأخرى .

وكان أن اشتد الضغط على الفرسان الرهبان من جانب المسلمين على على يد صلاح الدين الأيوبى ذلك السلطان العظيم الذى أعلن الجهاد المقدس ضد الصليبيين ، ونجح فى تحرير جزء كبير من الأراضى الاسلامية وأهمها القدس الشريف . وكانت بداية نشاط صلاح الدين تجاه الفرسان الرهبان عام ١١٧٩ م عندما قام صلاح الدين فى هذه السنة بمهاجمة قلعة الداوية التى شيدوها عند مخاضة الأحزان أو جسر بنات يعقوب على مقربة من بانياس (٤) . ونظرا لأن هذه القلعة كانت تهدد المدن الاسلامية الكبرى فى الشام ، فقد عمل صلاح الدين بكل قواه على تدمير هذا الحصن عن آخره وحرمان الداوية من قاعدة هامة لهم تمكنهم من تهديد أماكن هامة من الوطن الاسلامى . كذلك فان صلاح الدين بعد أن دمر

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٩٤ .
King, op. cit., p. 89.

(٢) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٣١ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٥ .
المرجع السابق ، ص ٦٧ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٥ .

قلعة جسر بنات يعقوب للداوية توجه لتدمير حصن عرقة للاسبتارية ، مما جعل باقى حاميات الداوية والاسبتارية فى كل من صافيتا (للداوية) وحصن الأكراد (للاسبتارية) يدركون نية السلطان فاحتموا فى قلاعهم متخذين موقف الدفاع (١) .

أما بعد نصر حطين ، فان صلاح الدين عمل على التخلص من أفراد الداوية والاسبتارية تماما ، فذكر العماد الكاتب (٢) ، أن السلطان قال « أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين » مما يدل على كراهية السلطان لهم . ومما يدل على ذلك أنه جعل لكل من يحضر داوى أو اسبتارى مكافأة خمسين دينارا ، وبعد أن أحضرهم جميعا فانه أمر بضرب رقابهم مفضلا قتلهم على أسرهم . ويذكر لنا ابن واصل كذلك أن السلطان صلاح الدين لم يبق على أحد من الداوية والاسبتارية بعد حطين وأثبت صلاح الدين ذلك فى الخطابات التى أرسلها الى دار الخلافة فى بغداد اذ ورد فيها « أما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم » (٣) .

ومن المعروف أنه بعد نصر حطين عمل صلاح الدين الأيوبى على تدمير حصون الصليبيين وكان أهمها ملكا للداوية والاسبتارية ، مثل الفولة وغزة والداروم للداوية (٤) . ويذكر كنج أنه بعد ثلاثة أشهر من نصر حطين كان صلاح الدين قد استولى على كل المدن والقلاع الصليبية ما عدا صور وست من قلاع الحدود هى قلعة بلفور Belfort أو شقيف أرنون وهى للداوية وقد صمدت ثلاثة أشهر أخرى ، ثم هونين Chateauneuf وهى للاسبتارية وقد صمدت بقوة صغيرة بها ، ثم كوكب أو Belvoir وهى للاسبتارية وكانت بها حامية ضخمة وصفد للداوية وقد صمدت هى الأخرى ، وأخيرا قلعة الكرك والشوبك وهما فى جنوب الشام (٥) . ونرى من ذلك أن أربع قلاع من الستة كانت للهيئات العسكرية ، فعمل السلطان على فتحها بعد أن انتهى من فتح بيت المقدس واسترداده (٦) . وفتح صلاح الدين قلاعا أخرى للداوية

---

(١) Grousset, op. cit.. Vol. II, p. 678

(٢) العماد ، الفتح القسى ، ص ٥٦ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣٣٣ .

(٤) ابو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(٥) King, op. cit., p. 131

(٦) العماد ، الفتح القسى ، ص ٥٦ .

والاسبتارية عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م منها جبلة واللاذقية وحصن صهيون وبكاس والشغر وهى للداوية ، كما فتح قلعتى دربساك وبغراس وهى للداوية أيضا ، أما قلعة صفد للداوية فقدكانت منيعة ولكن أخيرا استطاع السلطان أن يتولى فتحها بنفسه كما أن قلعة صفد وحصن كوكب للاسبتارية (١) قد تم الاستيلاء عليهما فى نفس الوقت وجىء بالأسرى للسلطان وهو على صفد ، فأمر صلاح الدين بالقضاء على الفرسان الرهبان وضرب رقابهم « فان السلطان ما كان يبقى على أحد من الاسبتارية والداوية » (٢) . أما قلعة المرقب للاسبتارية فانها استعصت على صلاح الدين فرحل عنها (٣) ، وكان أن حاول ابنه الملك الظاهر صاحب حلب عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م أن يستولى عليها بسبب تهديد هذه القلعة لمدينته ولكنه فشل أيضا (٤) .

ومن المعروف أن القلاع والحصون كانت من أهم أسلحة الحرب فى العصور الوسطى وبسقوطها كانت المنطقة المحيطة بها تسقط تلقائيا . وكما سبق ذكره ، أن الصليبيين عندما واجهتهم مشكلة قلة الرجال (٥) عملوا على تعويضها باقامة الحصون الضخمة للاحتماء بها حتى يمل العدو ويرحل أو يفد اليهم مدد من بنى جنسهم . ولكن عندما تم تأمين الوحدة الاسلامية ، وتم حشد الجيوش من جميع أنحاء الوطن العربى ، وتفكك الكيان الصليبى على نفسه بدأت هذه القلاع والحصون تسقط الواحدة وراء الأخرى فى أيدى القوى الاسلامية مما آذن بانهيار الصليبيين وطردهم نهائيا من بلاد الشام ، وورث المماليك من سادتهم الأيوبيين فكرة الجهاد وضرورة تصفية الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، فما أن نجح السلطان المظفر قطز فى التغلب على المغول فى عين جالوت سنة ١٢٦٠ م حتى عمل السلطان الظاهر بيبرس على القضاء على الصليبيين فى الشام بالقوة بعد أن أعلن أن سياسة المعاهدات قد انتهت (٦) . وجاء بيبرس الى الشام سنة ١٢٦٣ لمهاجمتها فأذعن له بعض بارونات الصليبيين ، كما جاء له ممثلون عن حاكم عكا طلبا للهدنة وتبادل الأسرى ، ومن الغريب

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٤٩ .
(٢) العماد ، الفتح القسى ، ص ١٦٣ .
(٣) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٤ .
(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٣ .
(٥) Smail, op. cit., p. 104
(٦) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 621

أن كلا من الداوية والاسبتارية رفض تسليم أسرى المسلمين ولو فى مقابل استرداد أسراهم المسيحيين ، وذلك لأن الأسرى المسلمين الذين كانوا لدى الداوية كانوا من مهرة الصناع ، ويذكر المقريزى أن السلطان بيبرس استدعى مقدم الاسبتارية هيوريفيل ومقدم الداوية توماس برنارد وغيرهما للتشاور بشأن أسرى المسلمين وأظهر لهم السلطان علمه بنيتهم بالاحتفاظ بأسرى المسلمين لبراعتهم فى الصناعة ، كما أظهر لهم معرفته بعدة أمور أخرى ، مما جعلهم يزدادون تمسكا بمد الهدنة (١) .

غير أن رفض الداوية والاسبتارية تسليم أسرى المسلمين وجعل السلطان بيبرس يضرب بكل قوته ضد الصليبيين بالشام فهاجم منطقة الجليل حتى وصل عكا فى الرابع عشر من أبريل ١٢٦٣ ثم رجع عنها ، وفى العام التالى قامت الداوية والاسبتارية بمفاجأة قلعة Lejjun وهى مجدو القديمة (Lion des Croises) كما قاموا بالاشتراك مع فرسان عكا بمهاجمة عسقلان ، مما جعل بيبرس يهاجم منطقة قيصرية وعثليث للداوية ، ويبدو أنه فى عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م تبادل الظاهر بيبرس ومقدم الاسبتارية هيوريفيل عدة رسائل (٢) ، مما جعل مهاجمة بيبرس لقلاع الاسبتارية تخف وطأتها فى السنوات القلائل التالية ، وجعله يركز العمل للاستيلاء على قلاع الهيئات الأخرى ، فحاول فى شهر مايو سنة ١٢٦٦ مهاجمة قلعة القرين Monfort التابعة للفرسان التيوتون ولكنها كانت حصينة للغاية فتركها الى قلعة صفد التابعة للداوية . وقد استولى بيبرس على هذه القلعة المنيعة بعد قتال عنيف . ويذكر المؤرخ جروسيه (٣) أن حيلة بيبرس فى الاستيلاء على صفد كانت نتيجة وقيعة بين مختلف الطوائف المسيحية الشرقية منها والغربية داخل القلعة عن طريق جندى سورى اسمه ليون كان يقوم بوظيفة ادارية بهيئة الداوية . كما يذكر لنا أبو المحاسن أن بيبرس أراد أن يتخلص من أفراد الداوية الذين بقلعة صفد فأعطاهم الأمان عن طريق أحد رجاله وهو قرمون التترى الذى كان شديد الشبه بالسلطان ، وذلك حتى يكون السلطان نفسه فى حل عن هذا الوعد ويتخلص منهم تماما بضرب رقابهم ، لأنه

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٦٥ .

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 626

« كان فى قلب الملك الظاهر منهم حزازة » كما يذكر أبو المحاسن (١) .

ويذكر المقريزى (٢) أنه لم يبق من حامية صفد سوى اثنين ، اختار أحدهما الاقامة عند السلطان بعد اسلامه ، أما الثانى فقد أطلقه السلطان ليذهب الى باقى الفرنج ليبث فى قلوبهم الرعب .

وفى أغسطس من نفس السنة ١٢٦٦ م هاجم بيبرس قلعة القرين للتيوتون ، ثم قامت جيوشه بالاستيلاء على ثلاث قلاع هى : القليعات وحلبه وعرقة ، وهى قلاع هامة دافعت عن امارة طرابلس . ثم سار السلطان الى صيدا وهى التى أصبحت ملكا للداوية أيضا بما فيها قلعة الشقيف أرنون ، فقد عجز صاحب الاقطاع جوليان عن الدفاع عن اقطاعه فتنازل عنه للداوية ولكن هؤلاء عجزوا أيضا عن الدفاع عنه فسلموه لبيبرس فى ١٥ أبريل ١٢٦٨ . ثم قام بيبرس بنفسه بمهاجمة انطاكية فى ١٤ مايو ١٢٦٨ ، فجاء اليه قادة داوية طرطوس وصافيتا يطلبون من السلطان أن تكون أراضيهم خارج نطاق الحرب فأجابهم الى ذلك ، وبذلك حرم بوهيموند أمير انطاكية من حلفائه الداوية واستولى بيبرس على انطاكية . يضاف الى ذلك أن الداوية بانطاكية لم يفكروا فى الدفاع عن قلاعهم فى هذه الامارة مثل قلعة بغراس La Roche حتى أنه باقتراب السلطان قام قائد الداوية Guiraud de Sauzet باخلاء القلعتين بدون قتال (٣) .

أما بخصوص حصن الأكراد التابع لهيئة الاسبتارية ، ذلك الحصن المنيع الذى طالما ضايق المسلمين ، فان السلطان بيبرس استطاع بعد عدة محاولات الاستيلاء عليه نهائيا فى ٢٤ شعبان عام ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠م (٤) وسمح بيبرس لمن فى الحصن من الاسبتارية بالتوجه الى طرابلس ،

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٩ .
وأبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٣ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٧ .
Grousset, op. cit., Vol. III, p. 627
Conder op. cit., p. 387

(٣) العينى ، عقد الجمان RHC.
Grousset, op. cit., Vol. III, p. 642

(٤) العينى ، عقد الجمان ، ص ٢٧٠ R.H.C. Tome II
وابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٦ .

ونتيجة لسقوط حصن الأكراد فى يد السلطان بيبرس أرسل المقدم الداوية فى طرطوس يطلب من السلطان المهادنة فقبل بيبرس على أن يتنازل له عن نصف ما يتحصل عليه من غلال بلاده ، كما جعل عنده نائبا من قبله كذلك وصلت الى السلطان رسل الاسبتارية من حصن المرقب تطلب منه الصلح بنفس هذه الشروط فأجابهة على صلح لمدة عشرة أعوام (١) ، ولم يتضمن الصلح صافيتا للداوية ، فقام بيبرس بمحاصرتها وكانت حاميتها تتكون من سبعمائة جندى دافعت عن القلعة دفاعا مريرا ولم تستسلم الا بعد أن أمرهم بذلك قادة داوية طرطوس (٢) .

وبعد الاستيلاء على حصن الأكراد (للاستبارية) وصافيتا (للداوية) قام بيبرس بالاستيلاء على حصن عكار الذى كان عمورى الأول قد منحه للاسبتارية عام ١١٧٠ م ، فاستسلمت القلعة فى ١١ مايو ١٢٧١ ، وسمح لحاميته بالتوجه الى طرابلس . وتفرغ السلطان بعد ذلك لمهاجمة حصن القرين التابع للتيوتون وهو « حصن بناؤه من الحجر الصلد وبين كل حجرين عمود حديد ملزوم بالرصاص ، فأقاموا فى هدمه اثنى عشر يوما وفى حصاره خمسة عشر يوما » (٣) كما يذكر أبو المحاسن . وباستسلام التيوتون سمح لهم السلطان بالتوجه الى عكا .

ويذكر لنا المقريزى أن السلطان الظاهر بيبرس بعد استيلائه على قلاع هونين وتبنين وهما التابعان للهيئات العسكرية أيضا فان رسولا من الاسبتارية جاء يطلب الأمان على بلاده فأجابه السلطان بشرط اعفاء مدينة حماه من دفع الجزية السنوية التى كانت تدفعها للاسبتارية وقيمتها أربعة آلاف دينار والاتاوة التى كان يدفعها سكان أبى قبيس (وهو حصن مقابل شيزر) وقيمتها ثمانمائة دينار . وكذلك طلب من الاسبتارية أن يتنازلوا عما كانوا يتقاضونه سنويا من طائفة الاسماعيلية ، وقد قبل رسول لاسبتارية هذه الشروط وعقدت الهدنة بينه وبين السلطان (٤) . وفى نفس السنة أغار بيبرس على بعض القلاع الواقعة فى أرمينيا الصغرى فاستولى على قلعة الداوية ويفترض المقريزى أنها قلعة « العامدين » التى تقع فى هذه المنطقة .

---

(١) ابن أيبك ، كنز الدرر ، ج٨ ، ص ١٥١ .

(٢) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 654

(٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٣ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٠ .

وهكذا دمر الظاهر بيبرس أهم الحصون والقلاع التى كانت للصليبيين فى بلاد الشام وكانت تابعة وتحت حماية أقوى طوائف الصليبيين فى الشرق ألا وهى قوى الرهبان الفرسان ولذلك فانه بعد سقوط تلك القوة وانهيارها لم يعد للصليبيين الا قوات ضئيلة مبعثرة تطحنها المنازعات • يضاف الى ذلك أن الهيئات العسكرية من الفرسان الرهبان لم تعد قادرة على القيام بعمليات ضخمة ضد المسلمين ورغم ذلك فقد استمر ما تبقى من أفرادها يقومون بعمليات بسيطة كنوع من صحوة الموت فاشتركوا مثلا مع الأمير ادوارد الأول الانجليزى سنة ١٢٧١ بحملة صغيرة ضد المسلمين غنموا فيها بعض الغنائم ، كذلك انضمت قوات من الداوية والاسبتارية أحيانا الى قوات المغول فى مهاجمة أراضى المسلمين • ومما يوضح هذا التعاون بين المغول وبقايا هيئات الفرسان أنه حدث بعد وفاة السلطان بيبرس أن قام المغول عام ١٢٨٠ بغزو الشام فاستولوا على عنتاب وبغراس ودربساك (١) ثم هاجموا حلب • ولما كان اسبتارية المرقب أقرب الصليبيين الى مسرح هذه الحوادث ، لذلك تعاون الاسبتارية مع المغول فى مهاجمة قلعتهم القديمة حصن الأكراد التى كان بيبرس قد استولى عليها • واشتبك الاسبتارية والمماليك عند مرقية ، وانتصر الاسبتارية رغم قلة عددهم ، لذلك أمر السلطان قلاوون الذى تولى دست السلطنة المملوكية بعد الظاهر بيبرس قائده الأمير سيف الدين بلبان الطباخى قائد الحامية الاسلامية بحصن الأكراد بأن يخرج فى أكتوبر ١٢٨٠ بحملة انتقامية لمهاجمة المرقب ، وفشل الأمير بلبان الطباخى فى الاستيلاء على الحصن لحصانته ، لذلك خرج السلطان قلاوون بنفسه ناقضا بذلك الهدنة التى كانت بينه وبين مقدم الاسبتارية Lorgne فهاجم ذلك الحصن المنيع الذى استعصى على من قبله من سلاطين المسلمين (٢) واستولى عليه • ويذكر أبو المحاسن أن السلطان قلاوون سمح لمن نزل من حصن المرقب بالخروج الى طرطوس

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٩ ، ص ١٩ •

(٢) ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢١ •

Cahen, op. cit., p. 720

Brehier, op. cit., p. 244

Conder, op. cit., p. 402

وكان يقع بجانب المرقب بلدة مرقية وهى للداوية أيضا استطاع قلاوون الاستيلاء على قلعتها وهدمها (١) .

وخرج السلطان قلاوون لحصار طرابلس سنة ١٢٨٩ التى كانت حينئذ تحت حماية الجنوية بعد موت أميرها بوهيموند السابع ، وكان الرجل الوحيد صاحب السطوة والكلمة بين الصليبيين بطرابلس هو مقدم الداوية جيوم بوجو Guillaume Beaujeu . ورغم أن هذا المقدم عرف مسبقا بنية السلطان قلاوون فى غزو طرابلس عن طريق أحد الأمراء وهو بدر الدين بكداش الفخرى وقام جيوم بتحذير أهل طرابلس من هجوم المسلمين المرتقب ، الا أن هؤلاء كانوا فى شغل شاغل بمنازعاتهم الداخلية ، حتى أنهم وجدوا أنفسهم بدون استعداد أمام جيوش المسلمين . وأمام هذا الخطر تعاون الصليبيون جميعا لانقاذ طرابلس ، فقد اشترك الداوية بقيادة ماريشالهم Geoffroi de Vendac (٢) وقائدهم فى عكا Pierre de Moncada لنجدة طرابلس ، كما انضم الاسبتارية لنجدة أهل طرابلس رغم الكراهية الشديدة التى كانت بينهم ، كذلك اشتركت قوة الايطاليين فى الدفاع عن الامارة . وأخيرا فى ٢٦ أبريل ١٢٨٩ استطاع المسلمون احراز النصر والاستيلاء على طرابلس وهربت الأميرة لوسى ومارشال الداوية ومارشال الاسبتارية ، كما قتل قائد الدواية . وأمر السلطان قلاوون بهدم المدينة فأخليت ، وهكذا لم يعد للصليبيين فى الشام سوى عكا وبيروت وصيدا وصور وعثليث (٣) .

وبسقوط طرابلس فى يد السلطان قلاوون (٤) أرسل مقدم الاستبارية بعكا خطابا يصف فيه للبابا خسائر الهيئة عند الدفاع عن طرابلس ، ولذلك فقد أرسلت البابوية فى ٩ سبتمبر سنة ١٢٨٩ م أربعة آلاف دينار صورية (*) لفك سراح الأسرى وعمل الآلات اللازمة وحفر خندق حول

---

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٧ .

(٢) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 406

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 744

(٤) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٢ .

(*) لعل المقصود بالدنانير الصورية أنها دنانير صليبية ضربت بمدينة صور أو أنها دنانير صليبية مصورة أى منقوش عليها صور ملوك مملكة بيت المقدس أو غيرهم .

انظر : أ.د. حسنين ربيع ، النظم المالية فى زمن الأيوبيين ، ص ٩٨ .

عكا (١) • كذلك حاول الصليبيون بعد سقوط طرابلس عقد هدنة مع المسلمين ولكن المندوب البابوى رفض هذه الفكرة وهدد بطرد الرهبان الفرسان من الكنيسة • كما قام المندوب البابورى باهانة التجار المسلمين، وتلى ذلك مذبحة هائلة للمسلمين وكذلك قام السلطان قلاوون بالاستعداد للخروج الى عكا ناقضا الهدنة المعقودة بينه وبين الداوية (٢) • ويذكر جروسيه بعض التفاصيل عن الجانب الصليبى لذلك الحادث فيروى لنا أن السلطان قلاوون طلب من بلاط عكا تسليم القتلة الذين وصفهم المؤرخ الفرنسى بأنهم حجاج ايطاليين • وأمام هذا المطلب اقترح المقدم بوجو — صاحب أقوى كلمة بين الصليبيين — على المجلس الذى عقد لبحث طلب السلطان ، تسليمه بعض المسجونين الصليبيين على أنهم هم الذين قاموا بالمذبحة • وعلى الرغم من أن مقدم الاسبتارية ومقدم التيوتون وافقا على هذا الرأى الا أن أهل عكا اعتبروا هذا منافيا للقيم ، واكتفى الصليبيون بالاعتذار عما حدث • ولذلك أعلن السلطان الحرب وأمر قادته بالاستعداد ولكن الموت فاجأه فتوفى فى (١٠ شوال ٦٨٩ هـ) العاشر من نوفمبر ١٢٩٠ (٥) • وقد كتب السلطان الأشرف خليل بعد موت والده فى مارس ١٢٩١ م خطابا الى مقدم الداوية يحذره بأنه سوف ينتقم من مندوب البابا ، وأنه سوف يهاجم مدينة عكا (٤) •

وحاول أهل عكا ارسال سفارة للأشرف خليل لايقاف الحملة المنتظرة، ولكن السلطان زج بالرسل الصليبيين فى السجن ، أما مقدم الداوية بوجو فقد كانت صلته ببلاط مصر حسنة فأرسل خطابا الى بلاط السلطان فى مصر يطلب منه الصفح وعدم ارسال حملة ، ويبدو من رد الأشرف له ما أظهره هذا السلطان من تقدير لمقدم الداوية • ورغم هذه المحاولات فقد ظهر الأشرف خليل أمام عكا فى ٥ أبريل ١٢٩١ ، واشتركت كل الطوائف الصليبية فى الشام للدفاع عن عكا • أما مقدم التيوتون بورشار دى شواندن Burchard de Schwanden فقد استقال من منصبه فى ذلك الوقت الحرج فخلفه كونراد فوتشفاجن Conrad de Feuchtwagen

(١) Conder, op. cit., p. 403

(٢) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ص ٤٨ •
المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٨٤ نص الهدنة الموقعة بين السلطان قلاوون والاسبتارية •

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 750

(٤) Conder, op. cit., p. 405

الذى أظهر براعة فائقة أثناء المعركة ، أما الاسبتارية بقيادة مقدمها جان فيلير Jean Villiers فقد دافعت عن المنطقة الجنوبية للمدينة ، كذلك قامت الداوية بالدفاع عن القطاع الشمالى الغربى لعكا ، فى حين عاون التيوتون هنرى الثانى فى دفاعه عن قطاعه (١) •

وفى الليلة الخامسة عشرة من أبريل استطاع بوجو مقدم الداوية الخروج من باب القديس لازار ومفاجأة فرق جنود حماه التى كانت تقف فى الجانب المقابل لقطاع الداوية ، وأحدث فيهم خسائر فى الأفراد • وعندما شعر بقدوم الامدادات عاد الى داخل المدينة وكان ينوى احراق آلات حصار المسلمين ولكنه فشـــل •

وفى ١٨ مايو هاجم الأشرف أسوار عكا بقوة أكبـــر ، وقـــد حاول مارشال الاسبتارية ماثيوكليرمونت Mathieu de Clermont ايقاف هذا الزحف الاسلامى ، ولكنه فشل فى الوقوف أمام جموع المماليك المتلاحقة فلجأ الى قلعة الداوية • ولقى مقدم الاسبتارية جان فيلير حتفه أثنـــاء محاولة معاونة المارشال ، كما لقى مقدم الداوية جيوم بوجو حتفه هو الآخر أثناء الهجوم الأخير ، وقد أورد المؤرخ كنج نص الخطاب الذى أرسله جان فيلير قبل وفاته الى صديقه برايور سان جيل يصف لـــه هجوم المسلمين على عكا ومقاومة الصليبيين لهم مقاومة شديدة ، كما يذكر له خبر موت مارشال الهيئة وجرح مقدم الداوية (٢) •

وأخيرا استولى المسلمون على عكا بعد حصار دام أربعة وأربعين يوما (٣) ولكن أبراج الداوية والاسبتارية والأرمن الأربعة ظلت تقاوم بدون توقف ثم طلب الداوية الأمان فأمنهم السلطان ، ولكن دخـــول بعض جند المماليك الى القلعة ونهبهم لها جعل الداوية يحتمون مرة ثانية فى أبراجهم وأغلقوا أبوابهم ، فى حين سامت أبراج الاسبتارية والأرمن (٤) •

واستمر القتال فى برج الداوية بعد أن احتمى فيه كثير من الصليبيين بعض الوقت • أما مارشال الداوية بيير دى سفرى Pierre de Sevry وقائدهم تيبو جودن Thibaud Gaudin فقد كانوا يستعدون للاقلاع

---

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 752

(٢) King, op. cit., p. 301

(٣) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ص ٤٨ •

(٤) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ، ص ٧ •

الى قبرس على السفن الايطالية ، وبالفعل خرج القائد ومعه خزائن هيئة الداوية والأموال والرفات (١) .

وقد ظل مارشال الداوية بداخل البرج يحارب بشجاعة مع من معه ، لذلك لجأ الأشرف خليل الى الحيلة ففرض على مارشال الداوية شروطا مغرية ليسلم البرج ويخرج الى قبرس « فأمنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجهوا حيث شاءوا . فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين وأسروا مثلهم » (٢) . أما من بقى فى القلعة من الداوية فقد فضل المقاومة حتى الموت وكان معظمهم من المرضى والجرحى والعجائز . وفى ٢٨ مايو شدد السلطان الحصار على ما بقى من الأبراج واستولى عليها ، وفر قائد الداوية Gaudin الى صيدا (٣) ومنها الى قبرس بعد أن وعد زملاءه بارسال نجدة لهم ولكن لم يف بوعده . ودخلت جيوش الأشرف خليل صيدا واحتلتها فى ١٤ يوليو ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) (٤) . ثم تسلم الأشرف بعد ذلك عثليت وطرطوس وكانتا للداوية (٥) . ولم يبق للداوية سوى جزيرة أرواد Ruad وهى جنوب طرطوس وهى التى احتفظوا بها حتى عام ١٣٠٣ م (٦) .

وهكذا ظلت الداوية فى بلاد الشام عدة سنوات بعد سقوط عكا على يد الأشرف خليل سنة ١٢٩١ م حتى انتهى عهد كل من الداوية والاسبتارية والتيوتون فى بلاد الشام نهائيا . فقد اتجهت كل من تلك الهيئات العسكرية الى اتجاه يختلف عن الآخر ، فاتجهت هيئتا الداوية والاسبتارية بفرسانهم بعد سقوط عكا الى قبرس حيث تدخلوا فى شئونها السياسية ، وكانت البابوية تضع أملها فى رجال الهيئتين وثرائهما الكبير للقيام بحملة صليبية جديدة وخفى على البابوية أن تلك الهيئات لم يكن فى مقدورها القيام بحملة وحدها ، كما أن ضياع بلاد الشام من الصليبيين جعل هيئات

---

(١) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 761
Brehier, op. cit., p. 246

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٧ .

(٣) Grousset, op. cit., Vol. III, p. 762

(٤) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨٥ .

(٥) أبو الفدا ، تاريخ أبو الفدا ، احداث سنة ٦٩٠ هـ .
ابن أيبك ، كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٠٨ .

(٦) أبو المحاسن ، النجو الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١١ .
Grousset, op. cit., Vol. III, p. 762

الرهبان فى حالة من الضياع ووجودهم فى قبرص كان يقيدهم ويحـــدد حركتهم • لذلك قامت الاسبتارية بالبحث عن مقر آخر وبالفعل قامت الاسبتارية ومقدمها فولك فيليريت Fulk of Villaret بمعـــاونة الايطاليين بغزو جزيرة رودس واستولت عليها فى الخامس عشر من أغسطس ١٣٠٨ م لتجعل فيها قيادتها الجديدة •

وظل الاسبتارية فى جزيرة رودس حتى سنة ١٥٢٢ م ، ولتاريخهم فى رودس أهمية خاصة فى تاريخ الشرق الأدنى فى العصور الوسطى نظرا للدور الذى قاموا به فى المرحلة الأخيرة من مراحل الحركة الصليبية ، فضلا عن علاقاتهم العديدة مع مختلف القوى المعاصرة فى الشام ومصر من ناحية وفى آسيا الصغرى والبلقان من ناحية أخرى ومن ايطاليا وغرب أوروبا من ناحية ثالثة (١) •

أما الفرسان التيوتون ــ فبعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ م ــ فساروا الى الغرب الأوروبى وأمضت الهيئة عدة سنوات فى البندقية ، ومنهـــا انتقلت الى مدينة Marburgo فى بروسيا حيث ركزت الهيئة نشاطها ضد الوثنيين فى تلك المنطقة ، وأصبحت تلك المدينة الواقعة على نهر الفستولا حاضرة الفرسان التيوتون فى الشمال • وفى هذا المقر الجديد انضم الى الهيئة بعض الهيئات الدينية الحربية الأخرى للتعاون فى محاربة الوثنيين • واستولت الهيئة على مساحات شاسعة فى منطقة بروسيا • وفى سنة ١٨٠٩ م قام نابليون بونابرت بالقضاء على هيئة الفرسان التيوتون ولكن هذه الهيئة أعيد تأسيسها ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا (٢) •

أما الداوية فقد كانت أقل توفيقا ، وذلك لأن هذه الهيئة الثرية أثارت حقد الجميع ، كما أنها كانت منذ وقت طويل تشتغل فى المال وأعمـــال القروض فى الشرق ، وهى مهنة لا تكسب صاحبها محبة الناس ، خاصة وأن هيئة الداوية تميزت بالأنانية وعدم الشعور بالمسئولية • كذلك

---

(١) انظر : سامى سلطان سعد ، الاسبتارية فى رودس ١٣١٠ — ١٥٢٢ م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ــ جامعة القاهرة • قسم تاريخ (فرع تاريخ العصور الوسطى) (١٩٧٥) •

انظر أيضا : ا.د. احمد دراج ، المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى ــ القاهرة ١٩٩١ •

(٢) Bordonove, op. cit., p. 244

Thompson, Hist of the Middle Ages, p. 382

كان التعامل المالى من شأنه أن يجعل الهيئة فى اتصال دائم مع المسلمين فاتخذوا منهم أصدقاء ، كما أن الهيئة راحت تهتم اهتماما خاصا بالاسلام والثقافة العربية (١) • هذه العلاقة بين الداوية والمسلمين خلال التعامل المالى جعل الكثير يتهمون الداوية بعد استقرارها فى فرنسا بعدة اتهامات أهمها : التعامل مع المسلمين بالاضافة الى عدة اتهامات أخلاقية• وفى بداية القرن الرابع عشر ، لم يعد للداوية نشاط سياسى أو عسكرى بعد استرداد المسلمين لبلاد الشام ، ولذلك مارست الهيئة أعمال البنوك فى الغرب الأوروبى بكفاءة كبيرة ونافست فى ذلك كل من اللمبارديين واليهود (٢) • وأصبحت قلاع الداوية فى أوربا أكثر البنوك أمنا فى الغرب كله ، وعمل الأمراء والملوك والبابوات على ايداع أموالهم لدى الداوية ، كما عملوا على فتح حسابات جارية فيها • بالاضافة الى أن الداوية قامت بمهمة نقل الأموال من مكان لآخر بواسطة تلك المراكز • ومما أكسب الداوية هيبة وحصانة الغرب الأوروبى فان الداوية كانوا رهبانا قبل كل شيء ، مما أكسبهم أيضا احترام المسيحيين • ولذلك لجأ الملوك والبابوات للداوية لتولى أعمالهم المالية ، حتى أن ملوك فرنسا منذ عهد فيليب أغسطس حتى عهد فيليب الرابع كانوا يوكلون الداوية للقيام بجميع أعمالهم المالية (٣) •

وأثارت ثروة الداوية فى النهاية حقد كل من البابوية والملكية على السواء ، كما أن هذه الثروة كانت سببا فى تدهور أخلاقيات أفراد الهيئة وزيادة عجرفة أفرادها (٤) ، مما جعل الرأى العام الاوروبى ينقلب ضد هيئة الداوية ، فانتهز رجال الدين هذه الفرصة فوقفوا ضد الهيئة مطالبين بحقهم فى تلك الثروات ، يضاف الى ذلك أن عامة الناس فى أوروبا، بدأت تتهم الداوية بسوء الاخلاق ، فوجهت عدة اتهامات ضد الهيئة منها تهمة تعاطى الخمور حتى أصبحت كلمة « الداوى » تطلق على الشخص الذى يتعاطى الخمر بكثرة «Boire Comme Un Templier» ، كما أصبحت كلمة Temple Hause صفة لكل بيت سيء السمعة (٥) •

---

(١) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 436
(٢) Funck, Le Moyen Age, p. 386
(٣) Dict. Apologétique, col. 1585
(٤) Lacroix, op. cit., p. 198
(٥) Dict. Apologetique, col 1585

وسرعان ما انتشرت تلك الشائعات بين الناس ، ومما ساعد على زواجها تلك السرية الشديدة التى اتبعتها الهيئة أثناء اجتماع أفرادها ، كما أن قبول الفارس كان يتم فى سرية تامة أثناء الليل ، فوضعت الحراسة المشددة على أبواب قاعات الاجتماعات ، بالاضافة الى أن قانون الداوية أصبح غير معروف الا لكبار رجال الهيئة ، أما صغار رجالها فقد أطاعوا القانون دون معرفته (١) ، وسمع عامة الناس فى أوروبا الداوية يقولون أن قانون الداوية لا يعرفه الا هم والله والشيطان ، مما جعل العامة يعتقدون أن هذا القانون الغامض لابد وأنه يتضمن أشياء غريبة •

وأخيرا تم اعتقال أفراد هيئة الداوية بفرنسا فى ١٣ أكتوبر ١٣٠٧ وزج بهم جميعا فى السجن ، كما أقيمت لهم محاكمة ووجهت لهم اتهامات كبرى منها أن الداوية أنكروا وجود السيد المسيح والسيدة العذراء ، كما أنهم قاموا باهانة الصليب وعبدوا وثن Idol على شكل قطة أطلقوا عليه اسم Baphomet ، وعدة اتهامات أخرى تبدو غريبة للغاية منها أنهم كانوا يحرقون موتاهم ويجبرون المستجدين فى الهيئة على أكل رماد الموتى ، هذا بالاضافة الى عدة اتهامات أخرى بشعة تبدو أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة (٢) •

وسرعان ما ظهرت عدة آراء بخصوص اخلاص الهيئة للمسيحية ومدى صحة هذه الاتهامات التى وجهت لها ، وما اذا كان فيليب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤) ملك فرنسا كان يطمع فى امتلاك ثروة الداوية الضخمة أم أنه أراد تخليص المسيحية من تلك الطائفة الخارجة • وتبدو الآراء متضاربة بشأن هذه المشكلة ، فقد وردت فى بعض المراجع كلمات تقدير وثناء على رجال الداوية والاسبتارية لخدمتهم الصليبيين فى الأراضى المقدسة وكيف قام رجال الهيئتين بجهود ضخمة فى الحرب ضد المسلمين فى الشرق (٣) •

وفى نفس الوقت قام بعض المؤرخين المحدثين باتهام هيئتى الداوية والاسبتارية بامتلاك اقطاعات واسعة فى كل من الشرق والغرب حتى

---

(١) Beasant, op. cit., p. 424

(٢) Conder, op. cit., p. 425
Ollivier, op. cit., p. 125

(٣) Beasant, op. cit., p. 424

أنهم تحولوا الى فئة تعمل على الكسب المادى واحراز الأموال والثروات حتى تطور الأمر بهؤلاء الرهبان الفرسان فأصبحوا لا يهتمون بأمـــور الحرب والدفاع عن الأراضى المقدسة كما أصبحوا يكونون فئة ارستقراطية يعتبر الانتماء لها فى حد ذاته شرفا يعطى صاحبه العديد من الامتيازات ويعفيه من الواجبات (١) •

كذلك فانه فى عهد فيليب الرابع أصبحت كل قلعة من قلاع الداوية عبارة عن مركز من مراكز القوة والسلطة ، كما أن الأمراء والنبلاء بفرنسا كانوا يقدمون الشكاوى للملك لامتناع أفصالهم من تقديم الخـــدمة العسكرية بحجة أنهم من رجال الداوية ، مما جعل فيليب الرابع يعمل على جمع المعلومات عن نشاط تلك الهيئة ومعرفة مركزها المالى تماما ، يضاف الى ذلك أن الملك الفرنسى بدأ يخاف من كثرة ممتلكات الهيئة ، كما أن عدد أفرادها كان قد أصبح ١٥٫٠٠٠ داوى ينعمون جميعا بامتيازات ضخمة ولا يؤدون خدمات أو التزامات فيما عدا ذلك النشاط المالى الذى مارسوه على نطاق واسع •

ولذلك طلب الملك الفرنسى عام ١٢٩٠ تقريرا عن أملاك الهيئة ، خاصة وأن وقاحة أفرادها كانت قد وصلت الى حد أنهم رفضوا دفع الضرائب للملك ، وبهذا بدأ النزاع الذى انتهى باعلان سقوط الداوية بمقتضى مرسوم بابوى vox in Excelso صدر فى ٣ أبريل ١٣١٢ وأعلنه البابا كليمنت الخامس • وهكذا تشتت أفراد الداوية فمنهم من دخل الحياة الديرية ومنهم من تخلى عن عهده للهيئة ومارس حياة المدنية فتزوج وعمل فى مهنة أو حرفة ، أما مقدم الهيئة جاك دى موليه Jacques de Molay ومعه بعض أفراد الهيئة فقد تم احراقهم أحياء فى ١٩ مارس سنة ١٣١٤ بعد أن قاسوا من شدة التعذيب ، ثم أمر فيليب الرابع بنقل أموال الهيئة الى هيئة الاسبتارية ، وبذلك قضى على هيئة الداوية قضاء تاما (٢) •

وكيفما كان الأمر ، فقد ذكر لنا المؤرخ براور أن العيب الذى ظهر فى عهد الفرسان الرهبان فى الشام ، هو استقلال تلك الهيئات استقلالا تاما

---

(١) Beasant, op. cit., p. 278

(٢) Funck, op. cit., p. 387
Ollivier, op. cit., p. 164
Lacroix, op. cit., p. 200

عن سلطة الملكية ، وخضوع الهيئات المباشر للبابوية ، مما جعل الهيئات العسكرية تصبح عامل ضعف لجميع القوى الصليبية فى الشام • ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ وليم الصورى ، أشار الى هذه الحقيقة ، وكان ذلك فى بداية عهد الهيئات بالشام ، كما راح هذا المؤرخ الصليبى المعاصر يتهم البابوية بأنها السبب المباشر فى ذلك الاستقلال الخطير الذى تميزت به الهيئات والذى أدى بها الى هذا السلوك (١) • يضاف الى ذلك أن اتباع الهيئات سياسية عسكرية ومدنية مختلفة عن سياسة سائر الصليبية بهدف تحقيق مصالحها ، أضر بالصليبيين عامة كما وضح من صفحات الرسالة السابقة •

ورغم أن الداوية والاسبتارية كونا معا ما شبهه بعض المؤرخين بحملة صليبية دائمة لما تميزت به هذه الفرق من دقة النظام وجودة السلاح ، الا أن سياسة الرهبان الفرسان العسكرية اختلفت أيضا عن السياسة العامة للدولة ، كما ان هذه السياسة تميزت فى معظم الأحيان بالتهور والهجوم دون مراعاة الظروف المحيطة • بالاضافة الى ذلك فان الخلافات التى وقعت بين الهيئتين من جانب ، وبين الهيئتين وبارونات الشام من جانب آخر ، كان له اسوا الأثر على الصليبيين عامة (٢) •

أما هيئة فرسان التيوتون فقد ظلت تباشر أعمالها الخيرية نحو رعاياها من المرضى والجرحى الألمان حتى سنة ١٢٦٠ عندما ظهر فى العالم الاسلامى المظفر قطز وأراد أن يسير نحو غزة الى بلاد الشام بعد أن علم برجوع هولاكو الى بلاده ، وقد أرسل قطز سفارة مصرية الى الصليبيين يطلب منهم المرور فى أراضيهم وامداده بالمؤن ، وعندما بحث الصليبيون هذا المطلب ، رحبوا بذلك لعلمهم بخطر المغول المتبربرين ، فوافقوا على طلب السلطان • ولكن مقدم التيوتون حينذاك وهو أنو سنجر هاوسن Anno of Sangerhausen حذر باقى الصليبيين من اعطاء كل الثقة للمسلمين خاصة فى احالة انتصارهم على المغول ، وكان لهذا الرأى تأثيره على باقى الصليبيين ، فرفضوا التحالف العسكرى مع قطز ضد المغول واكتفوا بقبول مروره داخل أراضيهم (٣) •

---

(١) Willian of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 240
(٢) Prawer, op. cit., Vol. I, 592
(٣) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 311

غير أن البقية الباقية من عمر الصليبيين بالشام لم يبق عليه وقتذاك سوى سنوات قليلة ، فسرعان ما استرد السلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون معظم ما بقى للصليبيين بالشام ، وتركوا للأشرف خليل القضاء على آخر معاملهم وهو مدينة عكا . وعندما خرج الأشرف خليل لحصار عكا سنة ١٢٩١ ، لم يكن بها من الصليبيين غير عدد قليل بالاضافة الى قوات الداوية والاسبتارية ، أما التيوتون فكان مقدمهم حينذاك هو بورشار شفاندن Burchard of Schwanden الذى اختار أن يستقيل من منصبه كمقدم للهيئة فى ذلك الوقت الحرج ، فتولى بعده قيادة الهيئة كونراد فوتشفاجن Conrad of Feutchwagen ، الذى أرسل الى الغرب طالبا النجدة للمشاركة فى الدفاع عن عكا (١) . ورغم تلك المحاولات من جانب جميع الطوائف الصليبية الموجودة فى عكا لانقاذ المدينة ، الا أن الأشرف خليل تمكن من الاستيلاء على آخر معاقل الصليبيين فى يوم الجمعة ١٧ جمادى أول سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م وطردهم منه نهائيا (٢) .

وسار من بقى من أفراد هيئة الفرسان التيوتون ، بعد استرداد المسلمين لمدينة عكا ، الى الغرب ، حيث ركزت الهيئة الألمانية جهودها ضد الوثنيين فى منطقة بروسيا ، وكانت الهيئة قد نقلت أرشيفها لعدة سنوات قبل ذلك من عكا الى البندقية ومنها الى مدينة Marienburg أو Marburgo تلك المدينة التى أصبحت حاضرة الفرسان التيوتون فى الشمال ، وتقع هذه الحاضرة على نهر الفستولا وهناك انضم لهيئة التيوتون هيئات دينية حربية أخرى للتعاون فى الحرب ضد الوثنيين .

وباستقرار هيئة التيوتون فى الغرب الأوروبى ، امتلكت الهيئة أراض واسعة فى بروسيا فاستقرت بها . وجدير بالذكر أنه فى عام ١٨٠٩ قام نابليون بونابرت القضاء على هيئة الفرسان التيوتون ، ولكن هذه الهيئة أعيد تأسيسها ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا (٣) .

---

(١) Runciman, op. cit., Vol. III, p. 413

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٨ .

(٣) Bordonove, op. cit., p. 244
Thompson, Hist. of the Middle Ages, p. 382

وعلى هذا الوجه انتهى دور الفرسان التيوتون بالشرق بعد أن قاموا بدورهم الحربى والخيرى تجاه أبناء دينهم على أكمل وجه ، ورغم صغر حجم عملياتهم الحربية الا أن أحوال الشام الصليبى المنهارة جعلت الهيئة الألمانية تعمل على تغيير مجال نشاط قبل سقوط عكا بعدة سنوات لتستكمل جهودها فى مجال أكثر اتساعا وأقل اضطرابا ، فأصبح تاريخها منذ تلك السنوات السابقة لسقوط عكا ينتمى الى التاريخ الأوروبى أكثر من انتمائه لتاريخ الحروب الصليبية فى الشرق الاسلامى ٠

خاتمة

وهكذا يتضح من عرضنا السابق كيف تطور الأمر بهيئات الرهبان الفرسان وخاصة الاسبتارية والداوية ، فأصبح بعد العمل فى المجالات الخيرية والاجتماعية واقتداء حياة الفقر والتقشف والطاعة ، يعملون فى المجالات الحربية والسياسية ويمتلكون الثروات الضخمة والاقطاعات الواسعة ، وذلك نتيجة الهبات والاعفاءات التى انهالت على تلك الهيئات بعد أن أثبتت فرقها المحاربة كفاءة حربية عالية •

وبجانب التمتع بثراء واسع ، فقد تمتعت الهيئات الثلاثة الداوية والاسبتارية والتيوتون برضاء البابوية وحمايتها ، مما جعلهم ينهجون سياسة مستقلة وحياة خاصة لا دخل لملك صليبى أو أمير أو أسقف فيها • وكان لامتلاك الهيئات لهذه الثروات والاستقلال عن سلطة الملكية الصليبية أن أصبح هؤلاء ينافسون الملوك والأمراء الصليبيين فى السلطة ، خاصة وأن الهيئات امتلكت أهم دعامة استند عليها الاقطاع ألا وهى الأرض •

وكانت الداوية والاسبتارية ثم التيوتون من بعدهم ، يمثلون عامل قوة للجيوش الصليبية ، خاصة وأن تلك الهيئات كانت لها فرق منظمة ومدربة بالاضافة الى أن أفرادها وهبوا حياتهم كاملة لخدمة المسيحية ، مما ميزهم عن باقى الفرق الصليبية الاقطاعية المتفككة ، فكان الرهبان الفرسان يخوضون المعارك فى أى زمان وأى مكان دون التقيد بفترة معينة ومهما طالت المعارك • ولكن بازدياد ثروة ونفوذ وظهور تلك الهيئات كقوة عسكرية لا غنى لحكام الصليبيين عنها ، فان مقدمى الهيئات أخذوا يتدخلون فى الشئون السياسية للدولة الصليبية ، كما كان لنزاعهم فيما بينهم ، ونزاعهم مع رجال الدين ، وارتباطهم مع المسلمين بمعاهدات سرية ، أكبر الأثر فى اضعاف الكيان الصليبى فى الشام •. وهكذا كان الرهبان الفرسان عامل قوة للصليبيين فى النصف الأول للعصر الصليبى فى الشام ، وعامل ضعف فى النصف الثانى لذلك العصر ، وعامل أساسى فى انهيار الكيان الصليبى فى الشرق •

وقد أدرك حكام المسلمين منذ عهد عماد الدين زنكى مدى خطورة هؤلاء الرهبان الفرسان ومدى اعتماد ملوك الصليبيين على فرقهم المنتظمة المدربة ، فعمل الحكام المسلمون على ابادة تلك الفئة من الصليبيين بصفة خاصة لعلمهم بمدى كراهيتهم للمسلمين ؛ هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن معاملة حكام المسلمين تجاه ملوك وأمراء الصليبيين كانت فى معظم الأحيان تتسم بالود والتفاهم والاحترام المتبادل •

ولذلك عمل عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين محمود من بعده على استئصال شأفة الصليبيين عامة وهيئات الرهبان الفرسان خاصة ، ولكن جهدها فى هذا المجال لم تؤثر كثيرا فى قوة الهيئات العسكرية بسبب تماسكها بالنظم الأولى والعهود الديرية • كذلك عمل صلاح الدين الأيوبى ، الذى أدرك بدوره خطورة هؤلاء المحاربين ، على الخلاص منهم وهدم قلاعهم ، فأدى فى هذا المجال خدمات جليلة للاسلام • وقام حكام وأمراء المسلمين من بعده ، فى كل من مصر والشام ، بجهود ضخمة فى مقاومة الرهبان الفرسان بعد أن عرفوا خطورة قلاعهم القوية وجنودهم المحاربة على الكيان الاسلامى ، حتى كان ظهور السلطان الظاهر بيبرس ، الذى بدأ مقاومة شديدة ، فهدم الكثير من قلاعهم وحصونهم ، ثم أكمل هذا العمل بعده السلطان المنصور قلاوون والأشرف خليل الذى استطاع أن يخلص الشام من الصليبيين نهائيا ، وأن يقضى على قوة هيئات الرهبان الفرسان •

وهكذا انتهى عهد الصليبيين بالشام ، ذلك العهد الذى استمر قرابة قرنين من الزمان لعبت فيه الهيئات العسكرية من الاسبتارية والداوية والتيوتون دورا هاما فى مساعدة الصليبيين وتأمين مراكزهم •

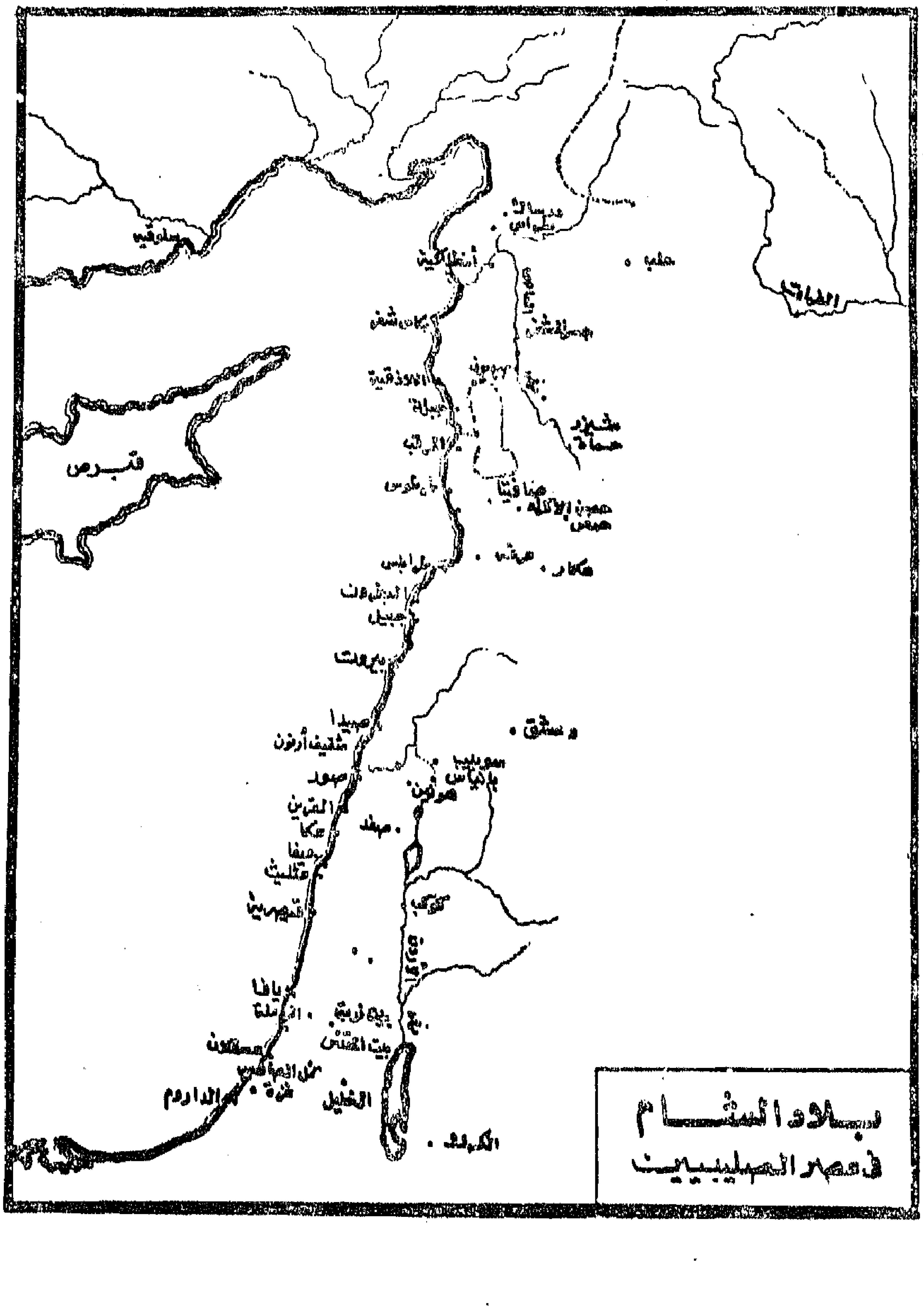

بلاد الشام في عصر الصليبيين

مصادر البحث

اولا : المصادر والمراجع الأوروبية :

— d'Ales (A) :

Dictionnaire Apologetique de la Foi Catholique, Paris 1928.

— **Ambroise :**

The Crusade of Richard the Lion Heart, (English trans.) New York 1941.

— **Archer (T) Kingsford (C) :**

The Crusades, London 1919.

— **Barker :**

The Crusades, Oxford 1923.

— **Besant (W) & Palmer (E.H.) :**

Jerusalem the City of Herod & Saladin, London 1908.

— **Benvenisti (M) :**

The Crusaders in the Holy Land Jerusalem, 1970.

— **Bloch (M) :**

L'èvolution de l'Humanitè, Paris 1940.

— **Boase (T.S.R) :**

Castles & Churches of the Crusading Kingdom, London 1967.

— **Bordonove (G) :**

Il Rogo Dei Templari, Milano 1973

— **Brèhier (L) :**

L'Eglise et l'Orient au Moyen Age, Paris 1928

— **Cahen (C) :**

La Syrie du Nord a l'Époque des Croisades et la Principaute Franque d'Antioche, Paris 1940.

— **Cambridge Med. Hist. Vol. V., Cambridge 1957**

— **Conder :**

The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 - 1291 A.D., London 1897

— **Dodu (G) :**

Le Royaume Latin de Jerusalem, Paris 1914.

— **Duggan(A) :**

The Story of the Crusades, 1963

— **Dumesil (A) :**

Dictionnaire Historique et Geographique et Biographique des Croisades.

— **Encyclopedia Britannica : Vol : 21**

— **Feddan (R) & Thomson (J) :**

The Crusaders Castles, London 1957

— **Fliche et Martin :**

Histoire de l'Eglise, Paris 1953

— **Funck (F) :**

Le Moyen Age, Paris

— **Grousset (R) :**

Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, (3 Vols), Paris 1943

— **Heer (F) :**

The Medeival World, 1962

— **Iorga :**

Breve Histoire des Croisades, Paris 1924

— **Joinville :**

Memoirs of the Crusades, New York Trans. by Sir F.T. Marzials

— **Kantarowicz (E) :**

Fredrick The Second, London 1931

— **King (E.J) :**

The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931

— **Lacroix (P) :**

Vie Militaire et Religieuse au Moyen Age, Paris 1899

— **Lamb. (H) :**
The Crusaders Iron Men & Saints, London

— **Lambert (E) :**
L'Architecture des Templiers, Paris 1955

— **Lane Poole (S) :**
Saladin & The Fall of the Kingdom of Jerusalem, London 1926

— **Le Roulx Delaville :**
Le Archives, La Bibliothéque et le Tresor de l'Ordre de Saint Jean de Jerus. a Malthe, Paris 1883

— **Longnon (J) :**
Les Francais d'Outremer au Moyen Age, Paris 1929

— **Michaud (J.F) :**
Histoire des Croisades (5 Vols), Paria 1829

— **Migne (A) :**
Nouvel Encyclopedie Théologique, Paris 1852

— **Mills (C) :**
A History of the Crusades for the Recovery & Possession of the Holy Land, London 1828

— **Ollivier (A) :**
Les Templiers, Bourges 1974

— **Oman (C.W.) :**
A History of the art of War in the Middle Ages, Vol. I, London 1924

— **O'Taylor (H) :**
The Mediaeval Mind, Harvard 1966

— **Pernoud (R) :**
The Crusades, London 1962

— **Peacock (E) :**
On an Early French Deed

— **Ponsoye (P) :**
L'Isam et le Graal, Paris 1957

— **Prawer (J) :**

Hist. de Royaume Latin de Jerusalem, Vol. I, Paris 1969

— **Receuil des Historiens des Croisades :**

Tome I Doc. Arm.: Vahran d'Edesse. Table Chronologique de Hethoum. Chronique de Gregoire le Pretre. Extrait de la Chronique de Michel Le Syrien.

Tome II Doc. Arm.: Hayton : La Flor des Estoires de la Terres. Les Gestes Chiprois.

Tome V Extordium Hospitalariorum Guillaume de St. Esteve.

— **Richard (J) :**

Le Royaume Latin de Jerusalem, Paris 1953

— **Rohricht (R) :**

Beitrager Zur Geschichte der Kreuzzuge (2 Vols), Berlin.

— **Runciman (S) :**

A History of the Crusades, (3 Vols) London 1951 - 1954

— **Schlumberger (G) :**

Renaud de Chatillon, Paris 1898

— **Smail :**

Crusading Warfare, Cambridge 1954

— **Smolett :**

Encyclopedia Universalis (Vol. 15), Paris 1968

— **Stevenson (W.B) :**

The Crusaders in the East, Beirut 1968

— **Thompson (J.W.) :**

- Hist. of the Middle Ages, London 1931
- Economic & Social Hist. of the Middle Ages, New York 1959

— **William of Tyre :**

A History of Deeds Done Beyond the Sea, (Translated), Columbia Univ. Press, 1943

— **Williams (J) :**

Knights of the Crusades, New York 1962

— **Vacant et Mangenot :**

Dict. de Thealogique Catholique Paria. 1923.

ثانيا : المصادر العربية :

ـ ابن الأثير : (على بن محمد) ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م

ـ الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ .

ـ التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر احمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ .

ـ ابن ايبك الدواداري : (ابو بكر بن عبد الله) ت حوالى ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م

ـ كنز الدرر وجامع الغرر .

الجزء السادس : الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٦١ .

الجزء السابع : الدر المطلوب فى اخبار بنى ايوب ، تحقيق الدكتور سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ .

الجزء الثامن : الدرة الزكية فى اخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ١٩٧١ .

ـ ابن جبير : (محمد بن احمد) ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م

ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير) .

ـ ابن الجوزى : (عبد الرحمن بن على)

ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ج ٨ ، طبعة الهند ١٩٥ م / ١٣٧٠ هـ .

ـ ابن حوقل : (أبو القاسم النصيبى) ت بعد ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م .

ـ كتاب صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ .

ـ ابن الشحنة : (أبو الفضل محمد)

ـ الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٩٠٩ .

ـ ابن شداد : (القاضى بهاء الدين) ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م .

ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ط . القاهرة ١٩٦٢ .

ـ ابن العبرى (غريغوريس الملطى) ت ٦٨٥ هـ / ٢١٨٦ م .

ـ تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ .

ـ ابن العديم : (كمال الدين عمر بن احمد) ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م .

ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، ٣ أجزاء ، دمشق ١٩٥١ ـ ١٩٦٨ .

ـ ابن القلانسى : (أبو يعلى حمزة)

ـ ذيل تاريخ دمشق ، ط . بيروت ١٩٠٨ .

ـ ابن واصل : (محمد بن سالم) ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م

ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ،

ج ١ ـ ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠ .

ج ٤ تحقيق د. حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ .
— ابو الفدا : (اسماعيل بن على) ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م
— المختصر فى أخبار البشر ، ٤ اجزاء ، استانبول ١٨٧٠ .
— ابو المحاسن بن تغربردى : (جمال الدين يوسف) ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزءا ، القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٧٢ .
— ابو شامة : (عبد الرحمن بن اسماعيل) ت ٦٦٥ هـ /١٢٦٨ م
— كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ،
ج ١ تحقيق د. محمد حلمى احمد ، القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٦٢ .
ج ٢ ط. القاهرة ١٨٧٠ .
— الذيل على الروضتين ، تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٧ .
— اسامة بن منقذ : (ابو المظفر بن مرشد الشيزرى)
— كتاب الاعتبار ، نشر فيليب حتى ، برنستون ١٩٥٦ .
— الاصطخرى : (ابو اسحاق ابراهيم بن محمد)
— المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ١٩٦١ .
— الذهبى : (محمد بن أحمد) ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م
— تاريخ دول اسلام ، ج ٢ ، طبعة حيدر أباد ١٣٦٥ هـ .
— سبط ابن الجوزى : (يوسف بن قزغلو) ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م
— مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ج ٨ ، ط حيدر اباد ، ١٩٥١ .
— عماد الدين الأصفهانى : (محمد بن محمد) ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م
— كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ليدن ، ١٨٨٨ م .
— العينى : (محمود بن أحمد) ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م
— عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، فى الجزء الثانى من مجموعة الـ Receuil .
— المقريزى : (احمد بى على) ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م
— السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د. مصطفى زيادة ، جزءان فى ٦ اقسام ، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٥٨ .
— النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م
— نهاية الارب فى فنون الأدب ، ج ٢٩ ، مخطوط بدار الكتب معارف عامة .

ثالثا : المراجع العربية المترجمة :

د. أحمــد دراج

المماليك والفرنج — القاهرة ١٩١٦ .

د. السيد الباز العرينى

مقالة عن الاقطاع الحربى عند الصـــليبيين بمملكة بيت المقــدس — القاهرة ١٩٥٦ .

ـ برنـــارد لـــويس

الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، نقله الى العربية د. ســهيل زكار — ١٩٧١ (جزءان) .

أ.د. ســعيد عاشــور

* أوروبا العصور اوسطى — القاهرة ١٩٦٦ (جزءان) .
* الحركة الصليبية — ١٩٦٣ (جزءان) .
* مقال عن فردريك الثانى والشرق العربى نشر بالمجلة التاريخية المصرية — المجلد رقم ١١ ، ١٩٦٣ .

د. عبــد الرحمن زكى

مقال عن القلاع فى الحروب الصــليبية ، نشر بالمجلة التاريخيــة المصرية ، المجلد رقم ١٥ ، ١٩٦٩ .

د. مصطفى زيـــادة

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصـــورة — القـــاهرة ١٩٦١ .

د. نظير حسان ســعداوى

التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ١٩٥٧ .

الملاحق

ملحق رقم ١

قائمة بأسماء مقدمى هيئة الاسبتارية
فى بلاد الشـــام

١ ــ جيرار Gerard
الذى كان ببلاد الشام عند بداية قدوم الصليبيين الى الشرق .
١١١٣ – ١١١٩ .

٢ ــ ريموند دى بيو Raymond du Puy
اول مقدم للهيئة واول من وضع قانونا لها .
١١٢٥ – ١١٥٧ .

٣ ــ اوجر دى بالبن Auger de Balben

٤ ــ ارنولد دى كومب Arnold de Comps

٥ ــ جيلبرت اسيلى Gilbert Assaili
١١٦٣ – ١١٧٠ .

٦ ــ كاست دى مورول Caste de Murols
١١٦٩ – ١١٧١ .

٧ ــ جوبرت Gobert
١١٧٣ – ١١٧٧ .

٨ ــ جوفرى دى دينجون Geoffrey de Donjon

٩ ــ ارمانيو واسب Armengaud D'Aspe

١٠ــ روجيه دى مولين Roger de Moulins
١١٩٠ – ١١٩٢ .

١١ــ جارنيه دى نابلس Garnier de Nablus

١٢ــ الفونسو البرتغالى Alfonso of Portugal
١٢٠٤ – ١٢٠٧ .

١٣ــ جوفرى لورا Geoffrey le Rat
١٢٠٦ – ١٢٠٧

١٤ـ جارين دى مونتاجو Garin de Montaigu ١٢١٠ — ١٢٢٧ .

١٥ـ برتراند دى ثيسى Bertrand de Thessay

١٦ـ جارين Guerin ١٢٣١ .

١٧ـ برتراند دى كومب Bertrand de Comps ١٢٣٦ — ١٢٣٩ .

١٨ـ بيتر دى فيلبريد Peter de Villa Brida ١٢٤٠ — ١٢٤١ .

١٩ـ بيتر دى كاستلو نوفو William de Castello Novo ١٢٤٣ — ١٢٥٨ .

٢٠ـ هيوريفيل Hugh Revel ١٢٥٨ — ١٢٧٦ .

٢١ـ نيقولاس دى لورنى Nicholas de Lorgne , ١٢٧٦ — ١٢٨٣ .

٢٢ـ جون دى فيلير Jean de Villiers اغسطس ١٢٨٩ حتى اكتوبر من نفس العام .

انظر :

King, op. cit., p. 312

Le Roulx Delaville, op. cit., p. 210

ملحق رقم ٢

قائمة بأسماء مقدمى هيئة الداوية

فى بلاد الشـام

١ ـ **هيو دى باين** Hugh de Payens
انتخب سنة ١١١٩ حتى وفاته ٢٤ مايو ١١٣٦

٢ ـ **روبرت دى كراون** Robert de Craon
انتخب فى يونية ١١٣٦ حتى وفاته ١٣ يناير ١١٤٧

٣ ـ **افرار دى بار** Everard des Barres
انتخب فى يناير ١١٤٧ حتى وفاته ٢٥ نوفمبر ١١٤٧

٤ ـ **برنارد دى ترملاى** Bernard de Tremlay
انتخب فى يونية ١١٥١ حتى وفاته ١٦ اغسطس ١١٥٣

٥ ـ **افـرار** Everard
سبتمبر ١١٥٣ حتى وفاته آخر عام ١١٥٤

٦ ـ **اندريه دى مونتبار** Andre de Montbard
ديسمبر ١١٥٤ حتى وفاته ١٧ اكتوبر ١١٥٦

٧ ـ **برنارد بلانكفور** Bernard de Blanquefort
اكتوبر ١١٥٩ حتى وفاته ٢ يناير ١١٦٩

٨ ـ **فيليب دى ميلى** Philippe de Milly ou Naplouse
يناير ١١٦٩ حتى وفاته ٣ أبريل ١١٧١

٩ ـ **أود سان أومون** Eude de Saint-Amand
ابريل ١١٧١ حتى وفاته ١٩ اكتوبر ١١٧٩

١٠ـ **ارنولد دى توروج** Arnaud de Tour Rouge ou Toroge
اوائل عام ١١٨١ حتى وفاته ٣٠ سبتمبر ١١٨٤

١١ـ **جيرار ريد فورد** Gerard de Ridefort
اكتوبر ١١٨٤ حتى وفاته اول اكتوبر ١١٨٩

١٢ـ **روبرت دى سابليه** Robert de Sable
آخر عام ١١٨٩ حتى وفاته ١٣ يناير ١١٩٣

١٣ـ **جيلبرت اريل** Gilbert Arail
فبراير ١١٩٣ حتى وفاته ٢٠ ديسمبر ١٢٠٠

١٤ـ **فيليب دى بيسيس** Philippe du Piaissis
اوائل عام ١٢٠١ حتى وفاته نوفمبر ١٢٠٩

١٥ــ جيوم شارت Guillaume de Chartes

١٢١٠ حتى وفاته ٢٦ اغسطس ١٢١٨

١٦ــ بيير دى مونتاجو Pierre de Montaigu

١٢١٩ حتى وفاته عام ١٢٣٢

١٧ــ ارموند دى بريجور Armand de Perigord

١٢٣٢ حتى اكتوبر ١٢٤٤

١٨ــ جيوم دى سوناك Guillaume de Sonnac

١٢٤٤ حتى ٣ يوليو ١٢٥٠

١٩ــ رينو دى فيشيه Renaud de Vichier

يوليـــو ١٢٥٠

٢٠ــ توماس بيرو Thomas Beraud

٢١ــ جيوم دى بوجو Guillaume de Beaujeu

١٣ مايو ١٢٧٣ حتى ١٨ مايو ١٢٩١

٢٢ــ ثوماس جودن Thomas Gaudin

اغسطس ١٢٩١ حتى ابريل ١٢٩٢

٢٣ــ جاك دى موليه Jacques de Molay

١٢٩٢ — ١٣١٤ آخر مقدم لهيئة الداوية وقد لقى حتفه على يد الملك فيليب الرابع ملك فرنسا الذى أمر باعدامه حرقا مع بعض زملائه فى فرنسا .

انظر : Encyclopedia Universalis, Vol. 15, p. 920

ملحق رقم ٣
قائمة باسماء مقدمي هيئة التيوتون
بلاد الشام

١ ــ جيرار Gerhard

٢ ــ فالبوت فون بازنهايم Walpot von Vassenheim

٣ ــ اوتو فون كربن Otto von Kerpen

٤ ــ هرمان بارت Hermann Bart

٥ ــ هرمان فون سالزا Herman von Salza

٦ ــ كونراد فون ثورينجن Conrad von Thuringen

٧ ــ جيرار فون مالبرج Gerard von Malberg

٨ ــ جوتفريد فون هوهلوه Gottefried von Hohelohe

٩ ــ بوبو فون اوسترنا Poppo von Osterna

١٠ــ انو فون سنجرهوسن Anno von Sangerhausen

١١ــ هارتمان فون هلدرنجن Hartmann von Heldrungen

١٢ــ بورشار فون شفاندن Burchard von Schwanden

١٣ــ كونراد فون فوتشفاجن Conrad von Feuchtwagen

انظر : Rohricht, op. cit., Vol. II, p. 383

محتويات الرســالة

صفحة

المقــــدمة ٥

الفصل الاول : نشأة هيئة الاسبتارية وهيئة الداوية ببلاد الشام ٩

الفصل الثانى : النشاط الحربى للاسبتارية والداوية ٢٣

١ ـ دور الاسبتارية والداوية فى حصار دمشق ٣٥

٢ ـ دور الاسبتارية والداوية فى حصار عسقلان ٣٧

٣ ـ كارثة الاسبتارية فى بانياس ٤٠

٤ ـ دور الداوية والاسبتارية فى حروب الصليبيين ضد مصر حتى سنة ١١٧٦ ٤١

٥ ـ موقف الداوية والاسبتارية العدائى من حروب صلاح الدين ببلاد الشام ٤٩

٦ ـ موقف الداوية والاسبتارية العدائى ضد مصر بعد عصر صلاح الدين ٦٤

الفصل الثالث : قلاع الاسبتارية والداوية ببلاد الشام ٦٨

قلاع الاسبتارية : حصن الاكراد ٧٤

قلعة بيت جبرين ٧٧

قلعة كوكب ٧٨

قلعة أرسـوف ٨١

قلعة هونين ٨١

قلعة المرقب ٨٢

قلاع الـداوية : قلعة غزة ٨٥

قلعة صــفد ٨٧

قلعة صــافيتا ٨٩

قلعة الداروم ٩٠

قلعة جسر بنات يعقوب ٩٢

قلعة عثليث ٩٣

صفحة

الفصل الرابع : النشاط السياسى للرهبان الفرسان فى بلاد الشام ٩٨
(أ) العلاقة بين الداوية والاسبتارية وبين رجال الكنيسة ٩٨
(ب) العلاقة بين هيئة الاسبتارية وهيئة الداوية ١٠٤
(جـ) علاقة الرهبان الفرسان بالقوى الاسلامية ١٠٩
(د) العلاقة بين الرهبان الفرسان والاسماعيلية ١١٧
(هـ) علاقة الرهبان الفرسان بملوك بيت المقدس وملوك الغرب ١٢١
(و) العلاقة بين الرهبان الفرسان ومملكة أرمينيا الصغرى وامارتى انطاكية وطرابلس ١٣٢
الفصل الخامس : التنظيمات الادارية والحربية والديرية للداوية والاسبتارية فى بلاد الشام ١٣٩
الفصل السادس : هيئة الفرسان التيوتون فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ١٦٠
ـ نشأة هيئة الفرسان التيوتون ونشاطها ١٦١
ـ قلاع هيئة الفرسان التيوتون وأملاكهم المختلفة فى الشام ١٦٩
ـ الدور الحربى والسياسى الذى لعبته الهيئة التيوتونية فى بلاد الشام ١٧٦
ـ التنظيمات الداخلية لهيئة الفرسان التيوتون ١٨١
الفصل السابع : نهاية الرهبان الفرسان فى بلاد الشام ١٨٥
الخاتمة ٢٠٥
مصادر البحث ٢٠٧
الملاحق ٢١٥
الفهرس ٢٢١

تم الطبع
بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
المدير العام
البرنس حموده حسين
١٩٩٤/١٢/٥

رقم الايداع ١٩٩٤/٨٦١٥

الترقيم الدولى 977-04-1231-7

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٩٩٣/٢١٣٦/١٠٠٠)

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina